سيمون حايك

النَّاصِرُ لدينِ الله

أوّل خليفة في الأندلس

الطبعة الأولى
تشرين الثاني ١٩٦٢

سيمون حايك

النَّاصِر لدِينِ الله

أوَّل خَليفَة في الأندَلس

طبعة ثانية

تمهيد

قرطبة بالأمس... واليوم

تاريخ قرطبة طويل حافل بالامجاد ولا يخلو من المصائب . كانت قرطبة معروفة قبل هانيبعل القائد القرطاجي العظيم ، لان عدداً كبيراً من سكانها حارب الى جانبه في ايطاليا .

يقول المؤرخ استرابون (Estrabon) ان هذه المدينة كانت عاصمة لشعوب اشورية ، وبطليموس من جهته يذكر ان قرطبة سكنها شعب اشتهر بالعلوم والفنون . وزادت اهميتها بوصول القرطاجيين ، استولى عليها اميلقار برقه (Amilcar Barca) .

ولا يعرف اشتقاق اسم قرطبة، فمنهم من قال انه قردوة (Cordua) وهي مدينة تقع بين ارمينيا وبلاد النهرين. ويعتقد هومبولت (Humbolt) وبونار (Bonard) انها من الكلمات الابرية: كاركور او عار، وهي تدل على الارتفاع، واوباريو Ubario معناه ارتفاع قريب من النهر .

وبوشار يقول انها مشتقة من قرطيبه (Corteba) وبالسريانية معناها آلة لاستخراج الزيت. وبطليموس يسميها كردوبه من الاسم الفينيقي كرطوبه ملخص كارتا طوبا « المدينة الصالحة » .

واذا اختلفت الآراء في اسمها فانها لم تختلف في موقعها حتى في العصور

السابقة للتاريخ ، فقد عثر على آثار دلت على وجود اناس عاشوا في تلك المنطقة على بعد ثمانية كيلومترات من المدينة الحالية .

لما استتب الامر لسبيون الفتى في اسبانيا وطرد القرطاجيين منهـا ، احتل القائد الروماني لوقيوس ماسيوس مدينة قرطبة ومنذ ذلك الحـين تحولت الى عاصمة هذه الولاية الرومانية .

وحسنها الرومان بما أدخلوا عليها من عمران وحضـارة فأنشأوا المعابـد والساحات العامة والملاعب والمسارح والمعسكرات ودار لصك النقود .

وصل فيرياتو البطل الايبري الذي كان يرغب في تحرير بـلاده من الرومان الى ابواب قرطبة واسوارها .

وفي الحروب الرومانية التي دارت رحاها بين القـائدين قيصر وبنبيوس ، دخلها القيصر على رأس قوة مؤلفة من خمسة وعشرين الف رجـل . وانقسمت المدينة الى شطرين : قسم موال لقيصر والقسم الآخر مال لبونبيوس ، غير ان الاولين تغلبوا على الآخرين وقتـلوا منهم حوالي عشرين الف رجل وطردوا الباقين من المدينة فتاهوا على وجوههم في الارض .

ثم جاءت غزوات البربر فزرعت الخراب والدمار في شبه الجزيرة الايبرية ولم تنج قرطبة منه ، وظلت تحت حكم القوط الى ان دخلها العرب عند فتحهم الاندلس بعد معركة وادي بكه . فقد بعث طارق بن زياد مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبد الملك اليها في سبعمائة فارس لان العرب ركبوا جميعاً خيل القنط ولم يبق فيهم راجل وفضلت عنهم الخيل ، فكمنوا بعدوة نهر شقنده في غيضة ارز شامخة ، وأرسلت الادلاء فأمسكوا راعي غنم فسئل عن قرطبة فقـال : « رحل عنها عظماء اهلها الى طليطلة وبقي فيها اميرها في اربعمائـة فارس من حماتهم مع ضعفاء اهلها » . وسئل عن سورها فأخبر انه حصين عال فوق ارضها إلا انه فيه ثغرة ووصفها لهم .

فلما جاء الليل أقبلوا نحو المدينة وسهّل الله لهم اسباب الفتح بأن ارسل من

السماء برذاذ أخفى دقدقة حوافر الخيل . وأقبل العرب رويداً رويداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً . وقد أغفل الحرس السهر على السور ، فلم يظهروا من شدة ما نالهم من المطر والبرد . فترجل القوم حتى عبروا النهر وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً أو أقل ، وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقاً ، ورجعوا الى الراعي في دلالتهم على الثغرة التي ذكرها فأراهم اياها فاذا بها غير مسهلة التسنم ، إلا انه كانت في اسفلها شجرة تين مكنت افنانها من التعلق بها . فصعد رجل من اشداء المسلمين في اعلاها ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها وأعان بعض الناس بعضاً حتى كثروا على السور وركب مغيث ووقف من خارج وأمر اصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ففعلوا وقتلوا نفراً منهم وكسروا اقفال الباب وفتحوه فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة .

فصعد الى البلاط ،منزل الملك، ومعه أدلاؤه، وعرف الملك بدخولهم المدينة فبادر بالفرار عن البلاد في اصحابه وهم زهاء اربعمائة . وخرج الى كنيسة بغربي المدينة وتحصن بها .

وكان الماء يأتيها تحت الارض من عين في سفح جبل . ودافعوا عن انفسهم . وملك مغيث المدينة وما حولها ، وكتب الى طارق بالفتح . وقام على محاصرة الكنيسة ثلاثة اشهر حتى ضاق من ذلك وطال عليه ، فتقدم الى اسود من عبيده اسمه رباح كان ذا بأس ونجدة . فدخل هذا في جنان الى جانب الكنيسة ملتفة الاشجار لعله ن يظفر بأحد يقف به على خبر القوم ، ودعاه ضعف عقله الى ان صعد في بعض تلك الاشجار وذلك ايام الثمر ليجني ما يأكله . فبصر به اهل الكنيسة وشدوا عليه فأخذوه وهم في ذلك هائبون له منكرون لخلقه اذلم يكونوا عاينوا اسود قبله . فاجتمعوا عليه وكثر لغطهم وتعجبهم من خلقته وحسبوا انه مصبوغ او مطلي ببعض الاشياء التي تسود فأدنوه الى القناة التي منها كان يأتيهم الماء وأخذوا في غسله ودلكه بالحبال حتى أدموه فاستغاث بهم وأشار الى ان الذي به خلقة من باريهم . ففهموا إشارته وكفوا عنه واشتد فزعهم منه .

ومكث في اسرهم سبعة ايام لا يتركون التجمع عليه والنظر إليه ، الى ان يسر له الخلاص ليلاً . ففر وأتى الامير مستغيثاً فأخبره وعرفه بالذي اطلع عليه من شأنهم وموضع الماء ومن أي ناحية تأتيهم .

فقطعوا القناة عن جريها الى الكنيسة وسدوا منافذها، فأيقنوا بالهلاك ، فدعاهم مغيث الى الاسلام أو الجزية فأبوا عليه فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم فسميت كنيسة الحرقى .

غير ان أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند ايقان الهلاك ففر عنهم وحده فلحقه مغيث وقبض عليه وسلبه سلاحه وحبسه عنده ليقدم به على امير المؤمنين الوليد .

واختار القصر لنفسه والمدينة لاصحابه .

ويتألف سكانها من اجناس مختلفة في العرق والدين: فمن سوريين الى مصريين وعجم وبربر ويهود ، وفيهم الاشراف وفيهم عامة الشعب . فظهرت المناقشات والمنافسات والخصومات بين بعضهم البعض وسالت الدماء .

فاجتمع ثمانون زعيماً في قرطبة محاولين وضع حد لهذه الفوضى والمنافسات القائمة بين الطوائف ، مفتشين عن امير ينصبوه عليهم .

فلما وصل عبد الرحمن الداخل الى اسبانيا سنة ٧٥٦ ، كانت الفتن ما تزال قائمة والانقسامات بلغت حدها مهددة بزوال السيطرة العربية عن الاندلس ، فعمد الى جمع الشمل فعاقب وسامح وهادن وسالم حتى استتب الامن وعادت هيبة الحكم .

في هذا الجو السلمي راح يشيد القصور وينشىء الحدائق العامة ويبني الحمامات والبرك ويزرع الاشجار .

وقبل موته طلب من المسيحيين ان يبيعوه قسماً من كنيستهم المشيدة على اسم القديس منصور ، كما سنرى ، فأقنعهم وبنى الجامع الاكبر وتوفي قبل ان تنتهي

اهمال البناء .

ثم توالى بعده الامراء الى ان جاء عبد الرحمن الناصر لدين الله او عبد الرحمن الثالث كما يسمونه في الغرب فكان عصره عصر ازدهار وعمران .

ثم خلفه ابنه الحكم الثاني وبلغت قرطبة أوجها على ايامه . وبعدها جاء هشام الثاني الضعيف وكان حاجبه المنصور ابو عامر الذي دوخ الجيوش المسيحية بينما كان الخليفة يستسلم الى ملذاته في قصر الزهراء وحدائقه .

ولما مات المنصور ابو عامر ظهر الضعف والانحلال في جسم الخلافة الاموية في الاندلس وراحت قرطبة تفقد رونقها وجمالها وتذوب شيئاً فشيئاً في عالم الاهمال والاضمحلال .

قال ابن الرقيق : « من أعجب ما روي انه من نصف نهار يوم الثلاثاء لاربع بقين من جمادى الاخرى الى نصف نهار يوم الاربعاء » سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، فتحت قرطبة وهدمت الزهراء وخلع خليفة هو المؤيد وولي خليفة وهو المهدي وزالت دولة بني عامر العظيمة وقتل وزيرهم محمد بن عسقلاجه ونكب خلق من الوزراء وولي الوزارة آخرون وكان ذلك كله على يد عشرة رجال فحامين وجزارين وزبالين وهم جنود المهدي .

وجاء المرابطون والموحدون . وكان هؤلاء على رأسها لما سقطت في يد الملك فرنندو كما سقط غيرها من المدن الاندلسية الجميلة في ايدي الملوك المسيحيين امثال بلنسية وشاطبة وجيان واشبيلية (حمص) ومرسية كما يقول الشاعر ابو البقاء الرندي في قصيدته التي مطلعها : « لكل شيء اذا ما تم نقصان ... »

وأسال بلنسية ما شان مرسية	وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم	من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه	ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن اركان البلاد فما	عسى البقاء اذا لم تبق اركان

وفي القرن الخامس عشر مر عليها الطاعون فأباد عشرين الفاً من سكانها. وقد اشتركت في حروب غرناطة التي دارت رحاها بين ابي عبدالله من جهة والملكين الكاثوليكيين ايزابيل وفرنندو من جهة ثانية ولم تلبث مدينة غرناطة آخر معقل عربي، ان سقطت بأيدي الملكين الكاثوليكيين سنة ١٤٩٢، وبسقوطها زالت السيطرة العربية تماماً عن شبه الجزيرة الايبرية.

واشتركت قرطبة اشتراكاً فعالاً في حروب الاستقلال على ايام نابوليون بونابرت سنة ١٨٠٨ ودخلها عنوة القائد الفرنسي.

موقعها: والمدينة موجهة من الشرق الى الغرب على ضفاف نهر وادي الكبير. وعلى شمالها مرتفعات الجبال السمراء (Sierra Morena) وعلوها عن سطح البحر يتراوح بين مائة ومائة وخمسين متراً. شتاؤها بارد وصيفها حار جداً. يغلب عليها الطقس الجميل والمناخ المعتدل.

قال عنها المقري: «قرطبة قاعدة الاندلس ودار الملك التي يجبى لها ثمرات كل جهة وخيرات كل ناحية، واسطة بين الكور موفية على النهر زاهرة مشرقة، أحدقت بها المنى فحسن مرآها وطاب جناها. مدينة عظيمة طيبة الماء والهواء، أحدقت بها البساتين والزيتون والقرى والمياه والعيون من كل جانب. عاصمة الخلافة، زرع فيها العرب الاشجار الشرقية والنخيل الذي يرمز الى العروبة.

قال فيها الشاعر:

بأربع فاقت الامصار قرطبة — منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان اثنتان والزهراء ثالثة — والعلم اعظم شيء وهو رابعها

كانت قرطبة في الدولة المروانية قبلة الاسلام ومجتمع اعلام الانام وهي من الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد ونهرها من احسن الانهار تصدح في جنباته الاطيار وتنعر النواعير.

اذا مات عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها،

وان مات مطرب بقرطبة فاريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية .

وقال فيها ابو بكر المخزومي :

أقرطبة الغراء هل لي اوبة إليك وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربي منك غمامة وقعقع في ساحات دوحاتك الرعد
لياليك اسحار وأرضك روضة وتربك في استنشاقها عنبر ورد

وابواب قرطبة سبعة ابواب : باب القنطرة الى جهة القبلة ويعرف بباب الوادي ، وباب جزيرة الخضراء وهو على النهر ، وباب الحديد ويعرف بباب سرقصطة ، وباب ابن عبد الجبار وهو باب طليطلة ، وباب رومية وفيه تجتمع الثلاثة ارصفة التي تشق دائرة الارض من جزيرة قادش الى قرمونه الى قرطبة الى سرقصطة الى طراكونه ، ثم باب طلبيره وهو ايضاً باب ليون ، ثم باب عامر القرشي وقدامه المقبرة المنسوبة إليه ، ثم باب الحور ويعرف بباب بطليوس ، ثم باب العطارين وهو باب اشبيليه .

واليوم فان معالمها الأثرية هي : الجامع – الكاتدرائية ، « ساحة المهرز » ، برجا كنيستي القديس يوحنا والقديسة كلارا ، كابلة القديس برتلماوس ، كنيسة القديس سانتيقوب ، والقديسه مارينه ، والحمامات العربية في شارع كارلوس روبيو وصومعة ترسيررا Trassierra .

أفضل الفصول لزيارتها فصل الخريف والربيع فتنبعث منها روائح الزهور من بساتين الليمون والبرتقال في شهر ايار ، وفي أشهر الخريف يستنشق الزائر روائح النرجس والياسمين .

مملكة النبات تسيطر فيها تماماً ، فحيثما يتوجه الزائر يشاهد الزهور : في الشوارع ، في الحديقة ، في الساحات العامة ، على شرفات المنازل ، في غرف البيوت ، وفي رؤوس النساء . والنهر الوديع يمر في بساتينها مرتلاً الحاناً خالدة .

غير ان الاحياء الحديثة من هذه المدينة ، كجميع الاحياء الحديثة ، تفقد

هذه الروعة : شوارع فسيحة ، نظيفة ، بيوت بيضاء ، انه لفن جديد . نشاهد، جادة الغران كابيتان (Gran Capitan) وفيها برج القديس نيقولاوس (TorreSan Nicolns) ، منتزه النصر (Paseo de la Victoria) .

جادة مدينة الزهراء ، كل هذا يشكل المدينة الحديثة .

ينبض قلب المدينة في جادة الغران كابيتان ومنها تتفرع الشوارع .

كل حي من احياء هذه المدينة له صبغة خاصة ، ويميزه الاثر التاريخي الذي يوجد فيه ، مثل حي الجامع ، حي القديس بطرس ، حي القديسه مارينه الخ .

فحي الجامع يتمتع بهذا الصمت المخيم على ربوعه ، ويمتاز ايضاً بشوارعه الضيقة ومنازله وساحاته ، والسكون العميق ينتشر مع سدول الليل .

وحي القديس بطرس مفتوح ولا تكثر الأزقة فيه مثل حي الجامع .

وكما أشرنا سابقاً في الكلام عن هذه المدينة الاندلسية الجميلة، تقسم الى مدينة قديمة ومدينة حديثة ، فالقديم فيها يبتدىء من الناحية الشرقية بشارع سان فرنندو (San Fernando) وشارع المكاتب (Libreria) والفاروس (Alfaros) ، ويدخل فيه ساحةلوس دولوريس (Plaza de los Dolores) والقديس نيقولاوس والقديسة فيكتوريا وحي الجامع الذي أشرنا إليه واحياء اخرى حتى تنتهي في باب الثالوث (Puerta de la Trinidad) .

وفي حي ابن ميمون يقع الكنيس لليهود ، واليوم تحول الى صومعة القديس كرسبين (San Crispin) .

وترجع كنيسة القديس برتلماوس الى اوائل القرن الثامن عشر ١٧٠٨، وهي تشبه في فنها وهندستها الكنائس القرطبية المبنية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وشبكة الحمامات العربية زالت مع الزمن كالحمامات التي كانت في شارع كارلوس روبيو ولم يبق سوى حمامات شارع فلسكيس بوسكو وهي تتألف من

بغرفة مربعة فيها حوض وسقفها على شكل قبة .

ويعجبنا دير الكرمل وهو من القرن السادس عشر ويعرف بالبيت الكبير (Casa Grande) للرهبان الحفاة . وأهم ما في هذا الدير المذبح الاكبر بما فيه من اعمال فنية دقيقة ، نشاهد لوحات من كتب التوراة مثل خطف النبي اليشاع ، وعذراء جبل الكرمل ، وهرب النبي اليشاع ، وإبادة كهنة بعل ، ورسوم اخرى لقديسات وقديسين ، وللرسولين بطرس وبولس ولشفعاء قرطبة مثل القديسة فيكتوريا والقديس رافائيل والقديس ميخائيل رئيس الملائكة .

ومن الابنية الاثرية الموجودة في المدينة دار فرسان وسانت يقوب ، وهي من بناء العرب المسيحيين في القرن الخامس عشر .

اسوار قرطبة : وكما ذكرنا كان لقرطبة سبعة ابواب في الاسوار ، ولكنها ليست كلها باقية ، نشاهد باب اشبيلية ، وباب المدور ، وقد سمي كذلك لانه منه دخلت القوات التي ترافق الملك فرناندو ، وباب بطليوس ، يطلق عليه باب الجوز ، ومنه كانت تخرج النساء لاستقاء الماء .

أما بقية الابواب مثل باب اوساريه ، ورنكون وكولدره Colodro واكسكوسادا والشمس فلم يبق منها اثر .

وباب اكسكوسادا له قصة : لما حاصر الملك فرنندو الثالث المدينة حصاراً محكماً لدرجة انه لم يعد يقدر احد ان يدخل اليها او يخرج منها، وتضايق الشعب في الداخل ضيقاً شديداً ، ذهب الى ملكه العربي واقترح عليه ان يفتح باباً في تلك الناحية الوعرة لادخال الماشية منه . فحسن الاقتراح في عيني الملك وأمر بأن يفتح الباب في ذلك الموضع فدخل منه بعض المواشي والمؤن . ودرى الجنود الاسبان بما يجري في تلك الناحية من السور وشاهدوا الماشية تدخل فتسلل اثنا عشر رجلاً منهم بينها ولما أصبحوا داخل السور شهروا سلاحهم وأعملوه في رقاب الرجال الواقفين على الحراسة فقتلوهم واستولوا على الباب . ولما وصل الخبر الى سماع الملك العربي قال : « ما كان أغنانا عن هذا الباب » ودعي حتى

اليوم بالباب الذي لا فائدة منه وهذا هو معنى كلمة اكسكوسادا Excusada بالاسبانية .

وأما باب كولدره Colodro فقد سمي بهذا الاسم نسبة الى الرجل الذي دافع عنه وكان من الابطال الذين فتحوا قرطبة فسمي الباب باسمه .

وبرج الميتة العاطلة (Malmuerta) يرجع اصله الى ان رجلين تخاصما ، وتحدى الواحد الآخر . فتغلب واحدهما على منافسه وقتله لانه استعمل سلاحاً افضل من سلاح القتيل . ورفعت القضية الى المحكمة فحكمت على القاتل بالموت لما تبين انه استعمل سلاحاً أمضى من سلاح خصمه في المبارزة . وكان الملك آنذاك بحاجة الى الرجال والمال فأبدل حكم الموت هذا بأن فرض على المحكوم عليه بالاعدام ، ببناء برج سمي « برج الميتة العاطلة » .

الجامع – الكاتدرائية : أطلق عليه هذا الاسم بعد تحويله الى كاتدرائية أي كنيسة كبيرة للعبادة عند الكاثوليك . سنتكلم عن الجامع في احد فصول الكتاب ، أما الآن فنتكلم عنه ككنيسة يدخلها المسيحيون الاسبان للصلاة وإقامة الحفلات الدينية .

لما سقطت قرطبة في يد الاسبان في القرن الثالث عشر تحول الجامع الى كنيسة على اسم العذراء في يوم انتقالها المصادف ١٥ آب اغسطس . ثم أخذت الكابلات أي المذابح الصغيرة تبنى ضمن هذا الجامع ، والملك فرتندو نفسه الذي يعرف عند الاسبان بالقديس أسس احد هذه المذابح على اسم القديس اكليمندوس . وفي سنة ١٢٧٨ وضعت على المينار صورة القديس رفائيل ، واقترح الاسقف الونسه مانريكي Alonso Manrique إنشاء خورس ومذبح كبير في وسط الجامع .

في السابع من ايلول من سنة ١٥٢٣ ابتدأ العمل بتوجيه من أشهر المهندسين في ذلك العصر وهو هرنان رويث (Hernan Ruiz) ثم واصل الاساقفة على التوالي الاعمال . اقتضى اربع وثمانون سنة لإنشاء الكاتدرائية الجديدة . ثم ضمت

المذابح الصغيرة الى المجموع في مزيج غريب لا أثر للتناسب فيه ، لدرجة ان الامبراطور كارلوس الخامس لما زار الكاتدرائية وشاهد ذلك الصنع قال : « لو علمت بهذا لما كنت سمحت قط بأن يبدل شيء من البناء القديم ، لقد وضعتم كما يرى في جميع الامكنة ولم تضعوا الذي لا يرى في أي مكان . »

انه اكبر جامع عرفه العالم فهو عبارة عن غابة من الاعمدة تحمل تسعة عشر بهواً .

والاعمدة والسقوف مصنوعة من المرمر وخشب الصندل المنقوش بالزخارف الملونة والمذهبة . واثناء ساعات العبادة كانت تضاء في المسجد اربعة آلاف مصباح في وقت واحد وكلها مصنوعة من الفضة والنحاس البراق . أما المحراب فكان فيه مصحف الخليفة عثمان بن عفان ، علاة أجزاؤه الخارجية بالاحجار الكريمة والعقيق واللؤلؤ .

وكانت قرطبة مكان الاجتماع بين العلماء والشعراء ومغني العالم كله . وكان بالمدينة اكثر من ثلاثمائة مسجد وما زالت المدينة تشتهر بصناعة الجلود والتطعيم.

لقب الشاعر الاسباني الكبير انطونيو متشادو **Antonio Machado** مدينة قرطبة « مدينة الخلفاء » وهي في الوقت نفسه تتمتع بطابعين متباينين هما الرومي والعربي .

والمدينة ذات سحر ظاهر وخفي ، شوارعها ضيقة ومتعرجة تذكرنا بمجد العرب في هذه المدينة الفتانة الساحرة .

وقرطبة لا تعيش على ماضيها المجيد فحسب ،بل انه قد أقيم بالقرب من المدينة الفندق السياحي الوطني الذي يحمل اسم الرصافة ، وهو من الفنادق الجميلة للغاية والمريحة تماماً . هذا ولا بد لزائر المدينة من زيارة القلعة الحرة ومنزل خوليو روميرو دي طوريس الذي تحول الى متحف وطني .

مدينة الزهراء : بناها عبد الرحمن الناصر لدين الله كما سنرى ، على اقدام

جبل العروس المعروف اليوم بقرطبة القديمة ، على بعد ثلاثة اميال من الشمال الغربي منها . وكانت آية في الفن ولم يترك فيها البربر حجراً على حجر ، ولقد بقيت حية في قصائد الشعراء :

وقفت بالزهراء مستعبرا معتبرا أندب اشتاتا
فقلت يا زهرا ألا فارجعي قالت وهل يرجع من مات
فلم أزل ابكي وابكي بها هيهات يغني الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى نوادب يندبن أمواتا

واليوم ماذا نرى في الزهراء ؟ لا شيء تقريباً أكواماً من الانقاض وعملاً متواصلاً يقوم به بعض الخبراء في التنقيب عن تلك المدينة الزائلة . ماذا يشاهد الزائر هناك ؟ أرضاً قاحلة ، ولا ظل شجرة يتقي بها وهج الشمس ، ونشاهد بناية شيدت لتكون متحفاً للأواني التي يعثر عليها في تلك التنقيبات الدائبة . انها آثار أثارت اهتمام المولعين بالاواني القديمة التي كان يستعملها العرب في اسبانيا والمساعي تبذل اليوم في إعادة بناء تلك المدينة كما كانت في سابق عهدها . ولكن هذا العمل يقتضي له جهود خارقة العادة واموال طائلة .

قصر قرطبة : كان بناء عظيماً أو بالاحرى مجموعة من الابنية الفخمة ، فانه في حرم هذا القصر نشاهد اليوم القصر الاسقفي ، والقصر القديم والجديد والحدائق هناك كان القوط وهناك كان القصر المرواني العربي .

أما القصر المسيحي فقد أسسه الفونسو الحادي عشر سنة ١٣٢٨ كخط دفاعي للمدينة ضد العرب المقيمين في المنطقة المجاورة ، غرناطة ، ثم أدخل عليه الملكان الكاثوليكيان فرنندو وايزابيل ، تعديلات دفاعية في حروبها الاخيرة ضد مملكة غرناطة .

أما اليوم فلم يبق من هذا القصر سوى بعض الابراج وشبه قلعة ، بعد ان كان عدد دوره اربعمائة داراً ونيفاً وثلاثين .

والاساطير العربية تتحدث عن هذا القصر الكبير بما يأتي :

وكان يسكن في قلعة المدور ملك ذهب يوماً الى الصيد وأطلق بازه وراء حجل ، وكان يحب هذا الباز محبة كبيرة . ولما رأى الحجل ان الباز يطارده وقد أوشك على التقاطه تغلغل في عليقة كثيفة ، والباز من جهته لم يتردد في التغلغل وراءه . ولما رأى الملك ان بازه الحبيب لم يرجع اليه بعد مضي وقت طويل أمر بأن تقطع تلك العليقة ويستخرج منها ، وعندما قطعت ظهرت عواميد تحت الارض ، فدهش الملك وأمر بأن ترفع الاتربة التي تغطيها. وقامت الحفريات فظهر للعيان قصر شاهق عمل الملك على ترميمه وجعله مسكنه .

وأخذت البنايات تنتصب حوله شيئاً فشيئاً فأصبح نواة مدينة قرطبة وظل هذا القصر المكتشف مركز الملوك .

قرطبة ومصارعة الثيران : لقد تميزت قرطبة واشتهر اسمها في جميع انحاء العالم بثلاثة امور : ١) مصارعة الثيران ٢) الفنان خوليو روميرو دي طوريس Julio Romero de Tores ٣) الجامع الكاتدرائية .

دخلت مصارعة الثيران الى قرطبة منذ عهد بعيد وكانت تقام هذه الحفلات في ساحة الكوريديرا Plaza de la Corredera .

بني هذا الملعب الخاص بمصارعة الثيران في سنة ١٦٨٣ وقبل سنة ١٨٢١ بكثير كانت تقام حفلات من هذا النوع وظهرت في ذلك الحين اسماء لامعة في عالم هذا الفن منها اسم منتيس Montes هيللو ، روميره ، بانتشون وغيرهم . ثم أخذت هذه الساحة تفقد اهميتها لانها لم تعد كافية لاستيعاب الحضور المتزايد العدد . وفي سنة ١٧٥٩ بنيت الساحة الاولى من الخشب في حي المسلخ . أما الساحة الحالية الواقعة في قلب المدينة عند ملتقى جادتين كبيرتين ، جادة الغران كبيتان وجادة الخنراليسمو ، فقد بنيت سنة ١٨٤٦ – ثمانية مصارعي ثيران خرجوا من قرطبة ونالوا شهرة عالمية عن استحقاق: بانتشون من القرن

الثـــامن عشر . كمرا ، بيبيق الاول ، غـــيرريته وأطلق عليه لقب « خليفـة المصارعين » .

وفي أواخر القرن التـــاسع عشر ظهـــر اسم « لاغرتيخو تشيكو » Lacartijo chiko وأخيراً مانوليتي Manolete الذي هو أشهر من نار على علم في هذا الفن . نال شهادة مصارعة الثيران من جـــامعة اشبيلية ، التي تعطي شهادات من هذا النوع ، في ٢ تموز ١٩٣٩ ومـــات في حلبة الصراع ، وبـــكاه الاسبان كبيرهم وصغيرهم ، ويعتبرونه حتى اليوم أحسن مصارع ثيران عرفته شبه الجزيرة الايبرية او بالاحرى العالم كله ، واسمه في جميع الافواه عندما يؤتى على ذكر مصارعة الثيران والمصارعين .

انه قليل من كثير نورده عن مدينة قرطبة التي ظلت قبلة الانظار عدة اجيال ، وربما فاقت شهرتها روما في اوج عزها او اثينة او بغداد .

المؤلف

مقدمة

قال لسان الدين بن الخطيب : « ان وطن الاندلس حظ من المعمور كبير ، وانما سمي جزيرة بحكم المجاز ، لاعتراض البحر الشامي الخارج من دائرة البحر المحيط من قبل الزقاق بطنجة ، قاطعاً بين هذه الارض الاندلسية وبين ما يجاورها من البر المتصل قبلة الى ان يتصل الى الخليج بأحواز القسطنطينية . وقد اختلفت طباع هذه الارض لسعة خطتها وأخذها من الاقاليم بحظوظ ، فمن اماكنها المعتدل وغير المعتدل مائلاً الى البرد . وقد خصها الله من الري وغدق السقيا ولذاذة الاقوات وفراهة الحيوان ودرور المياه وكثرة الفواكه وتبحر العمران وجودة اللباس وصحة الهواء وابيضاض الوان الانسان ونبل الاذهان وقبول الصنائع وشهامة الطباع ونفاذ الادراك واحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الاقطار مما سواها » .

عبد الرحمن الناصر او عبد الرحمن الثالث هو اول خليفة في الاندلس أطلق عليه اسم امير المؤمنين ، ولقبه الناصر لدين الله وهو موضوع كتابنا . وقبل الشروع في الكلام عنه لا بد من سوق كلمة في الولاة والامراء الذين سبقوه في استلام زمام الامور في اسبانيا .

الولاة على الاندلس قبل وصول عبد الرحمن الداخل او عبد الرحمن الاول

طارق بن زياد : فاتح الاندلس وكانت إمارته فيها سنة واحدة .

موسى بن نصير وابنه عبد العزيز : كانت إمارتهما ثلاث سنين .

ايوب بن حبيب اللخمي : ابن اخت موسى بن نصير ملك ستة اشهر جعل سريره في قرطبة وبنى قلعة ايوب (CALATAYUB) ثم عزله والي افريقيا محمد بن يزيد ونصب مكانه الحر عبد الرحمن الثقفي .

الحر عبد الرحمن الثقفي : كان فظاً غليظاً ، أساء معاملة المسلمين والمسيحيين على السواء ، فعزله الخليفة بعد ان مضى على ولايته سنة وسبعة اشهر .

السمح بن مالك الخولاني : مدة ولايته سنتين وسبعة اشهر ، قتل في معركة نشبت بينه وبين الدوق دي غسكونيا قرب تولوز .

عنبسة بن سحيم الكلبي : ولي اربع سنين وخمسة اشهر ، غزا بنفسه ارض الفرنجة واجتاز الرون حتى بلغ الى مدينة ليون ، أصيب بسهم فقتل .

يحيى بن سلامة الكلبي : تولى سنة وستة اشهر .

حذيفة بن الاحوص القيسي : تولى ستة اشهر فقط .

عثمان بن ابي نسعة الخثعمي : ستة اشهر ، تزوج ابنة الدوق اودو وحالفه .

الهيثم بن عبيد الكلابي : اربعة اشهر .

عبد الرحمن بن عبيد الغافقي : ملك سنتين وسبعة اشهر ، وصل بجيشه الى بواتيه ففتحها ثم حاصر مدينة تور وسقطت في يده ، نشبت بينه وبين شارل مارتيل معركة في سهل يقع بين تور وبواتيه ، خر فيها صريعاً تتناهشه الحراب .

ملك ثلاث سنين وشهرين .

عبد الملك بن قطن الفهري : ملك خمس سنين وشهرين .

عقبة بن الحجاج السلولي : مرة ثانية فملك سنة وشهراً .

عبد الملك بن قطن الفهري : صاحب الطلعة البلجية من اهل الشام ملك ستة اشهر .

بلج بن بشر القشيري : تولى خمسة اشهر فقط .

ثعلبة بن سلامة العاملي : ملك سنتين وثمانية اشهر وكانت في ايامه حروب شهيرة .

ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي : ملك سنتين وشهرين .

ثوابة بن سلامة الجذامي : ملك تسع سنين واحد عشر شهراً واستقر

يوسف بن عبد الرحمن الفهري : له الملك في الاندلس طيلة هذه المدة لمصاهرة الصميل بن حاتم، وبيوسف الفهري تنتهي هذه السلسلة من الولاة على الاندلس . وفي ايامه وصل عبد الرحمن الداخل الهارب من العباسيين واستتب له الامر في الاندلس .

سلسلة الامراء الذين تولوا الاندلس قبل عبد الرحمن الثالث او « الناصر لدين الله »

عبد الرحمن الداخل او عبد الرحمن الاول .

هشام بن عبد الرحمن الداخل .

الحكم الاول بن هشام .

عبد الرحمن الثاني بن الحكم بن هشام .

محمد بن عبد الرحمن الثاني .

٧ – المنذر بن محمد بن عبد الرحمن الثاني .

٢ – عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني : وكان له ولدان المطرف ومحمد ، وهذا الاخير انجب عبد الرحمن الناصر او عبد الرحمن الثالث كما يسمونه في الغرب ، كما سيأتي الكلام عنه .

المؤلف

مدريد في ١/٨/١٩٦٣

القِسمُ الأول

عبد الرحمن الناصر

١

نشأته :

– لا بد من قتله انه يمالىء الاعداء ؟

– ولكنه ولدي ولكنه اخوك .

– انه عاق ، انه يتربص بك .

– دع عنك ذلك فالحسد يجهر بكلامك ، حاشا لمحمد ان يكون كما تزعم !!! هو ساعدي الايمن اعتمد عليه في جلائل الخطوب ، وهو ولي العهد .

– وصل الى سمعي انه على اتصال بالثائر الاكبر البغيض عمر بن حفصون .

فانتفض الامير عبدالله عند سماعه اسم عمر بن حفصون كمن لدغته افعى وصرخ في وجه ابنه مطرّف : « مـاذا تقول ؟ محمد ابني ولي العهد على اتصال بألد اعدائي المتحصن في قلعة ببشتر والذي شق عصا الطاعـة على ابي ، محمد ، ابن عبدالرحمن وعلى اخي المنذر ، رحمات الله عليهما . وما زال يثور علي ويقتل ولاتنا وينهب ويغزو كلما وجد الى ذلك سبيلا . والله لا اصبر على هذا فـأحبس على اخيك الاكبر محمد ؛ واذا تبين لي بعد البحث والتنقيب صدق مـا تقول فلاوردنه حتفه » .

وامر بان يحجر على محمد البكر في احد غرف القصر .

ومرت بعض الايام وسكنت حدة الامير عبدالله قليلا فهو بين مصدق ومكذب ما ينسب الى ابنه الاكبر من الخيانة العظمى ، تهمة عظيمة تلصق بمحمد ، فراح يتحرى عن صحتها ولم يجد ما يدعو الى تصديق هذه الوشاية به والادلة لم تتوفر على ادانته وانزال اقصى العقوبات بفلذة كبده ، وبالتالي لم يبق من مبرر لابقائه في السجن فعزم على اطلاق سراحه وبات من الراسخ في ذهنه ان ولي العهد لا تخوله نفسه الخيانة ، ولماذا الخيانة وممالأة الاعداء وهو ولي العهد ووالده ينتدبه في حل المشاكل الكبرى وسيؤول اليه الحكم فيما بعد ؟ لا لا ! ان محمد بريء مما نسب اليه فلا بد من الاعتذار اليه، عن الاساءة التي بدرت منا نحوه !

ودرى مطرف بقصد ابيه وراعه ان تذهب وشايته كالهباء المنثور وراعه ان يستأثر اخوه بالملك بعد موت والدهما الامير عبدالله .

واستشاط غضباً وغلت مراجل النقمة في صدره على اخيه الذي سينعم بالحرية من جديد وبعطف والده الامير وبرضى الشعب ، فاسرع الى المكان المحجور فيه على محمد واثخنه طعناً حتى فارق الحياة فاشفى بالدماء غلة صدره .

ولما علم الامير عبدالله بالحادث المفجع عز عليه جدا فقدان ولده الاكبر وعزم على الانتقام له بقتل مطرف، فتدخل الاقربون ونصحوه بالعفو لا سيما وان القاتل هو ايضاً من صلبه، ألم يكف موت الولد الاكبر حتى يتبعه بالاصغر ؟

ورضي على مضض ان يحقن دم مطرف ، لكي لا يزيد في التعريض بسمعته فالألسن لم تكف بعد عن التخرص بانه عجل في موت اخيه المنذر وها هو الان يقتل ولده مع انه يدعي الزهد والورع .

السنة ٨٩١ في مستهلها ، ترامى الى الامير ان ابنه القتيل خلف ولداً لا يتجاوز الثلاثة اسابيع من عمره ابصر النور ولم يبصر وجه ابيه ، امه جارية

مسيحية اطلق عليها اسم مزنة او مريم ، جميلة الصورة وديعة عذبة الصوت .

فاستدعاها عبدالله فمثلت بين يديه مع طفلها باكية العين حزينة الفؤاد ، انها تحب محمداً عاشت قربه ساعات لذيذة ، ليتها دامت طول العمر والآن فقد سلبوه منها على غير رجعة .

ورثى الامير لحالها وداخله شيء من العطف عليها وعلى ولدها الرضيع عبد الرحمن فابتدرها قائلاً : « لا تخشي شراً يا مزنة ! كلانا مفجوع ، فحزني على محمد ولدي لا يقل عن حزنك عليه ، لا وفق الله من عمل على حرماننا منه !!! فانت وابنك تنزلان في اعز مكان عندي واتعهد برعايته ورعايتك ! »

وراح يكفكف دمعها ويخفف من احزانها ، ولكن انى لجرحها ان يندمل وقد نفذ الى اعمق اعماق نفسها غير انها تعزت قليلاً ، فقد اثمر حب محمد لها فترك ولداً سوف تسدل عليه جميع حنانها وامومتها وترى فيه صورة ابيه الحية المطبوعة في خيالها .

٢

رجل كهل وامرأة مفجوعة برجلها وطفل رضيع ، الكهل يناغى الطفل والمرأة تحنو عليه ، انه ابنها ، وهي صامتة تتهيب الكلام في حضرة الامير والالم ما يزال يحز في فؤادها . فالجرح لم يندمل بعد ، لقد ادمى منها الصميم . موت محمد هدّ حيلها رغم ان الامير عبدالله حاول ان يخفف ما بها :

– ما بك واجمة يا مزنة ؟ الا تعجبك الاقامة في ربوعنا ؟ هل تفضلين اشبيلية على قرطبة ؟

– انا بخير ايها الامير وسواء كنت في اشبيلية او في قرطبة فانا تحت رعايتك .

– الا يرضيك انني احللتك في منزلة سامقة في قصري وفي قلبي وان ولدك وحفيدي قد تعهدته بحمايتي وعطفي ؟ ما لك تبكي يا قرة عين جدك ؟ مزنة ألقميه الثدي لعله يكف عن البكاء .

وترفع عبد الرحمن على ذراعها وترميه على صدرها ويقترب عبدالله منها، انه يشعر بميل الى هذه المرأة المسيحية الكئيبة النظرات السادرة في وجومها وحزنها . انه يريد ان يضمها الى صدره ، ان يجعلها له ، ان يحميها من الجميع ،ان يكاشفها بحبه الدفين ، الا انه يجد بينه وبينها هوة عميقة ليس له او لسواه ان يتخطاها للبلوغ اليها . عاهدت نفسها الا يضمها رجل بعد محمد وهي امينة على الذكرى .

وقابل بينه وبين ابنه المقتول ولم يجد بداً من ان يحسده في ضريحه لكونه وجد هذه المرأة التي اخلصت له بعد الموت ولا تريد ان تتعرف على رجل آخر مهما كان هذا الرجل ، مع ان الامير عبدالله يقوى على نيل ما يريد منها ولكن تهيب ابنه في رمسه انه اشد قوة مما لو كان على قيد الحياة .

وأكبر فيها الحبة والوفاء والتضحية ولم يزده هذا إلا تعلقاً بها وميلاً إليها، انه يستطيب عشرتها ويرضى بقربها وان كان لا يحصل منها سوى على نظرات وادعة لا تروي ظمأ قلبه .

ومرت السنوات والطفل ينمو ويكبر ، وكأن الاقدار شاءت ان تنتقم له من عمه قاتل أبيه ، لان العلاقات بين الوالد والولد القاتل أخذت تفتر شيئاً فشيئاً ، لا سيما وان عبد الرحمن كان للامير عبدالله بمثابة صوت ضميره يدعوه للانتقام من قاتل ابيه الى ان تكافأت الفرص سنة ٢٨٢ هجرية لما غزا الولد مطرف الى اشبيلية و « شذونة » برفقة القائد عبد الملك بن عبدالله بن اميه . وكان بين المطرف والقائد هذا عداوة قديمة وحقد كامن في الضلوع ، فلما نازل العسكر بطربيل على ميلين من اشبيلية عدا المطرف على القائد عبد الملك ابن اميه فقتله بحجة انه يتهاون بالرجال ويستخف بحقوقهم وقلة إنصافه إياهم في معاملته لهم وغير ذلك من التهم الملفقة .

ولما علم الامير عبدالله بالامر كتب الى جماعة قريش والموالي فيها ، ووجه كتاباً خاصاً الى العرفاء والحشم بالكشف عن خبر عبد الملك بن عبدالله بن امية والسبب في قتله ، فتكلمت كل طائفة منهم بما عندها في ذلك وكُتِبت اقوالهم بحضر شاهده وجوه اهل العسكر وأنفِذ الى الامير عبدالله . فبعد ان درس المسألة من جميع وجوهها تبين له سرعة ولده الى سفك الدماء البريئة ، وأغرمه المرة سعي الخصوم وبينهم اصدقاء القائد ابن امية ، فلم يرَ الامير عبدالله بداً من التخلص من ولد،لم يشاهد منه سوى البلاء، الا بمحوه،فأمر بقطع رأسه غير آسف عليه وغير ذارف دمعة لوعة ، وكأنه بهذا أرضى تلك الناحية من ضميره التي

كانت تدفعه للانتقام لولده الاكبر ، محمد الذي قتله اخوه ظلماً وعدواناً كما قتل القائد ابن أمية .

وطابت نفس مزنة قليلاً لان الانسان مهما سما في الفضائل يصعب عليه ان يتخلص من حب الانتقام ومبادلة الاساءة باساءة مثلها ورددت في نفسها مناجية محمد حبيبها قائلة : « نم الآن قرير النفس في مثواك الابدي فان الله انتقم من قاتلك ! »

٣

وبانت على الولد عبد الرحمن علائم الذكاء وظهرت نجابته وبات الى جانب جده يستعد ليصبح أعظم خليفة عرفه العرب، فتعلم فنون السلاح على يد احسن القواد الذين ساروا بالجيوش العربية من نصر الى نصر مثل ابو العباس بن أبي عبده وأبدى بالرغم من حداثة سنه تفوقاً في العلوم إذ أذهل فيها معلميه الذين هم من أفضل الفقهاء امثال احمد بن بيطر ومحمد بن الزرّاد وغيرهما. حفظ القرآن والسنة ولم يبلغ العاشرة من عمره. وبرع في علوم النحو والشعر والتاريخ، فقرت عيون جده الامير عبدالله الذي كان ينظر الى عبد الرحمن ينمو في العلم والمعرفة والفروسية والدموع تترقرق من عينيه، انه من لحمه ودمه.

وأمره يوماً باكتتاب خطاب لبعض عماله بأمر يسأله فيه عويصاً والغاية منه اختبار عبد الرحمن، فما كان من هذا الا ان استخف بالمطلب وأصاب النص وأجاد. فلما قرأ الامير عبدالله الكتاب بدا السرور في وجهه وأثنى على عبدالرحمن كل الثناء وقال له: «قم الى تلك الكوة فخذ تلك الدجاجة بما معها من الرقاق فانها هيئت لفطري وقد آثرتك بها مباركاً لك فيها». فقام عبدالرحمن مهرولاً مظهراً ابتهاجه، وكانت دجاجة فائقة خلافية الصنعة عطرية النشرة، فقبض عليها بيمينه وأخذ في التهامها فتخيل، السرور في اسارير جده.

وركب معه يوماً للنزهة في ناحية الرصافة، فأدركهما وقت صلاة الفريضة

فنزل اقضائها في الصحراء ، فبادر عبد الرحمن للترجل عن بغلته الاخذ بركاب جده قضاء لحقه ووفاء ببره فترك بغلته وكان السائس بعيداً فذهبت البغلة على وجهها هاربة وتبعها فرسان الموكب راكضين وطال مقام عبد الرحمن على قدمه حتى اخذوها وردوها اليه ، وشق ذلك على الامير عبدالله فلما ركب قال له : « يا عبد الرحمن مــا لي أراك بغير خصي وصيف يحفظ عليك هذه العورة من زوال دابتك .

– لم يأن لي يا سيدي بعد ان اتخذه ولا فضل من راتبي ما به اناله .

– لا عليك اذا انصرفنا الى القصر ان شاء الله فذكرنا تنظر لك .

فلما انصرفوا عجّل بتذكيره حرصاً على انجاز وعده :

– وعدك الكريم يا سيدي سرني بانجازه .

– نعم .

واومأ الى وصيف بين يديــه فدخل وجاءه بشكيمة حرير ابريسم مليحة الصنعة وقال لحفيده : « دونكها يا عبدالرحمن فانها من أعد العدد لك ، فطوقها دابتك تحت اللجام متى ركبت وخذ بطرفها متى نزلت ، فان البغلة لا يمكنها الانفلات متى كانت في يدك » .

اجل لقد كان عبدالله مقتصداً في أموره مقتراً على نفسه وعلى ولده، ولكنه كان يحب عبد الرحمن ويستطيب الاستماع إليه ويشيد بذكائه ونجابته في المجالس التي تضم فقهاء مملكته ، مثل احمد بن بيطر ومحمد بن الزراد والكتاب مثل عبدالله بن محمد الزجالي والقواد مثل أبي العباس بن أبي عبدة ، وغيرهم ، فكانوا بين مصدقين ومرتابين وكان الامير عبدالله شعر بما يجول في أعماقهم من الريب فدعا عبد الرحمن الى مجلسهم وطلب إليهم ان يسألوه فيما شاءوا من امور الدين ، ويتلكأون عن السؤال ، ونزولاً عند رغبة الامير ، انبرى احمد بن بيطار يسأل الفتى عبد الرحمن قائلا :

– هل يمكن ان تخبرنا عن الفرائض الواجبة والسنن القائمة ؟

فأجاب عبد الرحمن : اما الفرائض الواجبة فخمس: شهادة ان لا إله إلا الله وحده وان محمداً عبده ورسوله واقامة الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام . وأما السنن القائمة فهي اربع: الليل والنهار والشمس والقمر .

– أحسنت ، فاخبرني ما شعائر الايمان ؟

– شعائر الايمان : الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد واجتناب الحرام .

– ما هي فروض الصلاة ؟

– الطهارة وستر العورة واجتناب الثياب المتنجسة والوقوف في مكان طاهر والتوجه للقبلة والقيام والنية وتكبيرة الاحرام .

– أخبرني عن فروض الوضوء .

– ستة اشياء على مذهب الامام الشافعي : النيـة عند غسل الوجه وغسل اليدين مع المرفقين ومسح بعض الرأس وغسل الرجلين مع الكعبين ؛ والترتيب وسننه عشرة اشياء : التسمية وغسل الكفـين قبل ادخالهما الاناء والمضمضة والاستنشاق ومسح بعض الرأس ومسح الاذنين ظاهرهما وباطنهما بمـاء جديد وتخليل اللحية الكثة وتخليل اصابع اليدين وتقديم اليمنى على اليسرى والطهارة ثلاثاً والموالاة . فاذا فرغ من الوضوء قال اشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد ان محمـداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابـين واجعلني من المتطهرين ، سبحـانك اللهم وبحمدك ، اشهد ان لا إله إلا انت استغفرك وأتوب اليك .

– أخبرني فيما تجب الزكاة .

– تجب في الذهب والفضة والابل والبقر والغنم والحنطة والشعير والذرة والفول والحمص والارز والزبيب والتمر .

– أخبرني عن الصوم وفروضه .

– فروض الصوم : النية والامساك عن الاكل والشرب والجماع وتعمد القيء

وهو واجب على كل مكلف خال من الحيض والنفس .

– ما الجهاد وما أركانه ؟

– خروج الكفار علينا ووجود الامام والعدة والثبات عند لقاء العدو . أما سنته فهو التحريض على القتال .

– ما سهام الدين ؟

– عشرة : الاولى الشهادة وهي الملة ، الثاني الصلاة وهي الفطرة ، الثالث الزكاة وهي الطهارة ، الرابع الصوم وهي الجنة ، الخامس الحج وهي الشريعة السادس الجهاد وهي الكفاية ، السابع والثامن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما الغيرة ، التاسع الجماعة وهي الالفة ، العاشر طلب العلم وهي الطريق الجيدة .

– أحسنت ، والآن أخبرني عن ثلاث تمنع ثلاثاً .

– الاستخفاف بالصالحين يذهب الآخرة والاستخفاف بالملوك يذهب الروح ، والاستخفاف بالنفقة يذهب المال .

– أخبرني عن شيء وعن نصف شيء وعن لا شيء .

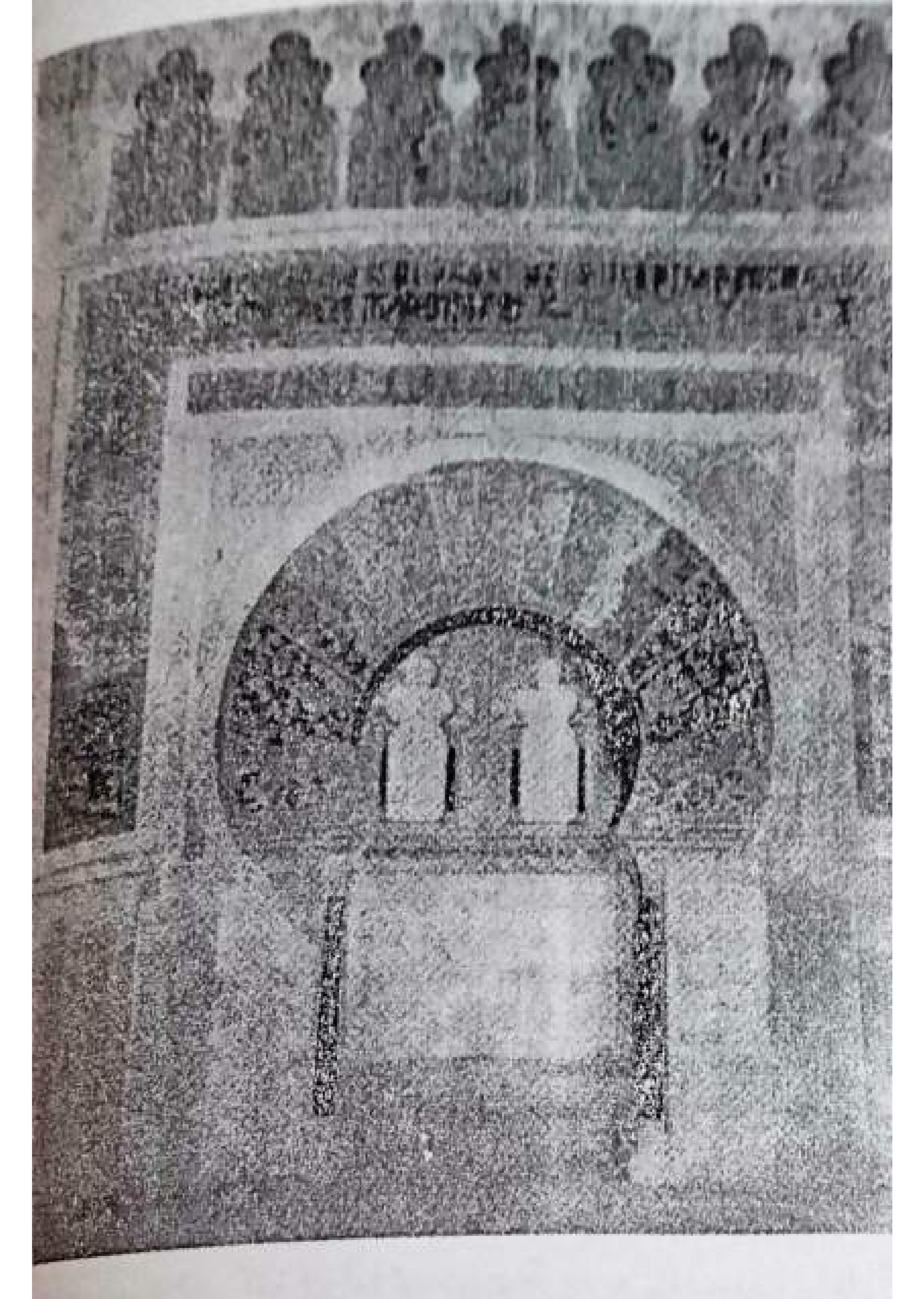
– الشيء هو المؤمن ونصف الشيء هو المنافق وان لا شيء هو الكافر .

– ما تقول في الايمان ؟

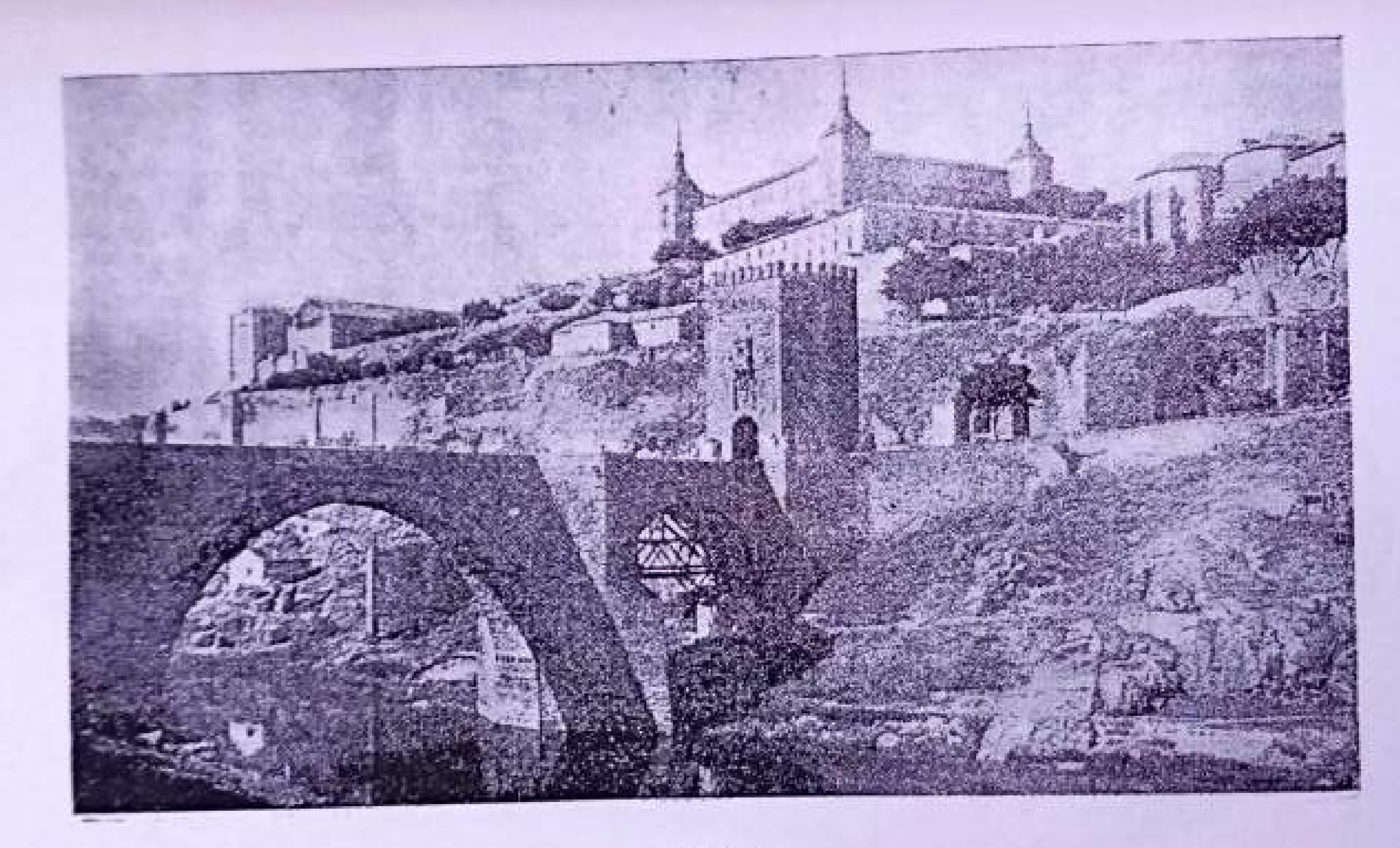
– الايمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح .

– أخبرني عن عدد سور القرآن وكم فيه من آية وكم فيه من كلمة وكم فيه من سجدة وكم فيه من نبي مذكور وكم فيه من سورة مدنية وكم فيه من سورة مكية وكم فيه من طير ؟

– سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة ، المكي منها سبعون والمدني أربع وأربعون سورة ، وأما الآيات فستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية ، وأما كلماته فتسعة وسبعون الف كلمة ، وأما السجدات فأربع عشرة سجدة ، وأما



جامع قرطبة



قصر طليطلة



أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني

الانبياء الذين ذكرت اسماؤهم في القرآن فخمسة وعشرون وهم آدم ونوح وابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف واليشع ويونس ولوط وصالح وهود وشعيب وداود وسليمان وذو الكفل وادريس والياس ويحيى وزكريا وايوب وموسى وهارون وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين .

وأما الطير فهي تسع : البعوض والنحل والذباب والنمل والهدهد والغراب والجراد والابابيل وطير عيسى وهو الخفاش .

ـ أخبرني عن عدد الصحابة الذين جمعوا القرآن في عهد رسول لله صلى الله عليه وسلم .

ـ أربعة : أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعثمان بن عفان .

ـ أخبرني عن القراء الذين تؤخذ عنهم القراءات .

ـ هم أربعة : عبدالله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم ابن عبدالله .

فأعجب الجميع بذكاء عبد الرحمن وتنبأوا له بغد واعد . اما الامير عبدالله فكان أكثرهم فرحاً بحفيده لانه وجده كما عهده .

٤

– من هي هذه الصبية التي تاتي لزيارتك يا اماه ؟

– انها احدى نسيباتي الروميات يا ولدي ، وتعيش مع والدتها على الضفة الاخرى من النهر وهما تشتغلان في صناعة الجلود ، هل اعجبتك ؟

فتبسم عبدالرحمن عن حيـاء وخفض ناظريه ، فقد بلغ سن الرجال وطر شارباه وجال دم الشباب حاراً في عروقه ، وكان غالباً مـا يرنو عليه الوجوم وتعتريه الكآبة ، ان في صدره لسراً غامضاً لا يدري كنهه او بالاحرى يدري كنهه ويود اسكات هـذا الصوت الداوي في اعماقه ، انه يغـالب هذه الطفرة الواثبة التي لا تجد لها مكاناً للاستقرار .

لقد ابصر صبية تتردد على والدته مزنة ، وتسـاءل في نفسـه عن هذه الجارية الناهدة الثديين الزرقـاء العينين ، الكئيبة النظرات ، الخفيفة الخطو ، المسدلة شعرها على كتفيها ، فتأملها ملياً واضطربت نفسـه فكأنه شعر بقوة خفية تخرج منه وبقوة اخرى تدفعه نحو هذه الصبية المشرقة كالزهرة ، كنور الصباح ، فهي طرية العود فواحة العبير .

ويسترق منهـا النظرات من نافذة تطل على مجلس امـه ، فيشاهد المرأتين غارقتين في الحديث او في الصلاة الى الله على طريقة تختلف عن طريقته ، فهما مسيحيتان وتقومان بواجباتهما الدينية ، بينما كان المؤذن يدعو المؤمنين الى الصلاة

والفلاح .

وذات يوم سمع عبدالرحمن دعاء المرأتين من وراء النافذة الحديدية المشبكة ، ولم يشأ ان يزعجها في صلاتها ليسوع المصلوب ، فعندما تنتهيان من الصلاة يزيل الستار عن النافذة ويدنو فيطبع قبلة على خد امه فيتورد وجه صبح خجلا وتضع يدها على صدرها كانها تخشى ان ينطلق قلبها من بين ضلوعها ، وتخفض رأسها اجلالاً للامير فيعلق انظاره فيها دون ان يحولها عنها .

وتستأذن من مزنة بالخروج بعد ان اطلعتها على احوال اهلها ، انها لا تقوى على المكوث في حضرة الامير ، تخجل من نظراته وتشعر ان الضياء اخذ يفارق عينيها قبل ان تحل العتمة وان التنفس يخونها ، فهي في نزاع لذيذ مع شعور غريب لم تدرك بعد اثره العميق في نفسها .

وتفتش في دماغها عن كلمة تخاطب بها الامير ولكن تموت الكلمات على شفتيها ولا تقوى على ترديد سوى كلمة سيدي سيدي الامير !!!

وتغادر المكان وقد اكتحل ناظراهـــا بصورة عبدالرحمن ، وتستسلم الى تفكير لذيذ يخدر اعصابها وهي في طريقها الى بيتها .

— اماه كيف السبيل اليها؟ فقد تعشقها قلبي ، ساعديني على نيل مبتغاي انها نسيبتك .

وارتمى على صدر امه متوسلا .

— لا تخشَ يا ولداه ، انها تحبك كما تحبها ، فقر عيناً وابشر بنيل المرام .

وعند هبوط الليل ينحدر عبد الرحمن الى ضفـــاف النهر ملتفـــا بعباءته السوداء ، فالليل وديع والايام ايام ربيع والسماء صافية الأديم والصمت يهيمن ، ومن حين الى حـين تنطلق بعض الاصوات من النوافذ ويفوح عبـــير الازهار فيطيّب الاجواء .

كل شيء جميل في الاندلس وأجمل منه المرأة الاندلسية .

ويختار تلك الشوارع وتمر في خاطره تلك المشاعر الجديدة كما لو كان هذا الربيع الاول في حيـــاته ، وهذا الربيع بدء الوجود ولكن حتى الآن لم تنتشر الورود عبيرها مثل هذه المرة ولم تبعث النجوم انوارهـــا مثل هذا الليل تحت تأثير الحب .

وتوقف في مكان لا يدري أين هو وكيف وصل إليـــه ، لقد ضلّ الطريق لان صورة « صبح » نصب عينيه . لا يريد ان يراهـــا من جديد ولكن رغبة غريبة تدفعه الى رؤيتها من جديد ، ضعفت إرادته تحت تأثير الحب النامي في صدره فهو يقوده دون هدف معين كسفينة تتلاعب بها الامواج الصاخبة .

أي البيوت الحالمة الوادعة في سكون ذلك الليل البهيم بيت صبح ؟ كيف يمكن تمييزه عن البيوت الاخرى ؟ انه في حي المسيحيين وجميع تلك المنـــازل متشابهة بنوافذها العالية وبالأزهار التي تزين تلك النوافذ .

ما أجملها من ليلة مقمرة في خمائل قرطبة ! لا شك انهـا صورة مصغرة عن جنان النعيم !

ويتنهد عبد الرحمن عن ارتياح ، فالسعادة تغمر وجوده تحت تأثير الحب . ومن يقدر على ادراك كنهه او تصويره او وصفه بالكلمـات المحدودة ، هو المنبثق من الازل ويتساوى بالله .

غير ان الـكائنات اللامحدودة يمكن الكلام عنها بالالفاظ ، وعبد الرحمن في تلك الليلة شبه الحب بـ « صبح » .

وابتسم للمرة الاولى في ذلك الليل ، ونادى اليه مرافقه الذي كان بعيداً عنه وهو معلمه فنون الحرب وقال له : « هيـــا بنا الى القصر فقد بلغ من الليل نصفه ، انهم استبطأونا .

*

الامير عبدالله أدركه الهرم وشبع من الايام والليـــالي ، فيعود الى الوراء

متذكراً أيام طفولته، فشبابه، فالويلات التي مرت به في حروبه مع الثائر عمر بن حفصون، ومقتل ولده وأخيه. فملأ الاسى قلبه وجلببته الكآبة وفارقته لذة الطعام والشراب. وبات عزاؤه الوحيد في عبدالرحمن، فهو انيسه وجليسه، يستمع اليه يقص عليه مردداً ما تعلمه من فنون الحرب والقرآن والحديث، فيطرب عبدالله وتتداخله النشوة ويضم الى صدره هذا الفتى النابه ويتخيل له المستقبل الظافر ويحس بالنعاس يدب الى اجفانه فيستسلم للذة الكرى.

ويتسلل عبد الرحمن بخفة الغزال الى حجرات امه القريبة من ذلك المجلس، فقد حرص عبدالله على ان تكون «مزنة» قريبة منه ومن ولدها يصغي اليها ويسهر على تنفيذ رغباتها، واي رغبات بقيت لها بعد بلوتها الكبرى بفقد محمد؟ الا يجدر بها ان تتوسل الى عبدالله ليجعل ولدها الذي هو ثمرة حبها، خليفة يرث الملك بعد الامير عبدالله جده؟ وهذا كان غيوراً على تلبية طلبتها. انه يميل اليها من جهة، ومن جهة اخرى يرضي ضميره تجاه حفيده وولده المقتول.

ويتوقف عبد الرحمن قليلاً قبل ان يرفع الحجب امام نغمات نسائية ترتفع الى السماء منطلقة من شفاه محبوبة اليه، تلك صبح فقد صارت تدخل باكثر انبساط من الماضي، غير انها في نبرات صوتها ترتعش رنة اليأس والرجاء في حين واحد ولا تحول انظارها عن الستار الذي سيكشف من دقيقة الى اخرى.

وفي تلك الامسية قال عبد الرحمن لصبح «يراودني الشوق لزيارة منزلكم غير ان استقبالي يجب ان يكون استقبال صديق لا امير».

فاجابته صبح: «المكان الذي يتشرف بوطء اقدام سيدي يتحول الى قصر زاه ولا اخشى حقارة بيتنا عندما تنزل فيه».

ولما عوّلت على مغادرة ذلك المكان قال لها عبد الرحمن: «يحز في نفسي ان عيون الرجال تقع على وجهك، لماذا تعرضن ايتها العذارى المسيحيات عذوبتكن وطهارتكن للنظرات النارية؟

- مولاي اذا كنت تحبني تسمح لي ان اتزين مثل امي وامــك وامهات امي وامك .

- ليضع الله حولك سوراً من الحجب حتى لا تراك سوى عيوني !

الشمس تساير النهر الكبير في اتجاهـه نحو اشبيلية ، فينحدر عبد الرحمن الى ضفته مجتازاً شوارع قرطبة وليس من رفيق له سوى حامـل سلاحـه . وللوصول الى منزل صبح لا بـد من اجتياز ازقة متعرجة ، وبيت صبح مغلق بدون اقفال يكفي ان يدفع قليلاً وينفتح على مصراعيه ليطل على فناء الدار .

ليس قصراً مثل قصور امراء العرب ، فلا زينة على الجدران ولا سجاد يغطي الحضيض ، الابواب واطئة وعلى شرفاته وضعت الثمار لتجفف .

شاهدته صبح من احدى النوافذ يقترب من دار اهلها فهرعت الى ابيهـا والدهشة تظهر على محياها .

- ابي ابي لقد اشرقت الشمس في دارنا ! هيا وانظر من يقف على اعتبنا !

فجاء والد صبح واخوتها من محل عملهم الواقع في اطراف الدار وايـديهم ملطخة بالزيوت والاصباغ ويسلمون على الامـير ، فهم يدركون ان أمه مسيحية وان بينهم وبينه وشاجة رحم، غير انه ما كان يدور في خلدهم ان رجليه تطئان دارهم العارية من الرياش، هو الذي اعتاد ان يمشي على السجاد الناعم .

أما صبح فتدل الامير الى الغرف الداخلية في الدار، حيث أمها تعد القطائف والحلويات المصنوعـة من الحليب والسكر واللوز والعسل ، وهنـاك بعض المزهريات استوت فيها ازهار الورد والياسمين .

واتخذ عبد الرحمن مجلسه في ديوان قليل الارتفاع، فرش عليه بساط من الحرير جيء به من دمشق ، وظل الآخرون وقوفاً بالرغم من توسلاته ليشاركوه في الجلوس ، فقدمت له صبح انواع الحلوى والثمار المجففة على اطباق، فتناول بعضها لباقة وقال لوالد صبح : « ايها الخال أمي مسيحية مثلكم وانا ثمرة حبها لمسلم ،

وعندما تكلمني عن والدي رحمه الله تغرورق عيناها بالدموع وتشعر بفداحة الخطب عليها!! أتعتقد ان ابنتك تشقى اذا ربطها الحب برجل لا يدين بدينها ؟

فران الوجوم على الوالد وتوردت وجنتا صبح ، وبعد صمت طويل أجاب الاب : « مشيئتك مشيئتنا . ولدنا مسيحيين ولنا الحق ان نظل أمناء لديننا ، وفي كل ما لا يعارض هذا فلك الامر وعلينا الطاعة .

– الامر ! الطاعة !! كنت أتمنى ان تكلمني بغير الطاعة لي، بل بمطلق الارادة في شعورك نحوي .

لماذا نضع مشاريع الغد اذا كان يرتفع بيننا وبينه حاجز اسود مثل الليل ، ولكن اذا سمح الله ان نرى اياماً بيضاء وربيعاً باسماً وسمح لارادتي ان تسود على الاندلس فانت يا صبح ستأتين الى كنفي لتكوني راحتي بعد تعبي وهدوئي بعد انزعاجي ونوري بعد ظلامي !

٥

كان اليوم العاشر من ذي الحجة ، الناس ملأت الشوارع في قرطبة عاصمة الدولة الاموية في الاندلس ، إنه يوم انيق من ايامها الغر ، عبد الرحمن يتوجه الى الجامع ليصلي في المؤمنين يوم عيد الاضحى ، باسم الامير عبدالله ، جده المحرم . الزينة تسطع في كل مكان وخاصة على تلك الطرق التي سيمر فيها موكب الامير . انه يتقدم الجيش على جواد أشهب ووراءه الحرس يمتطون الخيول المطهمة والشعب من كلا الجانبين يهتف له بالعز والتأييد ، والامير عبدالله في الساباط الذي ابتناه بين القصر والجامع تصل الى مسامعه الهتافات ، فيسترجع في ذاكرته شبابه الراحل يوم كان الناس يهتفون له مثلما يهتفون اليوم لحفيده . ولم يخالجه حسد أو دبت الى قلبه الغيرة من عبد الرحمن ، أو َ ليس هذا من صلبه ؟ ألم يعمل هو على تربيته وتهذيبه ؟ إنه مغمور بالحبور والارتياح الباطني ، لقد أثمر نبته وسيكون خير خلف لخير سلف ، تستطيع يا عبدالله ان تنام قرير العين النوم الابدي ، من يعلم ؟ قد يكون هذا آخر عيد تشاهده !

وفي برهة استعرض ماضيه امام عينيه منذ ان أصبح سيد قرطبة والبلدان الواقعة ما وراء جبل الفتح ، فانه طيلة حكمه الذي دام خمساً وعشرين سنة لم يذق طعم الراحة ولا صفاء العيش ، سيقت إليه الإمارة ولم يبق له منها الا الاسم فوق منبر قرطبة والقليل من غيرها . وساءت الظنون ولم يدر الى اين يصرف وجهه : الى ابن حفصون كبير الثوار المجاور لقرطبة وقد استولى على

اعظم البلاد مثل البيره وريه ؟ أم لابن الحجاج وقد استقل باشبيلية وقرمونه ؟ أم لعبد الرحمن بن مروان الجليقي ببطليوس ؟ أم لابن الياس بالقلعة المنسوبة اليه ؟ أم لخير بن شاكر ؟ أم لعبد الملك بن ابي الجواد بباجه الغرب ؟ أم لابن السليم بشذونة ؟ أم لسعيد بن هذيل بحصن المنتلون؟ أم لسعيد بن مستنه بباغو؟ أم لبني هابيل بحصون جيان ؟ أم لاسحق بن عطاف بحصن منتاشه ؟ أم لمحمد بن اضحى كبير العرب بالبيره ؟ ام لأبي بكر بن يحيى بشنت مريه ؟ ام لسليمان بن محمد الشذوني بشريش ؟ ام ليحيى التجيبي الانقر بسرقسطة ؟

فكلما داوى جرحاً ظهر جرح فتقاضى العمر مع ابن حفصون حرباً وسلماً ومعاقدة ونكثاً وهكذا مع ابن الحجاج في اشبيلية مهادنة ومعاقدة .

وتعاوده ذكرى مقتل ولديه المطرف ومحمد فتنتفض نفسه ، ويتمثل له شبح اخيه المنذر كأنه يخاطبه « لماذا عجلت بهلاكي يا عبدالله ؟ لماذا واطأت الحجام حتى سمم لي المبضع ؟ أهكذا قابلت الحسنى بالاساءة ؟ أتظن يا عبدالله ان جريمتك الكبرى هذه تمحى بأعمال التقوى والتقشف التي تقوم بها ؟ اتظن ان قعودك للمظالم وتحريمك اللذات وشرب المسكر ينجيك من التبكيت والتأنيب الراسبين في اعماقك الى الابد ؟

هل رد عنك بناء هذا الساباط بين القصر والجامع - رغبة منك في شهود الجمعة ومحافظة على الصلوات وحباً للصالحات - صوت ضميرك ، فأعاد اليك راحة البال التي كنت تنعم بها قبل قتل اخيك؟ انك لا تقوى قط على الهرب امام ذاتك !!

ويضطرب عبدالله عند هذه الرؤيا كأنه في حلم مزعج ويستيقظ على اصوات المؤمنين تدخل الى المسجد الذي لا يوجد في بلاد الاسلام اعظم منه ولا اعجب بناء ولا اتقن صنعة .

لما افتتح المسلمون الاندلس استدلوا بما فعل ابو عبيدة وخالد بن الوليد برأي امير المؤمنين عمر بن الخطاب من مشاطرة الروم في كنائسهم ، مثل كنيسة دمشق وغيرها من الكنائس التي اخذت صلحاً ، فشاطر المسلمون نصارى قرطبة في

كنيستهم العظمى التي كانت بداخلها وابتنى المسلمون في ذلك الشطر جامعا وبقي الشطر الثاني بايدي المسيحيين – فلما كثر المسلمون بالاندلس ونزلها امراء العرب بجيوشهم ضاق عنهم ذلك المسجد. ولما دخل عبد الرحمن الاول الاندلس نظر في امر الجامع وتوسيعه واتقان بنائه فاحضر نصارى قرطبة وسالهم بيع ما بقي بايديهم من الكنيسة ، فكان يؤتى بصاحب المنزل فيقول له : « ان هذه الدار التي لك يا هذا اريد ان ابتاعها لجماعة المسلمين من مالهم وفيئهم لازيدها في جامعهم وموضع صلاتهم فشطط واطلب ما شئت » ، فاذا ذكر له اقصى الثمن امر ان يضاعف له وان تشترى له بعد ذلك داراً عوضاً منها ، حتى اتي بامراة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة، فقالت لا اقبل عوضاً الا داراً بنخلة ، فقال تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال » . فاشتريت لها دار بنخلة وبولغ في الثمن.

وكان شروع عبدالرحمن الداخل في هدم الكنيسة وبناء الجامع سنة ١٦٩ هجرية ، وتم بناؤه وكملت بلاطاته واشتملت اسواره في سنة ١٧٠ وبلغت النفقة ثمانين الف دينار .

ثم زاد ابنه هشام صومعة كان ارتفاعها اربعين ذراعاً الى موضع الأذان وبنى بآخر المسجد سقائف لصلاة النساء وامر ببناء الميضاة بشرقي الجامع ، واقام هذا المسجد على هيئته تلك الى ايام عبد الرحمن الثاني بن الحكم .

ثم زاد عبدالرحمن بن الحكم الزيادة المنتظمة بالارجل وطولها خمسون ذراعاً وعرضها مائة وخمسون وعدد سواريها ثمانون سارية .

ثم زاد الامير محمد بن عبدالرحمن الثاني ان امر باتقان طرر الجامع وتنميق نقوشه وباقامة المقصورة وجعل لها ثلاثة ابواب .

ثم زاد المنذر بن محمد البيت المعروف ببيت المال في الجامع فوضعت فيه الاموال الموقفة لغياب المسلمين وامر بتجديد السقاية واصلاح السقائف .

ثم زاد اخوه الامير عبدالله بن محمد ساباطا معقوداً على حنايا وصل فيه ما بين

القصر والجامع من جهة الغرب . ثم امر بستارة من آخر هذا الساباط الى ان وصلها بالمحراب وفتح الى المقصورة بابا كان يخرج منه الى الصلاة ، وهو اول من اتخذ ذلك من امراء بني امية في الاندلس .

وكان سقف البلاط من المسجد الجامع من القبلة الى الجوف قبل الزيادة مائتين وخمسا وعشرين ذراعاً ، والعرض من الشرق الى الغرب قبل الزيادة مائتا ذراعاً وخمسة اذرع . وكان عدد بلاطه احد عشر بلاطا عرض اوسطها ستة عشر ذراعاً وعرض كل واحد من اللذين يليانه غرباً واللذين يليانه شرقاً اربعة عشر ذراعاً وعرض كل واحد من الستة الباقية احد عشر ذراعاً ، وجميع ما فيه من الاعمدة الف عامود ومائتا عامود وثلاثة وتسعون عاموداً رخاماً كلها .

وباب مقصورة الجامع ذهب وكذلك جوار المحراب وما يليه قد اجري فيه الذهب على الفسيفساء . وثريا المقصورة فضة محضة ، وارتفاع الصومعة وهي من بناء عبدالرحمن الناصر ثلاث وسبعون ذراعاً ، وسيأتي الكلام عنها .

وكان بالجامع المذكور في بيت منبره مصحف امير المؤمنين عثمان بن عفان الذي خطه بيده وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت وعليه اغشية الديباج وهو على كرسي العود الرطب بمسامير الذهب .

وارتفاع المنارة الى مكان الأذان اربع وخمسون ذراعاً وطول كل حائط من حيطانها على الارض ثمان عشرة ذراعا .

واكثر عدد ثريات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثريا ، وعدد الكؤوس سبعة آلاف واربعمائة وخمسة وعشرون كأساً وقيل عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كؤوس .

وجميع ما يحتاج اليه الجامع من الزيت في السنة خمسمائة ربع قنطار او نحوها ، ومما كان يختص برمضان ثلاثة قناطير من الشمع وثلاثة ارباع القنطار من الكتان المقطن لاقامة الشمع المذكور . والكبيرة من الشمع التي تؤخذ بجانب

الامام يكون وزنها من خمسين الى ستين رطلاً يحترق بعضها بطول الشهر .

كان للجامع كل ليلة جمعة رطل عود وربع رطل عنبر يتبخر به .

جميع ابواب الجامع ملبسة بالنحاس الاصفر بأغرب صنعة .

وفيه اربعة آلاف وستمائة مبخرة تعطر الجو بالبخور والعنبر .

٦

ما استهل فجر اليوم الاول من ربيع الاول من سنة ٣٠٠ هجرية (١٦ تشرين الاول ٩١٢) حتى شعر الامير عبدالله ان منيته قد دنت فدعا اليه وجـوه المملكة وطلب اليهم مبايعة عبد الرحمن حفيده فسلمه خاتم الملك دون ولده واخوته. وما غابت شمس ذلك اليوم حتى غابت معها حياة عبدالله على الارض بعد ان عاش اثنين وسبعين عاماً وملك خمساً وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً، وهو يردد هذه الابيات:

يا من يراوعه الاجل	حتى م يلهيك الامل
حتىم لا تخشى الردى	وكأنه بك قـد نزل
اغفلت عن طلب النجا	ة ولا نجاة لمن غفـــل
هيهات يشغلك المنى	ولا يدوم لـك الشغل
فكأن يومك لم يكن	وكان نعيك قـد نزل

لم يلق عبد الرحمن ممانعة من اعمامه الذين ربما هم احق منه بالامارة، فـلم يحتجوا ولم يرفعوا الصوت مطالبين بحقهم فيها، بـل رضخوا لاوامر عبدالله وكانوا اول من بايعوه وهم ابان والعاصي وعبد الرحمن ومحمد واحمد. ثم تـلاهم اخوة جده: العاصي وسليمان وسعيد واحمـد، فهؤلاء جميعاً، تلبية لرغبة الراحل بايعوا الامير عبد الرحمن وهم في لباسهم الابيض، دلالة على الحداد، لأن

الامويين في اسبانيا كان لباسهم الرسمي الابيض، كما كان ايضاً لباس الحداد في عائلة الامير ، فقال الشاعر ابن عبد ربه في الامير عبد الرحمن بهذه المناسبة :

بدا الهلال جديداً والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدي ما كان فيه مزيد

تلك ارادة الله شاءت ان تضع حداً للفوضى والاضطراب في مملكة تتارجح وينخر فيها سوس الطمع ليحل محل هذا الازدهار والتقدم والقوة . وقرطبة اخذت تستعد لتلبس اجمل ما عندهـا من ثياب وحلى لتصبح سيدة اوروبا وسلطانة الغرب .

كان عبد الرحمن الثالث متناسب التقاطيع، حاد النظرات، ازرق العينين، ذهبي الشعر، الا انه كان يصبغه بالسواد ، انـه يجري في عروقه الدم العربي والاوروبي، فامه مزنة اسبانية الاصل وجدته ايضاً من اصـل اسباني. ولد في السابع من كانون الثاني سنة ٨٩١ المقابلة ٢٢ رمضان ٢٧٧ هجريـة ، ثلاثة اسابيع قبل تنفيذ حكم الموت بوالده محمد كما ذكرنا .

كان تقياً وفي الوقت نفسه كثير التسامح مع ابناء رعيته من النصارى واليهود الذين كانوا ينعمون بحرية تامـة في تتميم واجباتهم الدينية ويقومون بالاحتفالات الخارجية دون ان يتعرض لهم احد بسوء ، فحفظوا له هذا الجميل وخدموه اصدق الخدمات. ولولا تعنت الفقهاء ومعارضتهم لما كان يرى من مانع في ان يجعل على قرطبة قاضياً من العرب النصارى .

تولى الامر والأندلس جمرة تحتدم ونار تضطرم ، وقد عظم الشقاق والنفاق وارتجت الآفاق ، كما يقول لسان الدين بن الخطيب ، فبئس مـا خلفه له جده عبدالله ، فافتتحهـا عوداً كما افتتحها بدءاً سميه عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل .

فمنذ اليوم الاول من تسلمه زمام الحـكم باشر المهمة الكبرى بنشاط واقدام

وعزم وحزم وفطنة ، ولم يقم أعمامه وأشقاء جده برد فعل ، بل جرت الحفلة بالابهة المعهودة في بلاط ران عليه الحزن لوفاة عبدالله ، فيتقدم أكبر الامراء سناً من عبد الرحمن ويقدم له البيعة باسمه وباسم جميع الامراء المتحدرين من السلالة المالكة . فوضع البرنامج على هذا الشكل :

استرداد سلطة وهيبة البيت الاموي في الاندلس

استرجاع الاراضي التي يسيطر عليها الثائرون والمتمردون

القضاء على الامارات التي تعيش شبه مستقلة عن قرطبة

خنق الثورة الاندلسية المتجسمة في عمر بن حفصون

الشتاء على الابواب ، ولكن لا بد من القيام بالعمل الحاسم دون تأجيل الى الربيع أو الى الصيف كما جرت العادة ، اشن الحملات العسكرية .

فأول ما بدأ به عبد الرحمن إرسال رجال ثقة الى الولايات والاقاليم لأخذ البيعة من رعاياه، وفي الوقت ذاته عمد الى ادخال تعديلات هامة في جسم الدولة، فعزل وعيّن وقرّب وأبعد ، فجعل من بدر بن احمد الحاجب وصاحب الخيل ، والقائد احمد بن محمد بن ابي عبدة ظل على رأس الجيش .

اعتمدنا على ارجوزة الشاعر ابن عبد ربه في وصف الحملات التي شنها الامير عبد الرحمن لاسترجاع الاراضي التي يسيطر عليها الثائرون ضمن الدولة الاموية وهذه الارجوزة طويلة نقتصر على بعضها :

اول غزاة غزاها اميرالمؤمنين عبد الرحمن بن محمد ٣٠٠ هجرية

ثم انتحى جيان في غزاته	بعسكر يصعد من هاماته
فاستنزل الوحش من الهضاب	كأنما حطت من السحاب
فأذعنت مراقها سراعا	وأقبلت حصونها تداعى

لما رماها بسيوف العزم … مشحوذة على دروع الحزم

كادت لها انفاسهم تجود … وكادت الارض بهم تميد

فأزل الناس الى البسيط … وقطع البين من الخليط

وافتتح الحصون حصنا حصنا … واوسع الناس جميعا امنا

ولم يزل حتى انتحى جيانا … فلم يدع بارضها شيطانا

ثم انتهى من فوره لالبيره … وهي بكل آفة مشهورة

فداسها بخيله ورجله … حتى توطن خدها بنعله

ولم يدع من جنها مريدا … بها ولا من أنسها عنيدا

الا كساه الذل والصغارا … وعمه واهله دمارا

فانصرف الامير من غزاته … وقد شفاه الله من عداته[1]

---

(١) لما غزا امير المؤمنين غزاته الثالثة آلى ان لا يسأم بمنادمة حتى يفتتح معقلا فافتتح معقلين من معاقل ابن حفصون فكتب اليه اسماعيل بن بدر الكاتب بهذه القصيدة :

عدمت البين أرق طرف عيني … وفرّق بين من أهوى وبيني

لقد نام القعيد قرير عين … بمن يهوى وبتُّ سخين عيني

اذا وجه الصباح بدا تهادت … ركائبنا لأين بعد أين

فقلبي نازح عني غريب … وجسمي دونه في غربتين

أجوب القفر بعد القفر ابغى … بذاك رضى امام المغربين

ومن لا يبتغي دعة الى ان … يكون خليفة بالمشرقين

لقد حلت حميا الراح عندي … وطابت بعد فتحك معقلين

وهذا البحر يذكر منك عهدا … سقى مغناه نو المرزمين

تحن اليك منه طاميات … من الامواج ملء الخافقين

لئن جاشت غواربها بماء … أجاج لا يسوغ لواردين

فأنت البحر عذبا مستهلا … علينا بالنضار وباللجين

فعش في غبطة وسرور ملك … تدوم له دوام الفرقدين

وقبلها ما خضعت وأذعنت «استيجه» وطالما قد صنعت

وبعدها مدينة الصنجيل ما أذعنت لصارم الصقيل

لما غزاها قائد الامير باليمن في لوائه المنصور

فأسلمت ولم تكن بالمسلمه وزال عنها احمد بن مسلمه

وأقبلت رجالها وفودا تبغي مدى ايامها السعودا

وليس من ذي عزة وشدة الا توافوا عند باب السده

قلوبهم باضعة بالطاعة قد أجمعوا الدخول في الجماعة

سنة احدى وثلاثمائة

ثم غزا في عقب عام قابل فجال في «سدونه» والساحل

ولم يدع «مريه» و«الجزيره» حتى كوى أكلبها الهريره

حتى أناخ بذرى «قرمونه» بكلكل كدرة الطاحونة

على الذي خالف فيها وانتزى يعزى الى سوادة اذا اعتزى

فسأل ان يمهله شهورا ثم يكون عبده المأمورا

فأسعف الامير منه ما سأل وعاد بالفضل عليه وقفل

سنة ثلاث وثلاثمائة ه. ٣٠٣ ه.

ثمت أغزى في الثلاث عمه وقد كساه عزمه وحزمه

فسار في جيش شديد الباس وقائد الجيش ابو العباس

حتى ترقى بذرى في «بشتر» وجال في ساحاتها بالعسكر

فلم يدع زرعاً ولا ثمارا لهم ولا علفاً ولا عقارا

وقطع الكروم منها والشجر ولم يصادف علجها ولا ظهر

فأيقن الخنزير عند ذاك ان لا بقاء يرتجى هناك

فكاتب الامير بالاجابة والسمع والطاعة والانابة

وأخمد الله شهاب الفتنة | وأصبح الناس معاً في هدنة
وارتعت الشاة معاً والذيب | اذ وضعت اوزارها الحروب

سنة ٣٠٥ هجرية

نكب ابي العباس بالاسلام
وكان في آخر هذا العام | وقائداً من افحل القــواد
غزا فــكان انجد الانجاد | الضاربين عند وقت الضرب
فسار في غير رجال الحرب | والحشم الجمهور عند الحاجب
محارب في غير ما محارب
واجتمعت اليـــه اخلاط الكور
وغاب ذو التحصيل عنه والنظر
حتى اذا اوغل في العــدو | فكان بــين البعد والدنو
اسلمه اهل القلوب القاسيه | وافردوه للكلاب العاويه
فاستشهد القائد في ابرار | قد وهبوا نفوسهم للباري
في غير تأخير ولا فرار | الا شديد الضرب للكفار

سنة ٣٠٦ هجرية

فسار في كتائب كالسيل | وعسكر مثل سواد الليل
حتى اذا حل على «مطنيه» | وكان فيها اخبث البريه
ناصبهم حربا لهـــا شرار | كانما اضرم فيها النـــار
فحاربوا يومهم وباتوا | قد نفت لعزمهم الرماة
ثم مضوا في حربهم اياماً | حتى ترى الموت لهم زؤاما
لما رأوا سحائب المنيـــه | تمطرهم صواعق البليه
تغلغل العجم بارض العجم | وانحشروا من تحت كل نجم
فاقبل العلج لهم مغيثا | يوم الخميس مسرعاً حثيثا
بين يديه الرجل والفوارس | وحوله الصلبان والنواقس



الناصر يستقبل طوطه ملكة نبارة وحفيدها دون شانجه

وكان يرجو ان يزيل العسكرا
عن جانب الحصن الذي قد دمرا

فاعتاقه بدر بما لديه ... مستبصراً في زحفه اليه
حتى التقت ميمنة بميسره ... فاعتلت الارواح عند الحنجره
ففاز حزب الله بالعلجان ... وانهزمت بطانة الشيطان
فقتلوا قتلاً ذريعاً فاشيا ... وادبر العلج ذميا خاسيا
ثم التقى العلجان في الطريق ... البمبلوني مع الجليقي
فاعقدوا على انتهاب العسكر ... وان يموتا قبل ذاك المحضر
فاقبلوا بأعظم الطغيان ... قد جللوا الجبال بالفرسان
والتقت الرجال بالرجال ... وانغمسوا في غمرة القتال
وهب أهل الصبر والبصائر ... فازعقوا على العدو الكافر
حتى بدت هزيمة البشكسي ... كأنه مخضب بالورس
فانقضت العقبان والسلالقه ... رهقاً على مقدم الجلالقة
فانهزم الخنزير عند ذاك ... وانكشفت عورته هناك
فقتلوا في بطن كل وادي ... وجاءت الرؤوس في الاعواد
وقدم القائد الف رأس ... من الجثاليق ذوي القياس
وخير ما فيه من السرور ... موت ابن حفصون به الخنزير
وهذه الغزاة تدعى القاضية ... وقد انتهم بعد ذاك الداهية

وبعد ان استقامت الامور في الاندلس الجنوبية لسيد قرطبة الجديد ، الناصر لدين الله ، بقي عليه ان يخضد شوكة عمر بن حفصون في قلعة ببشتر ، وبني حجاج في اشبيلية وقرمونة . كلامنا عن بني حجاج ، اما ابن حفصون فنفرد له فصلاً على حدة .

كانت اشبيلية في القرن التاسع من اغنى المدن الاندلسية بعد قرطبة ، وموقعها الجغرافي تحسد عليه وخصب اراضيها يعطيها المتوجات والمحاصيل

المتنوعة ، وقد عاشت بسلام على ايام عبدالرحمن الثاني ومحمد الاول ، وبلاها الا بغزوة النورمان سنة ٨٤٤ مسيحية . وبين سكانهـــا نسبة كبيرة من الموالي والمسيحيين الذين حافظوا على كنائسهم . والعرب العاربة اكثرهم من اللاكنين في غوطة نهر وادي الكبير، يعيشون في منازل توث فيها النعمة واطل عليها الرخاء موزعة في الارياف القريبة من اشبيلية . وابرز عائلة في تلك الاصقاع عـــائلة بني حجاج تنحدر من بني لخم ، وعائلة اخرى من حضرموت سميت بنو خلدون ومنها المؤرخ الشهير ابن خلدون الذي خلد اسمها .

وهاتان العـــائلاتان على علاقة طيبة مع الحكومة المركزية في قرطبة التي تركت لها الحرية ، فالحكام الذين كانت ترسلهم الى اشبيلية توصيهم بالا يجرحوا شعورهما . وتزوج الكثيرون من افرادهمـــا بالموالي من الاندلس رغم تعصبها القبائلي وشعوبيتها . كان يجري في عروق بني حجاج دم قوطي ؟

تقدم اولاد غيطشة « اولمندو » Olmondo و « اردبستو » Ardabasto و « روملو » Romulo من القائد العربي طارق بن زياد بعد انتصاره على لذريق ملك القوط ، طالبين اليه ان يسمح لهم بالذهاب الى افريقيا لزيارة موسى بن نصير . فسلم اليهم طارق رسالة توصية ذاكراً فيها الخدمات الجلى التي ادوهـا للقضية العربية . فارسلهم موسى بدوره الى دمشق مركز الخلافة الاموية ، فقابلهم الوليد بن عبد الملك واكرم وفادتهم واعاد اليهم جميع ممتلكات غيطشة ابيهم . وعند عودتهم الى اسبانيا تقاسموا الميراث ، اولمدو استقر في اشبيلية ، أوردبستو في المزارع القريبة من قرطبة ، اما روملو فقد اختار الف عزبة من اراضي طليطلة .

توفي اولمدو على عهد الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك وخلف بنتاً اسمهـا ساره فاغتنم اردبستو هذه الفرصه واستولى على املاك اخيـــه الاكبر المتوفى ، فاقلعت ساره مع اخويها الصغيرين في سفينة الى سوريا ورست في عـسقلان وتوجهت الى دمشق وعرضت امرها على الخليفة ، فسمع شكواها وامر باعادة

حقوقها اليها وزوجها بأحد اكابر دمشق وانجبت منه اولاداً ورافقها فيما بعد الى الاندلس .

وتعرفت في بلاط الخليفة على الفتى عبد الرحمن بن معاوية الذي عندما تولى الامور في اسبانيا اكرم مثواها ونصحها بعد ترملها بالزواج من عمير بن سعيد ، فانجبت منه ولداً سمته حبيباً ، خرج من صلبه اربع عيال ارستقراطية اشبيلية منها بنو حجاج .

ولما تولى عبدالله ، جد عبد الرحمن الناصر ، الامارة في الاندلس كان على رأس بني حجاج عبدالله واخوه ابراهيم ، وعلى عائلة بني خلدون كريب بن عثمان واخوه خالد . وبرز بين الموالي الاشبيليين بنو « انجلينو » (Angelino) وبنو « سبريكو » (Sabarico) . وما عتم ان نشب النزاع بين هـــاتين العائلتين الاسلاميتين الجديدتين من جهة وعائلتي بني حجاج وبني خلدون من جهة اخرى ، بدأ خفيفاً ثم اخذ يشتد شيئاً فشيئاً حتى اعيى قرطبة عن اخماده .

كشف الخلاف عن وجهه البغيض سنة ٢٧٦هـ – ٨٨٩م ، لما اغتنم كريب بن خلدون فرصة الفوضى السائدة في المملكة ليشبع مطامعه ، فغادر اشبيلية واعتصم في برج ابن خلدون في ضيعة البلاط وانضم اليه بعض اليمنيين والبرابر وصار يعتدي على الموالي وتواطأ مع الثوار في لبله (Niebla) وغيرها .

وقـــام حزب آخر مناوىء له قـــوامه الموالي في اشبيلية وبعض العرب والبرابر . اما قرطبة فلم تحرك ساكناً فدهش الاشبيليون من هذا الجمود وذهب احدهم الى عبدالله طالباً اليه ان يسمح له باحلال الامن والنظام هناك . فاجابه الامير الى طلبه ، فسيطر هذا المولى الجريء المدعـو محمد بن غالب على الموقف بسرعة واستتب الامن .

رفض اليمنيون الاقرار بالضعف والهزيمة ، فيتصل كريب بن خلدون ببني حجاج ويقنعهم في تبني قضيته ويتوجه لقتال ابن غالب في قلعته فيرتـــد

خاسراً . ويسقط في هذه المعركة احد وجهاء بني حجاج، فهاجوا وماجوا كيف
ان مولى من الموالي يقتل زعيماً من الارستقراطية العربية . ويرفعون القضية
الى الامير عبدالله ، فيحتار في امره فهو يريد ارضاء الطرفين . وبعد تردد
طويل يرسل ابنه محمداً الى اشبيلية فتوصل الى السماح لابن غالب بالرجوع الى
قلعته لكي يؤمن من جديد المواصلات على طريق قرطبة .

فثارت ثائرة كريب بن خلدون واستولى على حصن « كوريا » على نهر وادي
الكبير بينما عبدالله بن حجاج يحتل قرمونه ، فيخبر محمد بن عبدالله والده على
حقيقة الامر فيستشير سيد قرطبة وزراءه فينصحونه بقتل المولى محمد بن غالب .

فغضب الموالي في اشبيلية لمقتل زعيمهم محمد بن غالب ، وطلبوا مساعدة
اعداء اليمنيين ووصلت هذه المساعدة الى اشبيلية وتوتر الجو ، وقاموا بمظاهرة
امام قصر الوالي وحاصروه فطلب مساعدة اخيه جعد فوصل في اليوم التالي
ودارت الدائرة على الموالي ، غير ان جعدا هذا لم ينج من نقمتهم ، فقتلوه مع
شقيقين له في كمين نصبوه عندما كان عائداً الى اشبيلية ، فحمي غضب الوالي على
مقتل اقاربه ودعا بني خلدون وبني حجاج الى اشبيلية وقلدهم الصلاحية المطلقة
للاقتصاص من الموالي ، فكانت ايام سوداء على الاسبان من مسلمين ومسيحيين فقد
ابيد الوف منهم وفي طليعتهم بنو انجلينو وبنو سباريكو .

وبعد ان اروى بنو حجاج وبنو خلدون غليلهم من دماء اعدائهم الموالي
ارادوا التخلص من الوالي فيخلو لهم عند ذلك الجو . فادرك المسكين ان لا
مناص له من الموت وندم على ركونه اليهم ولكن فات الاوان ولم يبق عليه
سوى ان يستقبل الموت بشجاعة والسيف في يده ، فذبح نساءه وعقر خيوله
واحرق قصره وخرج الى لقاء حتفه .

واستتب الامر لكريب وابراهيم فتقاسما الولاية على اشبيلية .

لم يحرك الامير عبدالله ساكناً لظنه ان الخلاف لا يلبث ان ينشب بينهما ،
وهكذا صار ، اغتال كريباً اخوه خالد وخلا الجو لابراهيم بن حجاج فطلب الى

الامير عبدالله ان يوليه على اشبيلية وقرمونه فاجابه الى طلبه . فاظهر عن مقدرة فائقة في تدبير الاحكام فنظم فرقة من الخيالة قوامها خمسمائة رجل ينفق عليهم من ماله ، ولف حوله حاشية صغيرة وسخا على الادباء والشعراء ووشى اسمه على المنسوجات الحريرية كما كانوا يفعلون في قرطبة وبغداد واتخذ له مغنية بغدادية شهيرة اسمها قمر . وجاء باللغوي الحجازي ابي محمد العذري الذي ادهش الاشبيليين بمعلوماته اللغوية ولهجته البدوية . وكان الشعراء القرطبيون لما ييأسون من رفد الامير عبدالله يتوجهون الى اشبيلية لظنهم ان املهم لا يخيب في ابراهيم بن حجاج ، كما جرى للشاعر ابن عبدربه صاحب العقد الفريد ، الذي مدحه بقصيدة مطلعها :

« كتاب الشوق يطويه الفؤاد ومن فيض الدموع له مداد »

توفي ابراهيم عام ٩١٠ مسيحية عن ٦٣ سنة من عمره ، وخلفه ولداه عبدالرحمن بن ابراهيم ومحمد بن ابراهيم، الاول في اشبيلية والثاني في قرطبونة بدون رضاه لانه وجد أخاه نال حصة الاسد فعمد الى قتله ظناً منه ان الاشبيليين ينصبونه عليهم ، فخاب أمله لان اهل اشبيلية جعلوا الامر لاحمد بن مسلمة من بني حجاج وليس لمحمد صاحب قرمونه الذي سمم لاخيه ، فناصبهم العداء وأعطى الناصر لدين الله الطاعة فأمده بالجيش فضيق على اشبيلية ، ولما رأى ابن مسلمة ان لا طاقة له على احتمال الحصار اتصل بالناصر ومكنه من اشبيلية . فدري محمد بالامر وغضب لانه كان يأمل ان ينصب على اشبيلية فانزوى في قرمونه . فأفهمه الامير عبد الرحمن انه لم يعد في الامكان وجود دولة ضمن دولة ، فخالف الناصر وأغار على الاحواز القرطبية ، فما زال الناصر يؤنسه حتى رضي بالاقامة في قرطبة على ان يترك بقرمونة نائباً عنه .

وصل الى قرطبة مع رجاله وقومه في رمضان سنة ٣٠١ - ٩١٤ فأكرمه الناصر غاية الاكرام وولاه الوزارة وغزا معه وزيرا .

ثم تمردت قرمونه فحاصرها مع الامير عبد الرحمن ، ولما وصلوا اليها تبين

ان الحاكم الجديد حبيب بن عمر تمرد بمواطأة مع محمد بن ابراهيم الحجاج ، فعزله من الوزارة وحبس ثم أطلق سراحه ولم يطل أجله فمات في شوال ٣٠٢ – ٩١٥ وبموته انقضى عهد بني حجاج في اشبيلية .

أما قرمونه فقد حاصرها الحاجب بدر ودخلها بقوة السلاح في ٥ ربيع الثاني ٣٠٥ – ٩١٧ وسيق الثائر حبيب الى قرطبة وطرح في السجن مع ولديه ثم نفذ فيه حكم الموت بعد سنتين من سجنه .

٧

عمر بن حفصون

ينحدر عمر بن حفصون من عائلة اسبانية عريقة النسب ، ظلت مسيحية حتى ايام الحكم الاول ، ولد ابن حفصون مسلماً .

وكان ابوه حفص رجلا نشيطاً ورث عن آبائه اراضي شاسعة جعلته يعيش في بحبوحة ويحترمه صغار الملاكين المقيمين في تلك الارياف والجبال من مقاطعة ملقـــة فأطلقوا عليه اسم حفصون بدل حفص زيادة في الاكرام والاجلال . أنعمت عليه السماء بولد كان نعيمه وكان شقاءه سماه عمر ، وله شقيقان يصغرانه سناً : ايوب وجعفر . كان شرس الطباع سريع الغضب وفي خصام مستمر مع اترابه .

وفي يوم تم ما كان يخشى ان يتم ، تشاجر عمر مع احد جيرانه وقتله بطعنة خنجر فأنكره أبوه ولكنه خشي على حياته من انتقام الوالي فأخفاه في جبـال رونده الوعرة . وما طال الامر ان شعر عمر بالضيق والضجر في عزلته فاستسلم مع بعض قطاعي الطرق الى اعمال مخلة بالامن والنظام فألقى عليه القبض والي « ريه » وجلده وأخلى سبيله دون علم منه بأنه يطلق سبيل مجرم هارب من وجه العدالة .

وحفص الذي شبع مما لحقه من ابنه من عار وشنار وكرب نفس وضيق

قلب طرده من بيته ، فرأى عمر ان من مصلحته ان يغادر اسبانيا . فتوجه الى افريقيا حيث عاش طيلة بضع شهور منهوك القوى وقد أضر به الجوع والهزال . ينزل في ضيافة احد الخياطين من مواطنيه الاسبان المقيمين في طاهرت عاصمة الامام الرستمي أبي يقظان . يحاول ان يتعلم مهنة الخياطة ضاربا صفحا عن حياته الماضية .

وفي ذات يوم دخل الدكان الحقير رجل مسن ذو لحية جللها البياض وعليه سمة الوقار وسأل المعلم :

– من هو هذا الفتى ؟

– هذا من احد أنسبائي ، ولد في رنده في اسبانيا .

– منذ زمان بعيد غادرت اسبانيا ايها الفتى ؟

– منذ اربعين يوما .

– هل تعرف قلعة ببشتر ؟

– لقد عشت هناك .

فحدق فيه الشيخ طويلا كما لو كان يحاول ان يصل الى اعماق نفسه وقال : هناك في جبال الفره وفي قلعة ببشتر انفجرت ثورة ضد العرب الغاصبين .

فارتعش عمر وظهر الاشراق في عينيه وقال :

– متى حدث هذا ؟ من أنبأك ؟ وكيف ؟

فران الصمت على الشيخ وراحت انامله تعبث بشعر لحيته .

– لم تنشب الثورة بعد لانها تنتظر زعيما يقودها ، اجل تنتظر الزعيم فان الله عز وجل قد عينه ولكنه اختفى واسمه عمر بن حفص ، هل تعلم عنه خبرا ؟

فامتقع وجه عمر وأخذ يرتجف القماش بين يديه ، غير انه ظل صامتا خافضا بصره كي لا يلتقي ببصر الشيخ ، فقد خشي ان يكون عرفه فيسلمه الى

الامام الرستمي وهذا بدوره يسلمه الى ولي نعمته صاحب قرطبة .

ولما أرخى الليل سدوله انطلق من منزل الخياط بغية ان يجد ملجأ في مكان ما من الارض لينجو من مطارديه .

ووجد الشيخ على الباب في انتظاره وقال له :

« لقد ربط الاسبان مصيرهم فيك لخلع نير الغزاة والسماء وضعت بيمينك قوة العاصفة التي تجتاحهم . وصلت إليّ اخبارك فهرعت اليك ، عد الى بلادك وانتض السيف فستقهر الامويين وتجلس على عرشهم !

أبحر عمر بن حفصون الى اسبانيا سنة ٢٦٧ — ٨٥٠ . وصل الى جبال رنده وتوجه الى عمه لان أباه رفض ان يقبله في بيته ، فقدم له عمه السلاح ووضع تحت تصرفه بعض الرجال ممن تحلو لهم الحياة على هامش القانون .

فاتخذ معقله في ببشتر (Bobastro) على مسافة ميل من انتقره (Antequera) في اطلال قلعة رومانية قديمة ، جمع فيها الزاد والعتاد وقوى وسائل دفاعها وان كان موقعها الطبيعي على قمة جبل أشم يرتد عنه الطرف وهو كليل .

جعلها قاعدة له فيهبط الى القرى المجاورة الواقعة في السهول فيفرض عليها الجزية ويستولي على ما تصل اليه يده من مغانم .

قوي شأن هذه الشرذمة وتكاثر عددها بعد ان انضم اليها المتذمرون من حكم قرطبة وهم إما من المسيحيين الذين يرفضون سلطة امير لا يدين بدينهم ، أو من الموالي المتحدرين من اصل روماني وقوطي ويأبون على الغاصبين ان يتحكموا بهم وهم اسياد البلاد الاصلاء ، أو من الذين عبست في وجوههم سبل الحياة الرغيدة فجاؤوا يفتشون عن اطايبها إرضاء لملذاتهم وشهواتهم المتمردة في اعماقهم .

فقادهم عمر ضد قوات حاكم رندة وقهرها في معارك عديدة فقويت شوكته واشتد عوده ، فوجه اليه امير قرطبة محمد الاول قائده هشام بن عبد العزيز

مع رجاله .

فاضطره الى الاستسلام ، واقتيد الى قرطبة اسيراً مع رجاله .

وفي الطريق شرع يفكـــر في ذلك الشيخ الذي قصده الى قسنطينة ولم يكن الا رسول الشيطان يحاول اهلاكه في ريق شبابه فراح يندب حظه ويرثي لحال اهله للبلاء الذي جرى عليهم .

غير ان الامير محمداً الاول فكر في لو أنه اصدر حكماً صارماً لا يقال من اعمال السلب والعصيان في اراض خلقت لتكون فقط اوكار الشذاذ والعائثين في الارض فساداً . فاذا اكرم هذا الرجل واحسن مثواه فقد يكون له عوناً في محاربة ملوك الشمال . فاقترح عليه ان يجعله من خاصته ، فرضي عمر بن حفصون واصبح قائداً في جيوش المسلمين .

اظهر بطولة في محاربة ملك ليون وامراء بني قاسي ، الا ان حياة المدينة لا ترضيه فهو لم يخلق لها . فجمع رجاله واقترح عليهم العودة الى جبال رندة والى الحياة المحفوفة بالاخطار والحافلة بالمكاسب فعلت صرخة اجماعية تحبذ الرأي .

وفي ليلة من ليالي الخريف خرجت من قرطبة تلك الشرذمة المؤلفة من مـائتي رجل امام دهشة الناظرين الذين يجهلون الهدف والناحية التي تقصدها الجماعة ، واي حرب ينوون خوض غمارها .

ادرك الامير محمد قصد هؤلاء الرنديين في الساعة التي غادروا بها قرطبة ، فلم يطلق في اثرهم الخيالة بل فضل التربص لمعرفة الانباء عن اعمالهم وعن مسرح نشاطهم فيفاجئهم في وكرهم ويقضي عليهم كما تم في المرة الاولى ، الا انه كان يجهل عزم الحفصونيين على عدم الاستسلام بعد مهما كلف الامر .

ويتوجه عمر الى مرتفعات ببشتر ويطرد قائد الحامية الذي نصبه هناك الامير محمد الاول ويعود الى حياته الاولى من السلب والنهب ، ويبعث رسولاً من قبله الى القرى والزعماء المجاورين يخبرهم فيها بقيام الثورة ويطلب منهم المساعدة ، ومن بعض ما كتب لهم :

« ايها المواطنون ، حملتم نير هؤلاء الناس القادمين من بلاد غريبة فانتزعوا

منكم ثرواتكم بما فرضوه عليكم من الضرائب التي تنوءون تحت ثقلها ، هل ترضون بان يطأ العرب هاماتكم ويعتبرونكم عبيداً لهم ؟ لا تظنوا ان الطمع هو الحافز في كلامي هذا فانا لا ارغب سوى الانتقام لكم وتحريركم جميعاً من نير العبودية الراسب فوق اكتافكم .

وبعد ان كان سريع الغضب ، فظ الطباع، اصبح حليما بشوشا يعامل آخر رجل كصديق له ويحاول بشتى الوسائل ان لا يرهق الاسيـاد والمزارعين بالطلب، فكان يقنع بما يقدمونه له عن طيبة خاطر مع علمه بان هذه المساعدات هي اقل بكثير مما يستطيع ان يقدمه اولئك الاسياد . كان محبوباً لدى الجميع، وباشارة منه يلقون بانفسهم في اشد المخاطر هولا والابتسامة على شفاههم، يركب في طليعتهم ويعرض نفسه للموت ، لا يتجنب الخطر بل يدفعه ؟ ويقتسم الغنائم بين جنوده حسب استحقاق كل فرد منهم ويتنازل عن حصته في الغنيمة .

كان الحاكم المطلق في المناطق التي يسيطر عليها ويستمع الى شكوى المتظلمين يوماً واحداً في الاسبوع، لايحتاج الى شهود فله من صوت ضميره ما يدله على الصواب فيحكم ويرضخ الجميع لحكمه . يعاقب بصرامـة الذين يعتدون على حياة الغير او ممتلكات القريب ، ويقول المؤرخون انه في ذلك الحين كان يستطيع غلام صغير ان يقود قافلة محملة بالفضة مسافات طويلة دون ان يعترض له احد في المناطق التي يسيطر عليها ابن حفصون ـ يعجب بالبطولة ويكافئهـا حتى عند اعدائه ويطلق سراح الاسرى الذين يحاربون بشجاعة .

عند وفاة محمد الاول كانت سلطة عمر بن حفصون تمتد من جنوبي قرطبة حتى انطقيره .

في ربيع سنة ٢٧٤ ـ ٨٨٨ توجه المنذر لمحاربة الثوار فاستولى على ارشذنه وصلب ممثل ابن حفصون فيها بين كلب وخنزير .

ولما رأى سيد ببشتر ان لا طاقة له على مقابلة قوات الامير المنذر طلب الامان لنفسه ولأهله وولده فيقيم في قرطبة ويكون من حاشية الامير ، وشرط ان

قرطبة .

يدفع له مائة بغل يحمل عليها ثقله واهله الى قرطبة . ولما اصبحت البغال في حوزته رفع المنذر الحصار وبعث اليه ما طلب ، ورفض ان ينفذ شروط المعاهدة لانه لا يثق قط في الرفاء الناظرين عليها ، وشكر الامير على تلك الهدية الكبيرة التي سيستخدم لاغراض بمقتضي بلاده ، ولا يذهب من جديد فيعفر جبينه في التراب امام امير قرطبة . فاقسم اخرى ، وعظم المنذر القسم الغليظ الا يبرح من حصاره حتى يتمكن منه او يموت دونه ، وشاء القدر ان لا ذلك على الناس وشق عليهم الثواء بعسكرهم ظاهر ببشتر . وبعث الى يحنث المنذر بيمينه ، فاعتل بعد اربعين يوماً من منازلة ابن حفصون ، فلما وصل عبدالله قرطبة طالباً من اخيه عبدالله ان ينوب عنه اذا اتصل مرضه . فرفع المنذر فوق جمل مات المنذر وتفرق العسكر ولم يلو احد على احد . وخشي عبدالله ان يهاجم ابن حفصون هذا الموكب القليل وانصرف الى قرطبة ، فكتب له يقول انه سائر في موكب المنذر فلا يتعرض لهم بأذى ومن جهته العدد يرغب العيش معه بسلام ، فرضخ الزعيم الرندي لتضرع هذا الملك المغلوب على امره والسائر في موكب ملك آخر .

وعظم امر ابن حفصون واستولى على معظم البلاد ولم يبق بينه وبين قرطبة سوى مرحلة قصيرة .

وفي ربيع سنة ٨٨٩ قرر الامير عبدالله ان يشن هجوماً على قلعة ببشتر ، دامت هذه الحملة اربعين يوماً عاد بعدها الى قرطبة يتعثر باذيال الخيبة والفشل وانحدر ابن حفصون من معقله واحتل مدينة اسطبه (Estepa) واصونه وبعث اليه سكان استجه Ecija رسلاً يقرون بسلطانه عليهم .

قرر الامير عبدالله عملاً بنصيحة وزرائه ان يجمع قواه ويتوجه بها للاقاة ابن حفصون ، غير ان هذا الاخير درى بالاستعدادات فبعث رسولاً الى قرطبة يعرض على اميرها الصلح فلا يهاجم قواته ويحترم مدنه اذا تركه يحكم في المناطق التي يحتلها ، فوافق الامير عبدالله على تلك الشروط حباً منه في المسالمة .

غير ان عمر نقض الميثاق على عادته ، ففاجأ احـــد قواد عبدالله في قلعة قريبة من الجزيرة الخضراء وقتل واسر جميع جنوده ، وعبدالله بدلاً من ان ينزل به العقاب الذي يستحقه على هـــذا العمل المنكر توسل اليه ان ينضم الى قواته لمحاربة سعيد بن مستنه بباغو على اعتداءاته المتواصلة على السكان الآمنين وسلب منازلهم وسبي نسائهم .

فتظاهر ابن حفصون بالرضى ، وفي الوقت نفسه كتب الى مستنه يقول له :

« اعتمد عــــلي وثق بي ، قضيتنا الوطنية مشتركة ، فامكث حيث انت فالجيش الذي سأحارب في صفوفه لن يؤذيك » .

لم يبـــالغ زعيم الرنده في هذه الاقوال ، فهو على ثقة من هيبته في الجند، فهي تفوق هيبة القائد نفسه . فيعامل جنود الامير كما لو كانوا جنوده فيعاقبهم ويكافئهم على هواه ويستولي على خيولهم وامتعتهم ليقدمها لرجاله . ولما وجد الفرصة مؤاتية القى القبض على الموالين لعبدالله في الجيش ، وجمع تحت قيادته جيشاً جباراً فالمتطوعون يأتون من كل حدب وصوب للانضمام تحت لوائه، وكان يفر الضباط من قرطبة نفسها للالتحاق به ظناً منهم انه سيصبح سيد اسبانيا كلها .

وبالواقع فقد توصل ان يصبح سيد الاندلس الجنوبية ، ونهر وادي الكبير حدود مملكته من الشمال . والامير عبدالله لم يجسر بعد ان يعين والياً على البيره مثلاً او جيان او رنده فابن حفصون مقتنع ان قرطبة ذاتها ستصبح عن قريب من ممتلكاته .

فاشتد طمعه وازداد كبرياؤه وسلك مسلكاً غير الذي كان يجب عليه ان يسلكه ، فتجبر ولم يعد لطموحه حد فاراد ان يكون سيد العرب والاسبان على السواء .

فاتصل بحاكم افريقيا ابن الاغلب صنيع خليفة بغداد ويتفقان على المساعدة

المتبادلة لطرد الامويين من الاندلس دون ان يرفعوا راية العباسيين فيها ، فجعلوا استجه (Ecija) عاصمة الاراضي التي يسيطر عليها ابن حفصون ورمموا حصن اغبلار القريب من قرطبة وراحوا يشنون الغارات على العاصمة الاموية التي مرت بأتعس ايامها منذ الفتح العربي فهي محاصرة دون ان تكون محاصرة، فهي معرضة دائماً لهجمات الاعداء والامارة مهددة بالموت والممتلكات معرضة للسلب والنهب والنساء والاولاد يؤخذون ويباعون كالعبيد .

فالطرق مقطوعة والجزية لا تصل والجنود لا يدفع لهم فيهربون من الجيش ، والاسواق خالية من المأكولات وان وجد بعضها فبافحش الاثمان والمؤذنون من المنائر يعلنون غضب السماء«الويل لك يا قرطبة المدينة الفاجرة الملوثة بالرذائل ، لقد تفرق عنك حلفاؤك واصدقاؤك . عن قريب سيأتي الزعيم ذو الانف الكبير والوجه المشؤوم على رأس قوات مسلمة ومسيحية ينتهي اجلك فيلتجىء ابناؤك الى قرمونة فتصبح وكراً آخر ملعوناً .»

والامير عبدالله اكثر الناس غما فالعرش الذي شيده على جثة اخيه يتصدع . فشلت سياسة التقرب ، وجيوشه مبعثرة وثروته نافذة ، وكآخر محاولة بعث يطلب من ابن حفصون عقد اتفاقية عدم اعتداء مع علمه ان ابن حفصون لا يحترم العهود إلا عندما يراها تخدم مصالحه ، فلم يرض بعقد اتفاقية لظنه ان النصر وشيك الوقوع وسوف لن يتأخر المرسوم من خليفة المشرق ليستلم زمام الامور في قرطبة .

فيئس الامير عبدالله من النجاة واستطاع بعد الجهد الجهيد ان يجمع جيشاً قوامه اربعة عشر الف رجل بينما كان لعمر بن حفصون اضعاف هذا العدد ، ولما علم بقدوم هذه القوات ضده استخف بها وتهلل وجهه بشراً وأيقن ببلوغ الوطر .

وتحرك الجيش نهار السبت في ١٥ ايار ٨٩١ اول صفر ٢٧٨ ووصل في المساء على مسافة ميلين من بلاي .

فانتظر عمر هبوط الليل حتى يفاجىء الامير ، فلم يتمكن من الدنو من خيمته لكونها معززة بالحراس فاضطر الى التقهقر مع بعض الخسائر ، وهذا الانتصار القليل الاهمية ساعد على تقوية معنويات القرطبيين الضعيفة .

وفي اليوم التالي نشبت معركة بلاي الشهيرة ولنترك وصفها لابن عبد ربه .

وكانت لعبدالله بن محمد غزوة بلاي Poley التي أنست كل غزاة تقدمتها وذلك ان المرتد بن حفصون ألب عليه كور الاندلس فنزل حصن بلاي Poley وخرج إليه الامير عبدالله بن محمد في اربعة عشر الفاً من اهل قرطبة خاصة واربعة آلاف من حشمه ومواليه . فبرز إليه ابن حفصون وقد كردس كراديسه في سفح الجبل وناهضه الامير بجمهور عسكره ، فلم يكن فيه إلا صدمة صادقة أزالوهم بها عن عسكرهم فلم يقدروا ان يتراجعوا إليه . ونظر ابن حفصون الى معسكر عبدالله فاذا بعدد مقبل مثل الليل في انحدار السيل لا ينقطع فجشمت نفسه وعطف الى الحصن يظهر إخراج من بقي فيه ، فثلم ثلمة وخرج منها في خمسة معه وقد طار بهم جناح الفرار . فلما انتهى ذلك الى اهل عسكره ولوا مدبرين لا يلوي احد على احد فعملت الرماح على اكتافهم والسيوف في اعناقهم حتى أفنوهم او كادوا . وكان منهم جماعة قد افترقوا في عسكر الامير عبدالله فقعد الامير في المظلة وأمر بالتقاطهم وان لا يمر احد على احد منهم الا قتله فقتل منهم الف رجل صبراً بين يدي الامير » .

وقال يصف هذه المعركة شعراً :

الحق أبلج واضح المنهاج	والبدر يشرق في الظلام الداجي
والسيف يعدل ميل كل مخالف	عميت بصيرته عن المنهاج
.. لما حفلن الى بلاي عشية	أقوت معاهدها من الاعلاج
فكأنما جاست خلال ديارهم	اسد العرين خلت بسرب نعاج
ونجى ابن حفصون ومن يكن الردى	والسيف طالبه فليس بناجي
في ليلة أسرت به فكأنما	خيلت لديه ليلة المعراج

هذي الفتوحات التي أذكت لنا   في ظلمة الآفاق نور سراج

وفي معركة بلاي هذه استرد عبدالله استجه ، ارشدونه ، الفيره وجيان».

وكان بحاجة الى الراحة وابن حفصون ايضاً فطلب الهدنة من امير قرطبة فرضي على شرط ان يبعث له احد ابنائه كرهينة . ولكن ابن حفصون بدل ان يرسل احد اولاده بعث ولداً له كان قد تبنـــاه ، ودرى القرطبيون بالحيلة واحتجوا لديه فلم يقبل احتجاجهم لانه استرد بعض قواه فنقض العهد وانقض على ارشدونه ثم الفيره ثم جيان فاحتلها جميعاً ولم يبق امامه سوى استجه وبـلاي حتى يرجع الى ما كان عليه قبل اندحاره في معركة بلاي سنة ٨٩١م – ٢٧٨هـ .

وفي السنوات التالية لم يأت ابن حفصون بعمل يذكر بل على العكس أضاع البيره ، فمعركة بلاي هدت حيله ولم يقم له بعدها قائمة بالرغم من انه ظل يسيطر على مقاطعات واسعة في جنوبي الاندلس بينما كانت العشر سنوات الاخيـرة من ملك عبدالله ناجحة ،فالحملات متواصلة بقيادة ولديه ابان والعاصي يرافقهما القائد احمد بن ابي عبده وسقطت عدة قلاع في ايديهم واستولوا على الجـزيرة الخضراء وملقه وباسطه ، واندحر ابن حفصون في اراضي جيـــان رغم المساعدات العسكرية التي تلقاها من سعيد بن مستنه وسعيد بن هذيل بحصن المنتلون .

وفي صيف ٢٩٩ – ٩١٢ حوصرت ببشتر ، واعتنق ابن حفصون النصرانية وتعمد مع عائلته واتخذ اسم صموئيل وامرأته اسم كلمبا وفي هذا كانت خسارته اذ تفرق من حوله كثيرون من الموالي الذين اعتنقوا الاسلام عن ايمان صادق .

كان ابن حفصون كثير التقلب متحيناً الفرص : طلب المساعـدات من كل جانب،جس نبض الملك الفنسو الثالث ، حاول ان يصلح امره مع بني قاسي في ارغون ، كتب الى ابراهيم بن القاسم بن ادريس في القسم الشمالي الغربي من المغرب الاقصى ليفهمه انه يصلي باسمه صلاة الجمعة في الجوامع الاندلسية الواقعة تحت سلطته ، وفي سنة ٢٨٧ – ٩٠٠ حاول ان يتحالف مع ابراهيم بن الحجاج .

ولما علم ان افريقيا سقطت في ايدي المهدي عبدالله سنة ٩١٠ – ٢٩٧ بعث

يعرض له الطاعة وانه يصلي باسمه في الجوامع الاندلسية ، فكأنه بهذا يشجع الفاطميين على غزو الاندلس ، وخاطب ملوك الشيعة بافريقيا اضداد الاموية ، ووجهوا اليه رجلين وخاطبوه بالحض على التزام طاعتهم واقامة دعوتهم ، واقاما عنده حتى حضرا كثيراً من حروبه وصرفها ووجه معهما هدية انتخبهـــا الى صاحبها . ولما توطد لهذا العهد امره أحضر اصحابه وعقـد لولده جعفر العهد بعده ، واستراب بأصحابه فحذرهم وعوّل على النصارى .

وعند استلام عبدالرحمن الناصر الحكم كانت قد خفت وطأة ابن حفصون ، وتفرق من حوله الحلفاء الذين كان يعتمد عليهم ولم يبق له سوى اولاده لتغذيـة نار الفتنة في رنده وملقة .

ولحق اسبانيا سنة ٣٠٢ – ٩١٤ قحط عظيم مما اتاح الفرصة لسيد ببشتر ان يتنفس ، فارسل عبدالرحمن عمه ابان على رأس قوات ضئيلة ليقوم بنزهة عسكرية في كورة ملقه ويخشى ارسال جيش كبير مخافة ان لا يجد المؤن اللازمة له في الطريق . واستمرت الحال طيلة السنة التالية فالأمـــير كان عليه ان يضع حداً لاعمال السلب والنهب التي جاءت نتيجة المجاعة مما حمل الريفيين على الهبوط الى المـــدن طلباً للقوت بالرضى او بالعنف ، وكان عبدالرحمن يطوف بين الاحياء متنكراً ليقف على احوال رعاياه ، وذات يوم بينما كان على جاري عادته يتنقل من حي الى حي في ارباض قرطبة الا شاهد جماعة رثة الثياب عليها سماة البؤس فتقدم منهم قائلاً :

– من انتم وماذا تطلبون في هذا الليل ؟

فاجابه احدهم وقد احمرت عيناه من البغضاء :

– جئنا في طلب الخبز فالزرع قد جف في حقولنا والزهر تساقط من الاشجار قبل ان يتحول الى ثمار . الله يعاقبنا بسبب آثام هذه المدينة العاهرة ، والآن نسألك بدورنا ماذا تطلب ايها الفتى الحسن الهندام ؟ فلست في الموقف الذي يخولك السؤال الى اين نحن متوجهون ؟

فاشرق دينارفي يد الامير ودفعه الى الريفي الجائع، فرماه هذا الى الحضيض بغضب شديد :

ـ لا نأكل الذهب نريد خبزاً لنا ولعيالنـا ، الذهب يفسد العقول ويسمم القلوب .

ـ تعالوا ايها الاصدقاء الى بيتي فتأكلون وتحملون الخبز لعيالكم .

فاقتربوا من الامير محاولين تقبيل يده دون علم منهم انه سيد قرطبة وساروا جميعاً صامتين ، ولما وجدوا انفسهم امـام قصر الامارة توقفوا منذهلين وخاصة الذي كان اوقحهم في مخاطبة الناصر ، ود لو ان وجهه جف مـاؤه وتحول الى ظلمة ودخان ليهرب من العقـاب ومن الخجل الذي جلببه ، الا ان الناصر تبسم وقال :

بيت الامير بيت جميع المحتاجين .

وفي السنوات القليلة التالية داهم المرض ابن حفصون فعلم ان منيته قد وافته ولم يتمكن من تحقيق طموحه في سيادته على اسبانيـا حتى ولا على قسم ضئيل منها . اين ذهبت التضحيات الكبرى التي قام بها طوال ايام حياته ؟ والدمـاء الذكية المسفوكة ذهبت هدراً ودون فائدة ؟

انتشر خبر موت ابن حفصون في اسبانيا انتشار البرق واستقبله المعاهدون في قرطبة واشبيلية وطليطلة بانكماش في القلب ، بينما رحب به المسلمون واعتقد الناس ان بموته تنتهي مقاومة المعاهدين وقسم من الموالي ، فخاب هـــذا الظن وواصل ابناء عمر بن حفصون الاربعـــة الثورة عشر سنوات اخر ، ولم يكن نصيبهم من التوفيق كنصيب ابيهم اما لان العبقرية تنقصهم واما لان زمان التمرد قد زال .

والمؤرخ دوزي يثني على عمر وينعته بالرجل المحظوظ لانه مات في تلـك الظروف ، فالبطل الاسباني الذي تحدى امراء قرطبة ثلاثين سنة ونيف وهو

عرش بني امية في الاندلس اكثر من مرة ، عليه ان يشكر العناية الالهية التي اماتته في ذلك الحين موفرة عليه المنظر المفجع الحزين الذي كان ينتظر مسقط رأسه .

اولاد عمر بن حفصون

خلف عمر بن حفصون عند موته اربعة اولاد: جعفر البكر الذي تنصر مع شقيقته ارجنتينا التي سنأتي على ذكرها فيما بعد ، واولاده الثلاثة الباقون هم سليمان وعبدالرحمن وحفص ، حافظوا على ديانتهم الاسلامية .

ورث جعفر عن ابيه قلعة ببشتر . والناصر كان على ثقة من ان الخلاف لا يلبث ان ينشب بين الاخوة الاربعة ، الا انه لم يشأ انتظار الاحداث فعول على استئصال الداء، الداء المزمن الذي يتطلب بجهود عشر سنوات اخرى .

في ايار مايو من سنة ٩١٩ الموافقة ذو الحجة ٣٠٦ توجه الناصر بقواته الى مدينة بلده Belda من اعمال ملقه، وهي تقع على منتصف الطريق بين ارشدونه وببشتر فاتلف الزرع وجاء لمحاصرة المدينة فاستسلم اليه الموالي بينما المعاهدون Mozarabes قاوموا حتى ابيدوا عن بكرة ابيهم. وطلب جعفر الهدنة مقدماً رهائن ودافعا الجزية دلالة على حسن نواياه ، فقبلها الناصر وبعث فصيلة من جنوده لمقاتلة ابن عمر بن حفصون الثالث واسمه عبد الرحمن الحاكم في اوجن Ojen فاستولى عليها بسهولة فطلب الامان من امير قرطبة ، فاقتيد اليها حيث قضى باقي ايامه يكسب رزقه من كتابة المخطوطات ونسخها .

ودب الخلاف بين جعفر واخيه الاصغر سليمان فاغتيل الاول في ببشتر في ١٣ جمادى الثانية ٣٠٨ - ٩٢٠ ودفن على الدين المسيحي الى جانب والده عمر . فحل محله اخوه سليمان واستأمن الى الناصر لدين الله وخطب طاعته فسالمه الى ان تمكن وعلا قدره فنكث وشن الغارات ، فبعث الناصر القواد الى مضايقته فلاذ بالصلح فقبل منه واخذ رهائنه وهدم حصن طرش Torrox ولم تطل مدة سلمه الى ان نكث ودخل مدينة المنكب Almunecar عنوة فقتل جميع اهلها

وسبى نساءهم ، فخرج الناصر للاقائه وضيق عليه وفتح الكثير من معاقله .

اختلفت كلمة اصحاب سليمان بن عمر بن حفصون ، فرصدوه حتى اذا خرج يوما انفقد بعض حصونـــه ، اعلنوا خلعه وخاطبوا الاسقف كبير النصارى المعاهدين عامل الناصر بتلك الجهة فلحق ٣٢، وعمد الى استدعاء قائد الناصر. فجاء سليمان ودخل المدينة متنكراً ملثماً يحمل حزمة حطب ، وتلاحق بـه اصحابه ففر الاسقف وجعل سليمان السيف على من اتهمه .

ثم ضاقت حاله فطلب الامان والسلم من الناصر فاجابه الى ذلك . ثم نكث وعاد الى الغدر فعزم الناصر هذه المرة على القضاء عليه، فبعث له القواد وتوالت عليه الوقائع وتبين ادباره وسقطت معاقله وقطعت عن ببشتر الميرة والمرافق الى ان وقعت على سليمان الهزيمة باحواز سنت بحنت (San Vicente) وكبا بـه فرسه فقتل واخذ جثمانه الى قرطبة وعلق على باب السدة .

وولي بعده اخوه حفص وملكه اهل القلعة امرهم . ولم تمض ثلاثة اشهر على مقتل سليمان حتى توجه الناصر بجيشه الى جنوبي الاندلس فافتتح مدينة انجش الخاضعة لحفص وحاصر ببشتر وابتنى بجوارها حصن خليدة وخلف فيه الوزير سعيد بن المنذر لمواصلة الحصار ، وتوجـــه الى ملقه ثم رجع الى قرطبة بانتظار نبأ استسلام القلعة . وطال هذا الانتظار ستة اشهر لان حفصا ظن انه بقدوم الشتاء يرجع جيش قرطبة الى بلده ويتنفس ، ولكن هذا الامل خاب تمامـاً وتبدد في الفضاء مثل الدخان المتصاعد من الخيام المنصوبـة في تلك الاصقاع، خيام القوات المحاصرة للقلعة . فادرك حفص ان لارجاء من مواصلة المقاومة فكتب الى الناصرعارضاً عليه تسليم القلعة فاستولى الوزير احمد بن محمد بن حدير عليها باسم سيده في ١٩ يناير كانون الثاني ٩٢٨ الموافـق ٢٣ ذو القعدة ٣١٥، ورفع علم بني مروان الابيض على اعلى برج فيها . ووصل حفص واهل بيته الى قرطبة فاكرمهم اميرها وغزا معه حفص الى جليقية واغنى بـين يديه ومات جوادي الحجارة سنة ٣٢٠ وهكذا انتهى امر آل حفصون .

ارجنتينا بنت عمر بن حفصون

غادروا جميعاً تلك الاصقاع الى قرطبة للاستيطان فيهـا الا ارجنتنا او ارجنتينا بنت عمر بن حفصون التي كانت موضوع محبة ابيها وحنانه . ابت ان تغادر تلك الاماكن المليئة بالذكريات الحلوة والجيدة .

احب عبد الرحمن التعرف اليها فامر باحضارها بين يديه ، ولما مثلت اعجبه جمال عينيها الزرقاوين الناعستين فرنت اليه بطرف لا ينم على خوف او وجـل فقال لها :

– يا ابنة عمر بن حفصون بمقدوري ان افرض عليـك القصاص الذي اشاء لانك متمردة من جملة المتمردين وان احكم عليك بالعدل كما ينص الكتاب .

فلم ترفع انظارها الى الامير بل تمتمت قائلة :

– لقد علموني ان لا اخاف الا الله وحده ولا اخشى عذاب الجسد لان فيه مجد الروح .

– لماذا لا تنظرين الي ايتها الزهرة البريـة ؟ هل تخشين التحديق في عيني فيحدثان تأثيرهمـا عليك ؟ اما فكرت انـك خلقت مسلمة ثم جحدت دينك وجحود الدين يعاقب بالموت ؟

– لم يستشيروا نفسي عندما اعطوا جسدي اسماً فاذا عذبتني لايماني لا اعود اخشاك بل احبك .

وهزته كلمة احبك صادرة عن شفتين نديتين وعن تقاسيم متناسقة ، انـه يهوى هذه الفتاة ، ولماذا كتب عليه ان يقع دائماً في هوى نساء لا يدن بدينه .

ويتقدم بين الطنافس الحريرية من الفتاة ويرغمها على ان ترفع رأسها بعد ان لامست اصبعه ذقنها .

– انت جميلة واستطيع ان اجعلك زوجة لي او جارية بصفتك من السبايا ،

فاذا قدمت لك العرض الاول يجب عليك عندئذان تمتز في بفضلي و كرمي عليك.

ـ لا احد يقوى على مقاومتك على الارض . ولكن كبرياءك تأبى عليك ان تتخذ لك امرأة بالعنف بعد رفضها الانصياع اليك بمطلق ارادتها .

ـ لم يكلمني احد بهذه اللهجة التي تكلمينني بها . ورثت عن ابيك العنفوان والشموخ . لقد صفحت عن اخيك لانه كلمني باللين وشكر لي حلمي عليه ، وانت وحدك تكلمينني بالحقد وتنظرين الي بالكراهية .

ـ انت على خطأ ايها الامير فأنا لا اضمر لك حقداً او كراهية .

ـ ماذا تريدين اذن ؟ وما هي رغباتك ؟

ـ اذا تركتني اكرس حياتي لخدمة الله فأقيم هنا على اطلال ببشتر ديرا واذكرك في صلواتي طالبة الى الله ان يجعل ايامك طويلة وملكك مسيطراً .

ـ لا أريد ان يبقى في ببشتر حجر على حجر؟ لا اقدر على منحك ما تطلبين لانه ليس من احد يضمن لي ان هذه الاماكن لا تصبح من جديد وكراً للقلاقل. تعالي الى قرطبة وتجدي نعيم الحياة في افخم القصور وانا لا اكرهك على شيء اذا لم تأتي الي يوماً بمطلق ارادتك .

ـ سأذهب الى قرطبة اذا كانت هذه رغبتك ، ففي قرطبة اديرة للعذارى فانزوي في احدها ما بقي لي من الحياة بقية .

فتشنجت اعصاب الامير وشعر بأنه مغلوب على امره ، قهرته هذه الفتاة بإرادتها الحديدية .

ـ لم تقاوم إرادتي حتى الآن فشكراً لك لانك علمتني انني بشر ، اصبحت أدرك معنى مرارة الرغبة التي لا يمكن تحقيقها .

واحاط عبد الرحمن نفسه بمباهج الدنيا الا انها ظلت عاجزة عن ان تلب عينين فاتنتين ابتلي بهما في يوم من ايام الشتاء في قلعة ببشتر التي استسلمت له وأبت عليه فتاة مسيحية لم توجه له بسمة آملة .

ما تزال ارجنتيا ابنة عمر بن حفصون في احدى الاديار في قرطبة عاكفة على الصلاة والمناجاة . لم يشأ ان يستعمل معها العنف على امل ان ينالها يوماً ما برضاها ومرت السنوات ولم يتحقق هذا الامل .

ويتنهد وتتصاعد الغصات من صدره ويقمع رغبته الصارخة في اعماقه ، انه ما يزال على حنين الى من شغفت قلبه حباً هو السلطان مالك النفوس وعلى شفتيه الموت والحياة وسولت له نفسه ان يدفع بعض المخلصين له الى خطف هذه العذراء من صومعتها ، وعدل عن تنفيذ فكرته في آخر لحظة لان الله لا يحب الظالمين .

وفي ذات يوم بينما كان في قصره واقفاً للمظالم الا طرق اذنه اسم ابنة حفصون فقد جاء من يتهمها بانها تعمل على تنصير المسلمين ، وهو اعظم ذنب يمكن ان ينسب الى مسيحي .

ويبتسم عبدالرحمن المرة الاولى في ذلك النهار بسمة بعثت اليه بصيصاً من الامل سيشاهد عن قريب ارجنتينا ويقدم لها الصفح مقابل ماذا ؟؟؟

ويأمر رجاله بالتوجه الى الدير واستصحابها مع المدعي عليها .

كان شيخاً تضطرب يداه كغصن في مهب الريح .

« يا أمير المؤمنين ان هذه المخلوقة التاعسة الماثلة بين يديك تحاول ان تخطف مني ابنتي الطاهرة النقية عكازة شيخوختي وأملي الوحيد في هذه الدنيا .

– هل صحيح ما يدعي هذا الرجل ؟

وكانت ارجنتينا متشحة ثوباً بسيطاً دلالة على الزهد في الدنيا ، وفي نظراتها تكمن النعومة والطهر والنقاوة على جبينها ، ومثلت بين يد الامير سافرة لكي لا يظن انها مسلمة .

فكرر الخليفة السؤال :

– هل سمعت شكوى هذا الرجل يا ارجنتينا .

فاجابت بصوت خافت : « نعم سمعتها »

ـ قولي شيئاً في الدفاع عنك .

ـ لا احاول تبرئة نفسي لاني لم آت امراً فريا .

فقال الشيخ : انت اخذت ابنتي سليمى واوقعتها في حبائلك الشيطانية لكي تحبسيها بين الجدران حيث تعيشين .

ـ جاءت الي مدفوعة بيد الهبة وفتحت لها ابواب الحقيقة وكشفت لها عن سر المجد الابدي الذي ينتظرنا نحن العذارى اللواتي نضع كل ثقتنا بالعناية الالهية

ـ كذبت ! انها تكذب ايها الامير فهي التي اغوت ابنتي .

فتامل عبدالرحمن وجه الشيخ والعذراء وقال .

ـ فكري جيداً فيما تنطقين يا ابنة حفصون ، لا تفتشي عن نجاحك بالكذب ، انك بهذا تحكمين بالموت على ابنة هذا الرجل .

ـ ابنتي سليمى يحكم عليها بالموت .

ـ ذلك هو العقاب الذي ينتظر الجاحدين والمارقين من دينهم .

ـ ان ابنة هـــذا الرجل جاءت الى ديرنا لتعرض علينا خدماتها ، حاولت دون جدوى ان احولها عن دينها ولكن الله لم يعطني قوة الاقناع ، الذنب كل الذنب يقع علي .

فامتقع وجه عبدالرحمن امام هذا الاقرار السافر .

ـ تبصري فيما تقولين ، فلا اقوى على شيء لانقاذك من الموت اذا اصررت على كلامك .

ـ جئت مستعدة للموت لاجل يسوع يا سيدي ، فليسامحني ربي اذا كنت قد جبنت ، اني انتظر الموت استشهاداً لاجل الايمان .

ثم اشرقت عينا ارجنتينا وتمتمت : عن قليل سأسمع اصوات الملائكة وترانيلهم

وبهاء الاخدار السماوية .

ثم حاولت ان تغادر القاعة فنهض عبدالرحمن من مجلسه واقترب منها وقال لها بصوت تضطرب نبراته .

– ارجنتينا كان بمقدورك ان تصبحي ملكة العالم ، وها انت تفضلين العذابات والموت ، أإلى هذا الحد بلغت كراهتك لي ???

– انا لا اكره احداً وأعلم انك تتألم ويا ليتني اتمكن من التخفيف عنك ولكن سيدي والهي يدعوني الى حالة افضل .

وسيقت ارجنتينا الى الموت ، فقد فتشت عن الاستشهاد ووجدته .

٨

فأخذ الناصر يعين، الولاة على المقاطعات ثم طرطوشة وبلنسية وكورتدمير والبيره وريه (Malaga) على شاطىء البحر الابيض المتوسط، وفي غربي الاندلس مرده (Merida) وتروخيليو (Trujillo) وقسم كبير من البرتغال وعلى حدود مملكة المسيحيين لزون (Leon) سنتبريه ، (Santabria)، وادي الحجارة، مدريد وطلبره (Talavera) .

وبلغت اعمال التهدئة حدها بعد سقوط قلعة ببشتر ، أجل لقد اعاد الوحدة الى امارة الاندلس التي كانت ممزقة بالانقسامات، ولم يبق عليه سوى طليطلة التي كانت فيما مضى عاصمة القوط وعاشت على ايام العرب شبه مستقلة عن امارة قرطبة ، فأهلها وانفون من مناعتها وقاموا على حسن الجوار مع مملكة استوريس المسيحية في الشمال .

حاول عبد الرحمن استمالة المدينة اليه بالطرق السلمية في بادىء الامر فبعث اليها بعض الفقهاء لاقناع اهلها بأن قد حانت الساعة للاندماج في جسم الدولة ولدفع الجزية للسلطة المركزية. فجاء الجواب غامضاً فلم يبق امام الامير سوى اللجوء الى السلاح فتوجهت سنة ٣١٨ – ٩٣٠ قوة على رأسها سعيد بن المنذر واستقرت في ضواحي المدينة . ثم انضمت اليها في الصيف قوات جديدة على رأسها عبد الرحمن نفسه فعسكر على بعد ثلاثين كيلومتراً منها وشرع يقترب شيئاً فشيئاً حتى عسكر في مرتفعات شلنقاش ليفهم اهل المدينة ان الحصار مستمر حتى

الاستسلام اليه وحول المعسكر الى ابنية متراصة متلاصقة سماها مدينة الفتح ثم رجع الى قرطبة .

دام الحصار سنتين كاملتين ، وكان اهل المدينة يعتمدون على مساعدة ملك ليون ردمير الثاني الذي وعدهم بها ، وبالفعل توجه بجيشه لمساعدتهم مراراً عديدة ولم يتمكن من فك الحصار عنهم ، فعمدوا ، تجاه هذا الفشل الى الاعتماد على انفسهم ، وما طال الامر ان تسرب اليهم الوهن فدخلها عبد الرحمن بنفسه في شهر رجب من سنة ٣٢٠ الموافق شهر اغسطس ٩٣٢ ، على صهوة جواده بين الهتافات والتصفيق والتكبير. ولم يخرج منها الا بعد ان ترك فيها حامية قوية واحتل جميع المواقع الاستراتيجية الهامة في المنطقة ، ووزع الهبات على جنوده بسخاء.

واستتب الامر لسيد قرطبة في مملكة استلمها ممزقة الاطراف فرتق خروقها واعاد اليها رونقها كما فعل سميه من ذي قبل عبد الرحمن الاول الداخل الذي وصل اليها هارباً من انتقام العباسيين .

والثوار على قول ابن الخطيب ، في دولة بني امية متعددون شقيت بهم الملوك وتنغصت بهم الخلفاء واضطروا الى مسالمتهم تارة ومحاربتهم اخرى والسبب في كثرة الثوار بالاندلس يومئذ ثلاثة وجوه :

الاول : منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس اهلها بمقاربتهم عدو الدين .

الثاني : علو الهمم وشموخ الانوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة اذ كان من يحصل بالاندلس من العرب والبرابرة اشرافاً يأنف بعضهم من الاذعان لبعض .

الثالث : الاستناد عند الضيقة والاضطرار ، الى الجبل الاشم والمعقل الاعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض ، فكان الامراء من بني امية يرون ان اللجاج في امورهم يؤدي الى الاضلولة وفيها فساد الاحوال وتعذر الجباية وتعريض الجيوش الى الانتكاب واولياء الدولة الى القتل ولا يقوم

السرور بغلبة الثائر بما يوازنه من ترحة هذه الامور .

وكان الامير عبد الرحمن مبرزاً في ذلك مع معين البخت والاقبال فهادن طائفة وارتهن اخرى واستنزل الى حضرته اخرى وغلب بالسيف اخرى فاستأثر من بين قومه بالهدوء وخلو الجهات من الهرج وتهنأ بحول الملك .

القِسمُ الثَاني

١

قرطبة سابحة في ليل بهيم والشوارع مقفرة الا من العسس الساهرين على الامن والناس نيام والسكون يخيم على القصر المرواني . جلست امرأتان في حديقة هذا القصر والاهتمام باد على وجهيهما ، امرأة توغلت في الاربعين ومـــا زالت الروعة تجهر في قسماتها ، وامرأة تخطت العشرين وقد بدا عليها الانشغال فلهجتها ترشح بالكآبة وفي نبرتها علائم الانقباض :

ـ اني شقية يا اماه .

ـ وما يشقيك ؟ انت زوجة الامير وتحسدك نساء الاندلس ، وعبد الرحمن على شغف بك مستطيل وقد أنزلك في فؤاده منزلة لم تسبقك اليها امرأة .

ـ كان ذلك في الماضي !

وتنهدت صبح عن قلب مكلوم نخره الاسى ، اجل انها تشقى في حياتها رغم ما وصلت اليه من عز وسؤدد يحسدها عليها لداتها ، وما نفع هذه الامور اذا كانت لا ترافقها السعادة ، اذا كان القلب يشعر بفراغ عميق ؟ يعتقد الرجل ان المرأة تكتفي بالاكل والشرب واللباس لكي تكون سعيدة على قول الشاعر عمر بن ابي ربيعه

.. ووال كفاها كل شيء تريده   فليست لشيء آخر الليل تسهر

والقلب المتضور جوعاً الى الحب ولا يجد ما يسد به رمقه ؟ المرأة تقنع من

الرجل بكسرة خبز وبقدح ماء لجسدها ولكن قلبها نهم وغريزتها عطشى لا يقنعان بقدح ماء وبكسرة رغيف .

أجل باتت تشعر أن عبد الرحمن قد تبدل في عاطفته نحوها عما كان عليه في اول عهدهما في الحب ، في ذلك الحين استولت على قلب عبد الرحمن لدرجة الاستئثار فهي التي فتحت قلبه على اسرار الحب و لـذاة ، فخفق بالحب للمرة الاولى لما كان يراها تتردد الى امه مزنة الجالسة قبالها ، وتم عقده عليها وعاشا اياماً لذيذة لم يكن يعكرها سوى اخبار الحروب والقيام بغزوات جـديدة يركب فيها الامير زوجها فتتجرع القصص ومزنة تشاركها في قلقها وانشغال بالها ، فالمرأتان تحبان عبد الرحمن، تلك لانه زوجها وهذه لانها بنتها. وينكمش قلبها من ناحية اخرى لاجل ابناء دينها في الشمال المرابطين على قاب قوسين من المدن العربية ويعيثون فيها فساداً كلما وجدوا الى ذلك سبيلا . فلماذا لا يخلدون الى السكينة ويعيشون بسلام مع عبد الرحمن رغم معرفتهم ان لا طاقة لهم على مقاومته وقهره فهو اقوى منهـم عدة وعدداً ؟ ويمتلىء صدرها خوفاً على عبد الرحمن الذي احبته فوق كل مخلوق خشية ان يصيبه مكروه في هذه الغزوات الكثيرة التي يقوم بها بنفسه في الشمال والجنوب ضد الملوك المسيحيين والمتمردين من المولدين والمعاهدين في الولايات الاسلامية .

وتعاودها الذكريات العذاب لما كانت تتردد الى القصر لمشاهدة قريبتها مزنة او لتلتقي بعبدالرحمن لان رغبتها في لقائهـا اشد من فرحتها بحديث مزنة ، ويتورد خداها حياء ، الى ان اعتلى العرش وهو في الثانية والعشرين من سنه ، وصبح غمرت وجوده بسعادة كبرى وغمر وجودها بسعادة كبرى ، فانتقلت من الحقل الى القصر ، من الكوخ الحقير الى البناء الشامخ .

واحتفل بزواجها وتزينت قرطبة بأجمـل ما عندها من زينة فهي تقاسم العروسين فرحتها الكبرى ، وانيرت المصابيح والشموع بعدد لا يحصى وانطلقت المياه من بركهـا وتسابقت الخيول في المضمار ، وحملت صبح في هودج من بيت

ابيها الى بيت زوجها الامير العظيم الذي عقد عليه الشعب الآمال الرحاب. واستقبل بيمنه بالتكبير والتهليل، انه رسول من عندالله ليرد المياه الى مجاريها.

كان موكب زفافها حافلاً مهيباً، مشت بين صفين من الجواري والوصيفات المتزينات بأجمل الثياب الحريرية الناعمة والحلى، ومشى قاضي المدينة وراءها وسار أشراف قرطبة في مؤخرة الموكب.

وسخا عبد الرحمن في يوم عرسه فوزع الثياب الثمينة على بطانته وجهز مائة عذراء فقيرة، وأجاز الشعراء على مدحهم جمال العروس، وأولم الولائم التي أنفقت عليها الاموال بدون حساب.

ومرت السنوات وحبها لعبد الرحمن ينمو ويتجدد لان الحب اذا لم يرتد كل يوم ثوباً جديداً يمرض نفسه لخطر الموت، وأخذ يحدثها قلبها بأن عبد الرحمن بردت محبته نحوها فيجالسها أقل ما أمكن ويغادرها لأي حادث مها كان طفيفاً وحاولت ان تختلق الاعذار لعبد الرحمن: فهو في شغل شاغل عنها وعن سواها من النساء، فالعرش يهتز تحت قدميه وعليه ان يوطد اساساته من الداخل والخارج فالطامعون كثيرون والغنيمة نهب مقسم، كأنها بهذه الاعذار الواهية تجد لها سلوى وعزاء، ولا تفتش عن السبب الحقيقي أو بالأحرى لا تريد التفتيش عنه، انها تخادع نفسها ولا تريد الاعتراف بالواقع لترضي هذه الناحية من شخصيتها التي لا تريد ان تقر بالضعف والهزيمة امام قوة أغلب. ولماذا يريد عبد الرحمن ان يسلوها؟ اليست جميلة ومتيمة حباً به؟ وراحت تفتش في ذاكرتها عن عيب يقصي حبيب قلبها عنها. وا كمد وجهها، لقد أخذت تدرك ان الله سد رحمها فلم تستطع ان تعطي عبد الرحمن ولداً يرث الملك بعده.

انها بشوق الى هذا الولد اكثر من شوق عبدالرحمن له ولكن ما الحيلة؟هل من دواء؟ وتتضرع للمصلوب وامه حتى ينعم عليها الله بولد تقر به عيناها وينسيها وحدتها ووحشتها ببسماته الطاهرة ونغنغاته البريئة.

ومزنة التي لم تبلغ بعد درجة الشيخوخة كان قلبها مغموراً بالالم والاضطراب

وفي بعض الاحيان تسطو عليها نوبة من الاغماء تهدد حياتها ، وصارت تنطفىء هذه الحياة شيئاً فشيئاً وصبح تسكب عليها عنايتها وتعزيها على مرضها وهي أولى منها بالتعزية .

ويجد عبد الرحمن دائماً بعض الساعـــات للهو . شغلته الحروب الداخلية والخارجية إلا ان قلبه يتكلم الى الجمال الذي يصل اليه من اربعة اقطار العالم ، ويشغله عن صبح التي أيقظت قلبه المرة الاولى . انـه شديد القلق ، يريد ولي عهد ولم تعطه صبح ما يطلب فكان لا بد من التفتيش عن هذا الولد عند امرأة أخرى حافظة النوع ، ولم تشعر صبح بالغيرة وهي تعلم ان عبد الرحمن مهما بلغ حبه لها لا يمنعه عن التنقيب عن العسل في خلايا اخرى ، ولم يعد من مجـــال للاستئثار وقد جمع حوله الجواري من كل جنس ولون ، غايتهن القصوى العمل على إرضائه بشتى ضروب الاغراء والاسترضاء .

ووقع ما كانت تخشاه صبح ان يقع فقد أعطته إحدى جواريه ، مرجـانة ولداً ذكراً سماه الحكم الثاني فهو ولي العهد . السنة ٩١٥ مسيحية .

وطابت نفسه به وقرب هذه الجارية اليه وجعلها من نسائه وأطلق عليها لقب « السلطانة الكبرى » .

وداخلتها الغيرة والحسد من هذه المرأة المحظوظة التي سلبتها أعز ما عندها ، وودت لو لم تحبل ولو لم تلد ، ودت لو ان النساء جميعاً أصبن بالعقم مثلها حتى لا تتمكن واحدة منهن ان تستأثر بحب عبد الرحمن حبيبها .

غير انهـــا تمالكت نفسها فالحسد ليس من شيمتها والغــيرة ليست ديدنها فشعرت بتحول فجائي نحو هذا الطفل . أليس هو ابن عبد الرحمن ؟ انـــه صورة الحبيب لانه انبثق منه ، وراحت تسكب عليه حنـــانها . واستيقظت فيها الامومة الجائحة على نعومتها . انه ابن ضرتها ومنافستها على قلب زوجها ، ولكن لا استئثار في المحبة الحقيقية ، انها تقوم باسعاد المحبوب وليس بامتلاكه . تتعذب وعذابها نفسياً . جنت عليها غريزة حب البقاء المتأصلة في نفس كل

مخلوق ، وعبد الرحمن اكثر من أي مخلوق آخر يرغب في تخليد اسمه بالمشاريع العمرانية وبولد يرث بعده مملكته المترامية الاطراف .

فرح الجميع بالمولود الجديد وشاركتهم صبح فرحتهم وصارت تقيم الصلوات والتضرعات ليطيل الله ايامه ويرث الملك عن ابيه ما دامت لم تقدر على اعطائه هذا الوريث .

ان الزوجة العاقر تتململ في الحسرة لان الامومة تتنبه عندها فتتقدمها لأي ولد كان وان هو ابن ضرتها .

ويعزيها ان الطفل ضحوك لعوب مطيع فيتحول حبها له الى شيء من التفرد والاحتكار .

وبلا الله قرطبة والاندلس جمعاء البلاء الاكبر ، وصل اليها الطاعون محمولاً على أجنحة الأهوية الساخنة النافخة من افريقيا ، وراح يجتاح المدن الواحدة تلو الاخرى وعجز الناس عن دفن موتاهم في الاندلس والمغرب على السواء فلم يميز بين ساكن الكوخ وساكن القصر فأودى بحياة مزنة فدفنت في مقابر المسيحيين .

وخيم الحزن على قصر قرطبة بعد موت السلطانة مزنة ام عبد الرحمن ، ولم يبق لصبح عزاء سوى هذا الطفل الذي بلغ الخامسة من عمره وبدت عليه النباهة وسرعة الادراك .

وتوالت المحن والخطوب : بلاء من الداخل وبلاء من الخارج ، الوقوع في يد الله والوقوع في يد الاعداء .

درى عبد الرحمن بمؤامرة تحاك ضده من احد اعمامه وهو العاصي اصغرهم فألقى القبض عليه مع نسيب آخر اسمه محمد بن عبد الجبار فحبسا وتراشقا التهم ، فنفذ فيهما حكم الموت ٧ نوفمبر تشرين الثاني ٩٢١ الموافق ٣ رجب ٣٠٩ .

وتجاه هذه الخطوب وفي غمرة هذه المصائب المتراكمة على القصر فودت

جوانبه، انتشر نبأ بسرعة البرق يبشر بأن صبح حــامل وعن قريب ستضع مولودها الذي طالما اشتاقت اليه وأصبحت تخشاه ، فان السنوات الطويلة التي سببت الحـزن والالم من جراء الحروب والويلات الكثـيرة التي ألمت بالقصر والانتظار الطويل والعذاب النفسي الشديد من حيث المولود هل هو ذكر أم انثى تركت أسوأ الأثر في صحتها ، إذا كان مولودها انثى فلا فائدة منه فعبد الرحمن والرجال بالاجيال لا يحبون الانثى ، يريدون لهم ذكراً يواصل اسمهم أما الانثى فليست لاهلها بل للرجل الذي يتزوجهـا . وان ذكراً فقد جـاء متأخراً في حينه ، سبقه اخوه الحكم الى ولاية العهد . لماذا ولد الحكم قبل ابنها الذي يتكون الآن في احشائها ؟ لماذا لم يتربص عبد الرحمن قليلاً في تولية الحكم ؟ لماذا يراعي السن ولا يراعي المقدرة والكفاءة في من يجب ان يكون ولي العهد ؟ قد يكون ابنها أوفر ذكاء وأبعد نظراً وأكثر تعبداً وأغزر علماً من الحكم فهو بالتالي أولى بالولايــة من هذا الذي لا فضل له سوى انه ظهر الى عالم الوجود قبل اخيه .

وداخلها شيء من النفور نحو الحكم ، غير انها رجعت الى نفسها لما علمت انها تمادت في التقليل من قيمة الحكم والتكثير من قيمة ابنها الذي لا تعلم عنه شيئاً .

لا ! لا ! ان الاخوين سيكونان على وفاق تام ، انه واجب علي .

واذا لم توفق الى ايجاد الالفة بين الاخوين من اب واحد ومن امين مختلفتين ؟

وتخار قواهـا ويصيبها التلف وتبكي بمرارة الثكلى ، باتت تخشى على حياتها فان الله لم يعطها قوة العود وصلابة البنيان ، انها تتوجس شراً على حياتها من هذا المولود الجديد .

واستسلمت الى همومها ووحدتها فالسلطانة مزنة توفيت وكانت لها الانيسة وعبدالرحمن في شغل عنها بالارتقاء الى المجد فتملكتها يبوسة لا تفارقها .

ووافت الحامل ايامها فوضعت طفلاً اطلق عليه اسم جده عبدالله ، وتضايقت في المخاض وشاهدت الموت على قيد انمـل منها ولم تشاهد ابنها ولم يصل صراخه

المتصاعد الى اذنيها ، وعبدالرحمن قربهـا يحاول ان يبث الحياة في هذا الجسد الذي اخذت الحياة تفارقه ، انه امير الاحياء ولكن لا سلطان له على الموت الذي تفوق قوته كل قوة انسانية .

وبعد جهد جهيد تمكنت من تمتمة الفاظ متقطعة فهم منها عبدالرحمن انهـا تريد رؤية الحكم فجيء به اليها . تلك رغبتها الاخـيرة ، رؤيته قبل ان تغمض عيونها الى الابد على هذا العالم الزمني .

وشعرت ببعض النشاط كأن الحياة عادت اليها من جديد فأخذت يده البضة الصغيرة بيدها الشاحبة البيضاء ولفظت شفتاها هذه الكلمات : « ولدي الحكم وان لم تكن خرجت من احشائي غير اني احببتك كولدي وانت تعلم والله يعلم صدقي . انظر الى هذا الطفل الصغير انه اخوك ستحرمه الطبيعة من حنان الام لاني عن قريب صائرة الى مكان بعيد جداً جداً لا يرجى لي منه عودة . سأتركه بين يديك ، سوف يسألك عن أمه فقل له ان امه كانت تحبه كثيراً وهي ترعاه من سمائها . فان روحها ستكون دائماً قربه وقربك .

اني اطلب لك من الله ان يوفقك ويكون ملكك سعيداً محفوفاً بالجد والاقتدار وبعيداً عن المؤامرات والاغتيالات ، فليسكب الله عليك جميع خيراته ولينصرك على اعدائك حتى تتمكن بدورك من ان تعتني بهـذا الطفل اليتيم . فعين الله ترعاك ???

وخارت قواها فجاءة ، تلك كانت يقظة الموت التي سمحت لها بان تقول وصيتها .

ولم يفقه الحكم حرفاً مما سمع من المحتضرة ، غير انه شعر بانكماش في قلبـه كأنه سيخسر خسارة كبيرة لقد كانت تحنو عليه هذه المرأة كما كانت تحنو عليه جدته مزنه وعن قريب ستفارقه هذه كما فارقته تلك . ولم يتمالك ان انفجرت الدموع من عينيه كأنه خسر اعز ما لديه ، فمن كان يناديها امه قد نزحت عنها الروح وبردت يداها وصمت اذناها عن اصوات البشر لتسمع تراتيل الملائكة في

اعلى السموات .

بقيت كلماتها راسخة في ضمير الولد وصارت تنمو معه وسيعمل بوصية هذه الام العزيزة على قلبه الصغير .

هل انفتح ضمير صبح على خفايا المستقبل في آخر لحظة من حياتهـــا فسبقت وعرفت ان الخلاف سيدب بين الاخوين لأجل الوصول الى الخلافة وان العاقبة ستكون وبالا على ابنها فتوسلت للحكم كي يرعـاه لئلا تعثر رجله وينقاد لاقوال الواشين الذين يحبون الاصطياد في الماء العكر ؟

اما عبدالرحمن الواقف امام هذا الجثمان الذي طالما حرك فيه مشاعر غريبة لم يتمالك ان انحدرت دمعتان من عينيه بللتا لحيته ، خسر قلباً حنونا احبه حبا صادقاً مجرداً . وتمثل له الماضي وساعات الانس التي قضاها قرب صبح بعيداً عن مشاغل القصر وعن المؤتمرات والملابسات السياسية . فهذا الماضي تلاشى وتبدد مثلما تبدد الريح الغمام . صفحة من حياته قد طويت الى الابد ولن يعيد قراءتها منذ الآن .

تلك مشيئة الله ارادت ان تحرمه هذا القلب الطاهر ولا اعتراض على مشيئته فردد هذه الكلمات :

« الحمـد لله الذي جعل الموت حتما من حكمه واجرى الامور على مشيئته ، واستأثر بالملكوت واذل خلقه بالفناء

تبارك اسمه » .

٢

وخلا الجو للناصر بعد استيلائه على قلعة ببشتر ونجاته من الهم القديم المتعاقب ، ابن حفصون ، فأطلق على نفسه اسم امير المؤمنين ولقب « الناصر لدين الله سنة ٩٢٩ مسيحية فخاطب الناس بما نصه :

« اما بعد فأنا احق من استوفى حقه واجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله مـا ألبسه للذي فضلنا به ، واظهر اثرتنا فيه ورفع سلطاننا اليه ويسّر على ايدينا ادراكه ، وسهّل بنـا وبدولتنا مرامه ، وللذي اشاد في الآفاق من ذكرنا وعلو امرنا واعلن من رجاء العالمين بنا ، واعاد من انحرافهم الينا واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله ولي النعمة والانعام بمـا انعم به ، واهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينـا ان تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنـا وورودها الينا كذلك ، اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه . وعلمنا ان التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق ضيعناه . واسم ثابت اسقطناه . فأمر الخطيب بموضعك ان يقول به وأجر مخاطبتك لنا عليه ان شاء الله » .

فقال شاعره ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد يمدحه بهذه الأبيات :

« يا ابن الخلائف والعلى المعتلي   والجود يعرف فضله المفضـل
نوهت بالخلفاء بـل اخملتهم   حتى كأن نبيلهم لم ينبـل

اذكرت بل انسيت ما ذكر الأولى — من فعلهم فكأنه لم يفعل
واتيت آخرهم وشارك فائت — للآخرين ومدرك للأول
الآن سميت الخلافة باسمها — كالبدر يقرن بالسماك الأعزل
تأبى فعالك ان تقر لآخر — منهم وجودك ان يكون لأول

ومدحه اسماعيل بن بدر الكاتب بهذه القصيدة :

ه لطفت انامله بعقرب صدغه — عمداً ليلدغ في فؤاد العاشق
وكأن شاربه هلال طالع — قد خطه بالمسك احذق حاذق
وكأنما بجبينه شمس الضحى — قد قنعت بظلام ليل غاسق
وكأن وجنته ازاهر روضة — يبأى بها السوسان فوق شقائق
فاذا تلفت قلت صورة دمية — واذا تبسم قلت خطفة بارق
يا غاية الحسن الذي هو غايتي — كيف احتمالي في فؤاد خافق
حكم الاله بما تراه فما ارى — من حيلة في دفع حكم الخالق
قل للخليفة من امية والذي — ما دون فيض نواله من عائق
انسيت من منصورها ورشيدها — وفضحت من مهديها والواثق
وحكيت من عبد المليك وهديه — سيا الخليفة والامام الباسق
أأصبح بعد مواثق لك حجة — فيما مضى اكدتها بمواثق

ونتساءل عن الدوافع التي حملت عبد الرحمن الناصر ليطلق على نفسه لقب امير المؤمنين بعد مرور سبع عشرة سنة على توليه الامارة .

اراد ان يثبت لرعاياه ان سلطته ترسخت ولم يعد بمقدور اي ثائر منافسته داخل حدود مملكته دون تعرضه للعقاب الصارم . اصبح سيد الاندلس من قرطبة الى البحر الابيض المتوسط ، فردم اوكار الثورة في هاتيك الاصقاع ، ولم يعد من مكان الى اتفاقات مجحفة بحق قرطبة مثل التي عقدها الامير عبد الله مع الثوار . بقي عليه فرض هيبته في مملكته حتى يتمكن من القيام بغارات على

ﻻعدائه الملوك المسيحيين في الشمال والفاطميين في افريقيا .

ومن جهة اخرى يرى عبد الرحمن ان الدولة الاموية احق بالخلافة من العباسيين في بغداد ومن اسياد افريقيا الجدد، اجل هو احق من جميعهم فقد عرف الامويون ، وهومنهم ، كيف ينقلون سلطتهم من دمشق الى قرطبة رغم الصعوبات والمخاطر التي اعترضت سبيلهم .

الا ان هذا القرار لم يحدث اي صدى في العالم من الناحية العملية فعبد الرحمن لم يكن الاول في قطع العلاقات الواهية التي تربط بمجموعة كبيرة من المؤمنين في امة ماتت وحدتها منذ زمان بعيد، لما نصب عبيد الله الشيعي خليفة هازئاً بخليفة بغداد . وقد يكون هذا الصنيع من قبل عبيدالله الشيعي قوى عبد الرحمن على قطع علاقاته نهائياً مع بغداد . فقبل سنة ٩٢٩ كان الامراء في الاندلس لا يجسرون على تسمية انفسهم اكثر من ملوك او امراء او « بنو الخلائف » ليبرروا حقوقهم في الامارة ، وعبد الرحمن الثاني لم يتخذ سوى لقب أمير . ولكن بعد تسمية عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة في قرطبة شرع الامراء بعده يستعملون نعوتاً وألقاباً مثل التي يستعملها اسياد بغداد والقيروان مقتفين بذلك اثر عبد الرحمن الناصر اول خليفة على قرطبة .

النتيجة التي يتوخاها الناصر تقوية سلطته الروحية ، فسلطة الخليفة غير سلطة الأمير ، فهو السيد المطلق ولا مرد لحكمه ، والحاجز الذي يفصل الأمير عن رعيته قد تحول الى سد منيع لا يمكن اجتيازه ، فالخليفة لا يتصل مباشرة مع رعاياه ليسمع شكواهم ومظالمهم ، اصبح شخصاً تكتنفه الاسرار وضفرت على رأسه هالة من الاجلال والاعتبار يشاهده الناس في مناسبات قليلة ولا تشاهده سوى طبقة خاصة من المقربين .

وهكذا فان شخص عبدالرحمن اخذ يرتدي هيبة في نفوس رعاياه فيحكم على هواه ويتحكم في مصير الاندلس .

شاء ان يزرع هذه الهيبة في قلوب جيرانه الملوك المسيحيين في الشمال الذين

كلما سنحت لهم الفرصة او وجدوا سيد قرطبة في شغل شاغل عنهم بشنون الغارات على تخوم مملكته فيقتلون وينهبون ويسبون ، كما فعل اردون الثاني Ordono II اذ توجه سنة ٩١٣ بجيش لجب قوامه ثلاثون الف رجل الى يابره (Evora) مقر الوالي مروان بن عبدالملك ، وابتدأ في حصار المدينة القليلة التحصين، ومع ذلك قاوم اهلها ببسالة ولكنها سقطت بيد اردون المذكور فاعمل فيها مذبحة فظيعة اذ قتل الوالي وسبعمائة من رجال الحامية وقفل عائداً الى غليشيه ومعه اربعة آلاف من الاطفال والنساء السبايا ، وكرر الغزوة في نواحي اخرى على الحدود . وما كان ليجرؤ على هذا العمل لولا يقينه من انشغال عبدالرحمن في اعمال التهدئة في مملكته حيث يفرغ لها كل قواه ولا يقوى بالتالي على الحرب على جبهتين، ان اردون كان يجهل نفسية عبدالرحمن وروحه العربية الأبية التي ترى في السكوت عن الهضيمة هضيمتين ، والحجر يرد من حيث جاء والبادىء بالظلم اظلم . فلا بد من اعطاء اردون الثاني درساً يذكره مدى الحياة حتى لا تسول له نفسه مرة اخرى مهاجمة الاسد في عرينه .

ابتدأت حروب عبدالرحمن الناصر مع الملوك المسيحيين في الشمال من شبه الجزيرة سنة ٩١٦ مسيحية كما سنرى .

٣

الممالك المسيحية في الشمال

قبل الشروع في الكلام عن حروب عبدالرحمن الناصر مع الملوك المسيحيين المرابطين في الشمال يجدر بنا ان نسوق كلمــــة عن تاريخ هذه الممالك المسيحية ونشأتها .

وصل العرب الى اسبانيا سنة ٧١١ مسيحية بقيادة طارق بن زياد وبجيش لا يزيد عن اثني عشر الف رجل . وكان يحكم اسبانيا آنذاك ملك من القوط اسمه لذريق (Rodrigo) وعاصمته طليطلة ، فالتقى الفريقان عند وادي لكه (Guadalete) فانهزم جيش القوط شر هزيمة بعد قتال دام ثمانية ايام ، امـا لذريق فلم يعثر له على اثر .

كانت المعركة الفاصلة في فتح الاندلس مثل معركتي اليرموك والقادسية في الشرق . اخذ العرب يتوغلون في اسبانيا دون ان يلاقوا مقاومة تذكر ، فسقطت المدن الاندلسية الواحدة تلو الاخرى ، وفي سنتين سيطر العرب سيطرة كاملة على شبه الجزيرة الابرية . واقام الاسبان ثمانية اجيال بعد ذلك حتى توصلوا الى استرداد بلادهم من أيدي العرب سنة ١٤٩٢ ، لما استسلم ابو عبدالله ملك غرناطة للملكين الكاثوليكيين : الملكة ايزابيل والملك دون فرنندو .

يرجع عهد الاسترداد الى أوائل الفتح العربي في المناطق الشمالية النائيـــة

الواقعة على بحر القنطبريك وتسمى قانطبريه ، يسكنها أناس عظماء يسمون
دوقيش (Duques) ونشأ بينهم نزاع وخلاف اوجب فراق احد اولئك الرؤساء
عنها واسمه بلايه (Pelayo) ابن الدرق فـافيله (Favila) وسكن بارض
اسطوريش وهي بين ارض ليون وغليسيه . فلما جاز العرب الى الاندلس على
عهد الوليد بن عبدالملك وفتح الارض الاسبانيـة طارق بن زياد مولى موسى
ابن نصير واستولى المسلمون على اكثر بلاد الاندلس وصل الفتح الى ارض اشطوريش
حيث كان بلايو المقدم الذكر .

اتصل هذا بوالي جيجون واقام وإياه على اتفاق فبعثه الى قرطبة مع وفد ،
فتوجه اليها وترك اختا له في غاية الجمال شغف بها والي المدينة المذكور وضمها الى
حريمه ، فلما رجع بلايه من الاندلس لم يرضه هـذا التصرف من قبل الوالي تجاه
شقيقته ، لماذا لم يطلب يدها من اخيها ويتزوجها على سنة الله ورسوله ؟ ، طرح
الصوت في تلك الاصقاع معلناً الثورة على العرب الفاتحين فاجتمع اليه طائفة من
الرجال غير كثيرة العدد .

وصل الى العرب نبأ قيـام ثورة في اشطوريش فطلب الوالي المساعدة لقمع
الفتنة ، فبعثوا القـائد علقمة ومطران اشبيلية عباس ابن الملك غيطشة فحاول
عباس عبثاً الكلام مع بلايه لاقناعه في العدول عن ثورته ولكن هذا التجأ الى
الجبال مع ثلاثمائة من رجاله فضيق عليهم العرب الحصار ولم يتركوا لهم فرصة
استراحة حتى اماتوهم جوعاً ولم يبق مع بلايه سوى ثلاثين رجلاً وعشر نساء ،
فاعتقد العرب انهم لا يلبثون ان يموتوا جوعاً عنـد اشتداد البرد في تلك الجبال
فتركوهم وشأنهم لزعمهم انهم ، ثلاثون حماراً وحشياً لا يعبأ بهم . وهذا التهامل
جعل هـــذه الحمير الوحشية ان تشكل النواة التي استردت اسبانيا جميعها من
العرب .

صار ساعده يشتد شيئاً فشيئاً فحمى جبهة اشطوريش ، واتفق اهل تلك الجهات
على تقديمه ملكاً عليهم لاستحقاقه ذلك بنفسه وان كان غريبـــاً عنهم ، ولم

بتجامران يبتعد كثيراً عن تلك المنطقة فجعل عاصمته في قرية صغيرة اسمها كانجا دي ارنيس Canga De Onis وهو اول من تسمى ملكاً بعد دخول العرب ، مات سنة ٧٣٧ مسيحية .

وملك بعده ابن له يسمى فافيلة Favila ٧٣٧ – ٧٣٩ وتمادى ملكه عامين ثم قتله دب تعرض له في الصيد ولم يحذره فاتى عليه ودفن مع زوجته فرويله في كنيسة صغيرة بالعاصمة الاشتورية .

وولي الملك بعده صهرله من بيته وارضه اسمه دون الفونسو (Don Alfonso) ابن الدوق بطره (Don Pedro) من اهل قانطابريه كان قد وصل من تلك الاراضي لزيارة ام بلايه فاكرمه وزوّجه ابنته ارمسنده (Ermesinda) وبه يبتدىء عملياً عهد الاسترداد ، فجمع بين مركزي المقاومة اسطوريش من جهة وقنطبرية من جهة ثانية لانه كان ابن والي هذه المنطقة من طليطلة واسمه بطره (Pedro) دوق قانطبريه. دام ملكه ثمانية عشر عاماً وكان يعرف بالكاثوليكي. وساعدته الفوضى السائدة آنذاك في الممالك العربية وتمرد البربر وحروبهم واندحاراتهم الثلاثة مع بلج القشيري والمجاعة التي وقعت سنة ٧٥٠ مسيحية ، كل هذا حملهم على ترك غاليثيا (Galicia) والرجوع الى المغرب ، فاستولى الفنس الاول (Alfonso I) على هذه الاراضي وانحدر من اعالي جباله الى ليون (Leon) وبسط سيادته على استرقه وشمالي البرتقال وسموره (Zamora) وسلمنقه (Salamanca) وسانت منكش (Simancas) وافليه (Avila)

وكان يحكم في قرطبة يوسف الفهري وشغلته الحروب الداخلية عن استرجاع هذه القلاع المحتلة .

وخلف الفونس الاول ابنه فرويله الاول (Fruela I) ٧٥٧ – ٧٦٨، طرد البربر من غليسيه (Galicia) واسس مدينة اوفيده (Oviedo) وجعلها عاصمته. اغتاله الاشراف لانه قتل اخاه . وفي ايامه دخل الاندلس عبد الرحمن بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل او عبد الرحمن الاول .

وبعد قتله ملــك اخوه اريله (Aurelio) فاستولى على ارض اشطوريس (Asturias) التي منها ارضه وعلى ارض غليسيه والبرتقـــال وقسم من ليون .
مدته ست سنوات .

ثم هلك وولي اخوه شيلو (Silo) ثماني سنوات .

ثم ولي بعده اخوه دون الفونس الملقب بالعفيف وهو ابن فرويله (Fruela) فثار عليه عم له اسمه موريغاطه (Mauregato) وهو ابن غير شرعي لالفونس الاول من امرأة عربية توصل الى العرش بمساعدة العرب الذين أنجدوه بعد ان وعـدهم بدفع جزية لهم ، مائة فتاة عذراء . ملك خمس سنوات .

ثم ولي بعد هذا الخـالع قريب له تغلب اسمه برموده (Bermudo) وكان اول أمره قساً وملك ست سنين . ثم تنازل عن الملك بعد اندحاره المخزي امام العرب في معركة بربه (Beruba) ، لصالح نسيبه الفونس الثاني المخـلوع فظل حتى سنة ٨٤٢ ، وكان يملك على اسبانيـا العربية في ايامه هشام الاول والحكم الاول وعبد الرحمن الثاني ، على ايامه تم اكتشاف قبر سانت يعقوب الرسول . انتزع ليشبونه من العرب .

ثم جاء بعده راميرِ الاول بن برموده الراهب ٨٤٢ – ٨٥٠ طرد الاردمانيين Normandos إذ أحرق لهم ستون باخرة .

ثم ظهر اردون الاول (Ordono I) ابنــه ملك ست عشرة سنة ٨٥٠ – ٨٦٦ أعاد بناء ليون واسترقه ، وقهر الاردمانيين ايضاً .

ثم ظهر الفونس الثالث الكبير ٨٦٦ – ٩٠٩ وولي صغير السن وعظم ملكه واتسعت مملكته وهو الذي نقل دار ملك ابيه الى ليون وتسمى ملك ليون وتزوج خمنا (Jimena) ملكة نبره وجرت بينه وبـيـن المنذر وقائع الى ان هادنه لان المنذر أراد ان يتفرغ لمحاربة الثائر عمر بن حفصون .

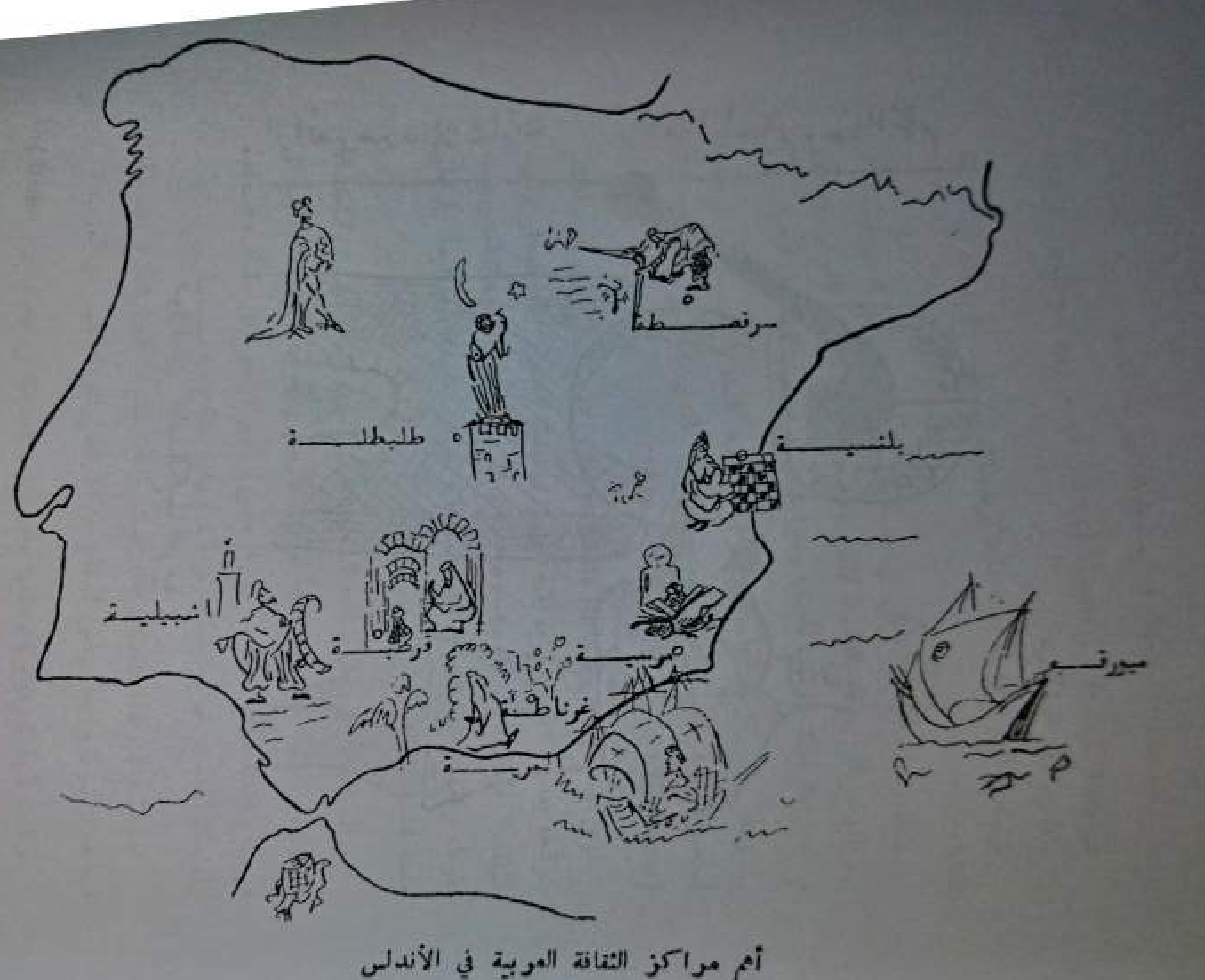
وعند موته تقاسم ابناؤه الثلاثة ملكه :



الناصر يستقبل طوطة ملكة نباره وحفيدها دون شانجه



ساحة في قرطبة



أهم مراكز الثقافة العربية في الأندلس



صورة عن كتاب الكيميا العربية

غرسيه (Garcia) ملك في ليون طيلة خمس سنوات .

اردون الثاني : ملك في غليسيه ٩١٤ – ٩٢٤ حروبه مع الناصر في شان اشنيبان ووادي جونكيره .

فروله الثاني: ٩٢٤ – ٩٢٥ مات بمرض الجذام بعد ان وحد الممالك الثلاث من جديد .

يختلف اولاد اردون الثاني على الحكم ، يتغلب احدهم وهو الفنس فيتخذ له اسم الفونس الرابع ابن اردون الثاني ٩٢٥ – ٩٣٠ يتخلى عن العرش وينزوي في الدير بعد موت زوجته فأصابه وسواس من جراء موتها ؛ يتنازل لأخيه .

ردمير الثاني (Ramiro II) ٩٣١ – ٩٥١ كانت له مع عبد الرحمن الناصر حروب عديدة منها شانت منقش ، الخندق ٩٣٩ (Alhandega Simancas) .

وفي ايامه ثار قمص قشطالة(Conde) فغلبه ردمير الثاني وحبسه ثم أطلق سراحه بعد ان أخذ منه يمين الاخلاص وزوجه ابنة القمص. ولده البكر اردون الثالث ، فهذا ملك سنة ٩٥٠-٩٥٥ وكان ينازعه على الملك اخوه شانجه وجدته طوطه والقمص غنصالس صاحب قشطالة ، غير انه تغلب عليهم جميعاً ولم تطل مدته فمات سنة ٩٥٥ .

خلفه اخوه ومزاحمه شانجه السمين ، استاء منه اشراف ليون وقشطالة لكبريائه وادعائه فخلعوه فالتجأ الى نبـاره قرب جدته طوطه وذهب الى قرطبة برفقتها طالباً مساعدة عبد الرحمن الناصر للرجوع الى ملكه فساعده وامتدت ايامه الى ما بعد خليفة قرطبة ، مات سنة ٩٦٧ مسيحية .

اما قشطالة (Castilla) فقد سميت كذلك نظراً لكثرة القلاع التي بناها فيها ملوك ليون واسطورياس للدفاع عن الاراضي التي احتلها من العرب .

وكانت تابعة لليون وكان عليها قامصة (Condes) منهم نونيو (Nuno)

ثم ردريك ثم دياغ ثم غنسالو فرنندس (Gonzalo Fernandez) وفي هذا
العهد نشأ شتات واختلاف اوجب اقتطاع البلاد القشطالية عن ملك ليون
فقدم اهلها على انفسهم رجلين من القضاة ، وتغلب القضاة وسالموا ملك ليون على
ان يخدموه بثلاثمائة فارس متى احتاج لذلك فقبل لذلك منهم وقنع بطاعتهم .
وكان احدهما يسمى نونيو رجوره (NunoRasura) والآخر لين كالبو
(Lain Calvo) ومن نونيو رجوره ينحدر ملوك قشطالة .

وعندما كثرت الاراضي واتسعت عين ملوك ليون اربعة قامصة على
الاقل ، ودعا اردون الثاني ملك ليون اربعة منهم وقتلهم لأنهم لم يساعدوه في
معركة وادي جنكيره ضد عبد الرحمن الناصر كما سيأتي .

ومن جملة القمامصة على قشطالة فرنان غنصالس (Fernan Gonzalez)
ابن القمص غنصاله فرندس، اجتاح عبد الرحمن الثالث الناصر ارضه فانتقم منه
بمساعدة ردمير الثاني في معركة سانت منقس والخندق .

ثم ثار على ردمير الثاني لأنه رفض ان يعطيه الاستقلال فغلبه ردمير ولما
مات هذا سنة ٩٥١ طلب من صهره اردون الثالث الاستقلال. ولما رفض سانشو
سانجه السمين ولما رفض هذا بدوره الاستقلال لقشطاله عمل على خلع هذا
وتنصيب اردون الرابع مكانه وهذا اعترف باستقلال قشطاله مكافأة للقمص
فران غنصالس .

اما نباره (Navarra) بلاد البشكنس (Vascos) فعلى ما يظهر انها
كانت منظمة على شكل قبائل لا تريد ان تخضع لأي سلطة كانت غريبة عنهم
قبل الفتح العربي كما بعده .

وبالرغم من ان العرب احتلوا عاصمتهم بنبلونه على ايام عقبة الا انهم لم
يستطيعوا السيطرة عليهم تماماً ، تغلبوا بعد ذلك على يوسف الفهري .
وعلى ايام عبد الرحمن الأول الداخل اجتاز قارله سلطان الفرنجة اسبانيا

وفي رجوعه الى بلاده دمر بنبلونه ، فانتقم منه البشكنس بأن ابادوا مؤخرة جيشه في محلة رونسيفال (Roncevalles) سنة ٧٧٨ مسيحية .

وعلى ما يظهر ان تاريخ ملوك نباره ابتدأ في القرن التاسع نذكر منهم انيج ثم غرسيه ثم فورتون (Fortun) ثم سانجه ٩٠٥ – ٩٢٥ قهره عبد الرحمن الناصر مع اردون الثاني في معركة وادي جنكيره سنة ٩٢٠ .

ثم جـاء بعده غرسيه سانتس الاول ٩٢٥ – ٩٧٠ ، كانت امه وصية على العرش وهي طوطه ، قام الابن والام برحلة الى قرطبة طلبا لمساعدة الناصر كي يرد حفيدها سانجه السمين الى مملكة ليون المغتصبة منه .

العرب	اشطوريس وليون	قشطالة	نبار
— ٧٨٨ ابتدأ في بنـــاء جامع قرطبة خلفه ابنه .	اربليه شيلو موريقاطه وبرموده الاول سموهم الملوك الغاصبين آخرهم تنازل لـ		قهروا الافرنج في رونسيفال، ملوكهم: انيجه اريستا
هشام الاول ٧٨٨-٧٩٦، تابع بناء الجامع ، قهره الفنس الثاني في معركة لوطش .		قماصة	
الحـــكم الاول ٧٩٦ — ٨٢٢ ابن هشام .	الفونس الثاني العفيف ٧٩١ — ٨٤٢		
عبد الرحمن الثاني ٨٢٨ — ٨٥٢ جمّل مدينة قرطبة .		للمريق	غرسيه — فرتون غرسيه سانجه ٩٠٥-٩٢٥ غلبه الناصر في وادي جنكيره .
محمد الاول ٨٥٢ — ٨٦٦ .			
المنذر وعبدالله ٨٦٦ — ٩١٢ .			
عبد الرحمن الثـــالث الناصر ٩١٢ — ٩٦١ غلب ملكي ليون ونباره في معركة وادي جنكيره غلبه ردمير الثـــاني في معركة سانت منقاس التصر في معركة الخندق .	ردمير الاول ٨٤٢ - ٨٥٠ اردون الاول ٨٥٠ — ٨٦٦ الفنس الثالث الكبير ٨٦٦ — ٩١٠ اردون الثاني ٩١٤ — ٩٢٤ [illegible] معركة وادي جنكيره	قران غونصالس	

العرب	اشطوريس وليون	قشطالة	نباره
امارة تابعة لدمشق ٧١١ – ٧٥٦ طارق بن زياد قهر لذريق ملك القوط في معركة وادي لكه ٧١١	بعض اشراف القوط وصلوا في هربهم الى اشطوريش ونصبوا بلايه ملكا عليهم		بلاد الباشكنس قبائل كانت تقاوم كل تدخل اجنبي قبل العرب وبعدهم .
– موسى بن نصير توجه الى اسبانيا وتابع الفتح الى جانب طارق. دعاه الخليفة الى دمشق.	غلب العرب في معركة كوفادنغا (٧١٨) . خلفه ابنه فافيله قتله دب .		
– عبد العزيز بن موسى تزوج ارملة لذريق ، أمر الخليفة بقتله. – الحر ابتدأ باحتلال فرنسا .		سميت قشطالة لكثرة القلاع فيها .	
خسر قائده علقمه معركة كوفادنغا (٧١٨) . – السمح وعنبسة وعبد الرحمن الغافقي يواصلون احتلال فرنسا عبد الرحمن خسر معركة بواتيه سنة ٧٣٢ .	الفنس الاول الكاثوليكي ٧٣٩ – ٧٥٦		
امارة مستقلة عبد الرحمن الاول الداخل ٧٥٦	فرويله الاول ابن السابق ٧٥٦ – ٧٦٨ .	كان يحكمها رجال عسكريون وتابعون لليون	

٤

اقبل صيف سنة ٩١٦ فخرج القائد احمد بن محمد بن ابي عبدة من قرطبة على رأس جيش قوي بأمر من عبد الرحمن وجال جولة موفقة في اراضي ليون .

وفي الصيف التالي قام بحملة اخرى على قصد ان يقصي العدو عن المراكز الحصينة التي يحتلها في وادي الدويره (Duero) مثل كستر مرش (Esteban de Gormaz) فهاجم هذه القلعة بقوات من المجاهدين جاءوا من شمالي افريقيا الى اسبانيا للجهاد المقدس .

تم الاصطدام مع العدو في ٤ سبتمبر ٩١٧ ولحقت الهزيمة بالعرب ، فلما رأى القائد الأموي ان لا طاقة له على المقاومة وان الانتصار قد فلت من يديه فضل الموت على الفرار فاندفع الى حومة القتال فتناهشته حراب العدو .

عاد اردون الثاني غانماً ظافراً الى ليون بعد ان صلب جثة القائد العربي الى جانب رأس خنزير بري .

استطاعت فلول الجيش العربي المنهزم ان تلم شعثها في ظل اسوار طلبيرة (Talavera) وعادت الى قرطبة .

لم يفل هذا الاندحار من عزيمة عبدالرحمن بل زاده عناداً في توجيه ضربة قاضية لاردون الثاني لا تبقي ولا تذر .

شعر ملك ليون بالخطر المحدق به فلم يقف مكتوف الأيدي مستسلماً الى مشيئة القدر فعقد حلفاً مع ملك نباره شانجه غرسيه (Sancho Garcia) .

لم يعبأ عبدالرحمن بهذا التحالف فأرسل حاجبه بدر بن احمد الى ارض ليون ، وفي الصيف المقبل ارسل القائد اسحق بن محمد القرشي مرة اخرى الى اراضي اشطوريش وليون فدحر قوات اردون الثاني في عقر داره .

لم يكتف الناصر بهذين الانتصارين فانه ما اشفى غليله بعد من الهزيمة التي اصابت جنوده في كستر مرش والمعاملة الوحشية التي عوملت بها جثة قائده احمد بن عبده ، فقرر ان يقود هذه المرة الجيوش بنفسه .

كانت هذه الحملة في صيف ٩٢٠ كما يرويها عريب بن سعد يقول :

« خرج الناصر من قرطبة في ٥ يونيو متوجهاً الى طليطلة وبعد اربعة ايام وصل الى وادي آنة في مكان اسمه « مخاضة الفتح » وهناك تلقى نبأ ابهجه وذلك ان والي وادي الحجارة (Guadalajara) اخبره عن غزوة قام بها جيش ليون ضد هذه المدينة وارتد على اعقابه خاسراً مهزوماً .

وصل الى طليطلة ثم تابع سيره الى وادي الحجارة ثم مدينة سالم حتى بلغ البه Alava ودخل قلعة اسمه (Osma) ونهبها .

وفي اليوم التالي ٩ يوليو ١٨ صفر توجه إلى قلعة كستر مرش (Esteban de Gormaz) التي مات عند اسوارها القائد العربي الكبير ابن ابي عبده لثلاث سنوات خلت ، فاحتل الحصن بدون مقاومة لان المدافعين عنه تركوه ، فهدمه عبدالرحمن وتابع السير حتى وصل الى القلعة الرومانية قلنيه (Clunia) فلم يجد مقاومة فراح يهدم القلاع والحصون ويدك الاسوار وينهب ويسلب وليس من رادع يردعه ، لقد انتقم خير انتقام للهزيمة التي لحقت بجنوده عام ٩١٧ .

ومع هذا فلم يشأ ان يتخلى عن الفتح الذي لم يكلفه اراقة نقطة دماء فوجه قواته نحو نباره (Navarra) ليعاقب ملك بنبلونه الذي كان يزعج جيرانه

المسلمين المقيمين في تطيله (Tudela) فطلب من محمد بن عبدالله بن لب آخر حكام بني قاسي ان يحتل قلعة كاركار (Carcar) فعمل ما امره دون صعوبة تذكر بينما كان عبدالرحمن بدوره يحتل قلعة الطره (Calahorra) .

ولما علم ملك نباره شانجه غرسيه بتوجه عبد الرحمن الثالث الى بنبلونه اسرع في ذهابه الى الشمال واستطاع ان يتصل باردون الثاني القادم لمساعدته ، وحاول الربفيون اعاقة تقدم القوات العربية فلم يتوصلوا الى مرامهم وتمكن سيد قرطبة بدون خسائر تذكر مع جمع قواته في وادي جنكيره (Valde Junquera) حيث جرت المعركة الشهيرة المعروفة بهذا الاسم في ٢٦ تموز /يوليو ٩٢٠.

وكما اشرنا طلب شانجه مساعدة اردون ضد العدو المشترك القادم من الجنوب. فتجمعت قوات الحليفين وقررت الالتجاء الى مناعة الجبال للانقضاض على القرطبيين عندما تسنح لهم الفرصة حتى تظل القوات العربية مهددة بالخطر.

وعبد الرحمن لم يشأ ان يصيبه ما اصاب كارله سلطان الفرنجة في ممر رونسيفال (Roncesvalles) فعسكر في منطقة غير بعيدة عن بنبلونة تسمى وادي جنكيره كما اشرنا سابقاً منتظراً هبوط القوات المسيحية من الجبال .

وكان شانجة ملك نباره واردون ملك ليون شجاعين اكثر منهما فطنين فخرجا من معاقلهما في الجبال للانقضاض على الجيش القرطبي العالي المعنويات والكثير العدد والعدد بفضل من انضم اليه من قوات سورية ومصرية وافريقية تركت الفاطميين في افريقيا وجاءت لتحارب الى جانب الأمويين .

وجميع هؤلاء المحاربين من الخيالة لأنه من العار على المسلم العريق في النسب ان يقاتل راجلا ، الا اذا اضطرته الظروف الى ذلك ، وفي عسكر عبد الرحمن تكثر المشاة ايضا واكثرهم من اليهود والمعاهدين والصقالبة ومهمتهم تنحصر في الدفاع عن المعسكر اذا قام عليه هجوم من قبل خيالة العدو ، وفي اوقات الاستراحة يخدم المشاة الخيالة ومهمتهم ايضا نصب الخيام والحصاد وتحويل مياه

الانهر حتى تستطيع فرق الخيالة ان تمر باكثر سهولة وتعبيد الطرقـات في الاراضي الوعرة وسوق القطيع الى المراعي ، وجميع هذه الاعمال سميت بعد ذلك بالأعمال الهندسية .

واكثر الجند في الاندلس ان يكون لكل جندي فرس يركبه وفرس يركبه الذي يحمل سلاحه ، ويكون فارس الاندلس مدرعاً واعتماده على الرمح الغليظ الطويل والترس على عادة النصارى الذين يقاتلون بترس ولا رمح طويل غليظ بل بالسيوف والرماح الخفيفة ويكون لهم بدل الترس درق تصنع في المغرب من جلد حيوان يعرف باللمط تنبو عنها السيوف والرمـاح . والفارس الاندلسي يثقله الترس والرمح الطويل الثقيل والدرع فلا يستطيع التصرف وانما يحرص على الثبات وان يكون مثل الجوشن على فرسه وربما كان له في السرج مخاطيف يتشبها في وسطه حتى لا يسقط اذا طعن وسروج جند الاندلس عالية المؤخرة حفظاً من الطعن وركاب الاندلسي طويل .

وتقع خيمة عبد الرحمن في وسط الجيش على مرتفع يشرف على الوادي ، ومنها يستطيع ان يراقب حركات العدو المنحدر من اوكاره بهتافات المؤمن بانتصار قريب .

فراح سيد قرطبة يتجول بين الخيـام ويحث الهمم ويتفقد السلاح والجندي العربي يضع الخوذة تحت العمامة ويلبس الدرع تحت الثياب .

وبعد ان تفقد احوال الجيش جمع القواد وذكرهم بالقواعد العسكرية وبالصفات التي يجب ان يتحلى بها المحارب العربي « فلتكن يدكم شديدة في المعركة وقلبكم لا يرحم ، واذا استسلم العدو تجنبوا كل قساوة ، لا تهينوا الاسرى ، الحيلة والخداع تجوزان فقط طيلة القتال . »

وبينا يتكلم عبد الرحمن وصلت الى مسامعه انباء هبوط الملكين المسيحيين من مواقعهم الجبلية للقتال فأمر رجاله بالتوجه لملاقاتهم وامتزجت الاصوات

بالاصوات وعلا الضجيج كانهم في يوم الحشر .

ويتألف جيش عبد الرحمن الناصر من خمسة اقسام مثل اصابع اليد : المقدمة ، الميمنة ، الميسرة ، القلب ، والمؤخرة . خرجت المقدمة من المعسكر وقوامها ستة آلاف رجل من البربر ثم ينتظر في ساحة القتال قلب الجيش ، أما المؤخرة فمؤلفة من اربعة آلاف رجل ثم المشاة ، وسار الامير في قلب الجيش والى جانبه ضابط يحمل العلم الاخضر ، وامتلأت الوادي بالصراخ وهتافات الحروب وبريق وصليل السلاح .

ترك عبد الرحمن قلب الجيش وتقدم بجواده حومة القتال فشاهد تدفق الخيالة المسيحية التي أخذت تلتطم ضد الصخرة الحية من المحاربين العرب ، كان يعجب بها ويرثي لحالها عندما يراها بعددها الضئيل تريد ايقاف زحفه نحو اراضيها غير حاسبة حساباً للعدد الزاخر الذي يصل من الجنوب بدون انقطاع.

ويبتسم من قصر نظر اردون ملك ليون وشانجه ملك نباره ويتأثر في الوقت نفسه لانه يعجب بالشجاعة اينما كانت فأبصر من ذلك المرتفع جولات الاعداء فأمر فرسانه العرب بالخروج لملاقاة المهاجمين ويتقدم بسرعة الى قلب المعركة مع جناحيه على شكل مروحة بقصد تطويق الجيش الاسباني اذا حاول مغادرة الجبل المتحصن به ، واصطفت المؤخرة وراء الامير والمشاة مستعدون اذا اقتضى الامر ان يصدوا بصدورهم العدو اذا لا سمح الله استطاع ان يتغلب على الخيالة .

أخذ سيل من السهام والحجارة ينصب على صفوف القرطبيين من المعسكر المسيحي ولكن هذا السلاح لا يؤثر على الخوذة والدرع ، فقد كانت بعض صيحات الالم تنطلق من الصدور كما لو كانت آتية من وحش جريح ، فصعد المشاة العرب الى الهضبة وأجابوا على رمي القسي .

تحولت معركة وادي جونكيره الى هزيمة نكراء لجيوش ليون ونباره متجمعة ، والخيالة المسيحيون المطوقون سقطوا قتلى واسرى ، والفلول من

جيوش اردون وشانجه التجأت الى الجبال تحت ستار الليل .

ويقول التاريخ ، بعد مرور ست سنوات على ارتقاء دون اردون العرش ، كان عبد الرحمن في قرطبة قد بسط سيطرته ومد نفوذه وخرج بفرسان كثيرو العدد جاء بهم من وراء البحار ، مدربون على القتال ، وتقدم نحو نجره ، (Najira) ولما سمع الملك دون غرسيه من نباره بهذا الخبر بعث يطلب النجدة من الملك اردون الثاني لانه وحده لا يتجاسر على مجابهة تلك القوة العربية الجبارة. فأرسل له المساعدة المطلوبة وذهب لملاقات العرب فتصادما في مكان يسمى وادي جونكيره ومات كثير من المسيحيين بسبب خطاياهم واسر اسقفان الواحد اسمه دلسيديه (Dulcidio) اسقف سلمنكا والآخر ارجيه (Ermogeo) اسقف توي (Tuy) .

ان قلب عبدالرحمن يصبح جواداً عندما يتوقف القتال وجميع الذين أسروا في معركة جنكيره شهدوا له بذلك واطلق سراحهم فيما بعد .

اما الذين هربوا من المعركة والتجأوا الى قلعة مويز (Muez) ولم يستسلموا رغم نداءات الامير المتوالية بل ظلوا يقاتلون بضراوة وينزلون الخسائر في قوات الامير وعندما تسلقت هذه القوات الاسوار في هجوم يائس تحت قيادة عبدالرحمن لم يعد من مجال للرحمة فمات خمسمائة من القماصة والفرسان المدافعين عن القلعة .

وفي السنوات القليلة التي تلت قام اردون الثاني بحملات موفقة على المراكز العربيـة واحتل ناجره (Najira) بينما حليفه شانجه الاول يهاجم بني قاسي في قلعة بقيره (Baquera) .

عيل صبر عبدالرحمن فعزم على مهاجمة النباري في عقر داره ولاسيما بعد ان تأكد له موت اردون الثاني ، وخلفه اخوه فرويله الثاني (Fruela II) الذي لا يخشى له شر .

خرج الناصر من عاصمته في ٢٧ نيسان ابريل سنة ٩٢٤ مسيحية واتجه نحو

تدمير وبلنسية لاخضاع المتمردين هناك ثم توجه الى تديله (Tudela) وفي ١٠ يوليو تموز اجتاز الابره (Ebro) ودخل في اراضي نباره فهدم واحرق جميع المراكز الاستراتيجية حتى بلغ نهر اراطي (Irati) وكان شانجه مرابطاً مع قواته على الضفة الاخرى ، ودارت المعركة انهزم فيها شانجه ملك نباره تاركاً طريق بنبلونه (Pamplona) مفتوحة ، فدخلها عبدالرحمن وكان اهلها قد اجلوا عنها بسرعة فنهب بيوتها واحرقها، والكاتدرائية نفسها لم تنج من غضبه. ولم يكتف بهذا الانتصار وقرر مواصلة الزحف نحو الشمال الى القلعة العربية القديمة المسماة « صخرة قيس » ، فوصل اليها بدون مقاومة وشتت شمل الريفيين الذين جندهم شانجه غرسيه لوقف تقدم عبدالرحمن .

ورأى امير قرطبة انه قد اشفى غليله هذه المرة فقفل عائـــداً الى قرطبة ووصل اليها في القسم الاخير من شهر اغسطس آب .

فاقتنع الاشطوريون والنباريون بان لا قبل لهم على مقاتلة عبدالرحمن الناصر فأخلدوا الى السكينة طيلة السبع سنوات القادمة ، الى ان ظهر ردمير الثاني Ramiro II ٩٣١ - ٩٥١ ودشن جلوسه على العرش باحتلال مجريط (Madrid) وهرع الى مساعدة طليطلة المدينة الوحيدة التي كانت ما تزال ثائرة على الامير القرطبي غير ان الحظ لم يبسم له هذه المرة امام طليطلة اذ خرج الجيش القرطبي الذي يحاصر المدينة الى لقاء ردمير الثاني وهزمه . ولما رأى اهالي طليطلة ان المساعدة قد باءت بالفشل استسلموا لقوات الخليفة سنة ٩٣٢ كما ذكرنا .

وفي سنة ٩٣٤ وصل الناصر الى اسوار اصمه Osma فلم يخرج ملك ليون لقتاله فترك قسماً من قواتــه في محاصرة المدينة وذهب بالقسم الآخر الى برغش (Burgos) فهدمها مع غيرها من القلاع والحصون .

وفي السنة نفسها جرت مفاوضات بين ردمـــير الثاني وسيد سرقسطه ابي يحيى محمد فاحتار فيمن يطيع ، اعبد الرحمن او ردمير ؟ لان الاثنين يخطبان وده . ولمـــا طلب منه سيد قرطبة ان يأتي لمحاصرة اصمه (Osma) بادر الى

اجابة الطلب . ثم سمح له الخليفة بالرجوع الى سرقسطة (Saragoza) .

وفي هذه الاثناء قامت ثورة العرب الارستقراطيين في سرقسطة لانهم لا يريدون خسارة هيبتهم وكان على رأسهم محمد بن هاشم حاكم سرقسطة ، وهذه العائلة توارثت السيادة في شمالي اسبانيا ابا عن جـــد ، ولم يطلب منهم امراء قرطبة سوى دفع الجزية ورسالة طاعة وولاء .

طلب محمد بن هاشم مساعدة الملك ردمير الثاني ضد خليفة قرطبة مقابـل اعترافه بسيادة ملك ليون عليه ، وهو يأمل ان لا يبر بهذا الوعد ، فثار بعض الزعماء العرب على هذا الخائن ولكن هرع سيد ليون لمساعدته فاحتل القلاع الثائرة وردها له ، وكان الائتلاف الثلاثي بين ليون وسرقسطة ونباره .

لم يتحمل عبد الرحمن الناصر هـذه الخيانة فتوجه على رأس جيش عرمرم لحاصرة سرقسطه ، فوصل الى قلعة ايوب (Calatayub) وفيها حامية عربية ثائرة يشد ازرها جنود ارسلهم ردمير الثاني وعلى رأس الحامية احـــد اقرباء الثائر ابن هاشم واسمه مطـّرف فلاقى حتفه في احـدى الغارات وخلفه اخوه حسن في القيادة فوعد الناصر بتسليم القلعة اليه مقابل الصفح عنه وعن قواته العربية ، ولكن جنود ليون التي لم تدخل في المعاهدة ظلت تقاتل الى ان فنيت عن بكرة ابيها .

وسقطت ثلاثون قلعة اخرى بيد الناصر .

وفي اواخر الصيف ابتدأ بحصار مدينة سرقسطة بقيادة احمد بن اسحق القرشي ، وهـــذا الرجل يرجع اصله الى بني امية وكان يسكن في اشبيلية فاستدعاه الخليفة وانعم عليه وجعله قائداً على جنده كما أشرنا، غير انه في قرارة نفسه كان يتمنى لو يستطيع ان يوجه هذه القوات ضد عبد الرحمن نفسه ليصبح السيد المطلق،وبالحقيقة فان حصاره لسرقسطة لم يكن حصاراً إلا بالاسم فقط.

ولم يقف طموحه عند هذا الحد بل طلب الى الخليفة ان يجعله ولي العهد بدلاً

فكتب اليه الناصر بما يلي :

من الحكم وعبدالله ولدي عبد الرحمن الى الطبيع الغريزي استصلاحا لك فابى الاستحهاد اليك كنا نرى الاستحواذ عليك . فالفقر يصلحك والغنى يطغيك

واما بعد فانا كنا نرى الاستحهاد اليك استصلاحا لك فابى الطبع الغريزي الا ما استحكم منه فيك الى ان استحوذ عليك . فالفقر يصلحك والغنى يطغيك اذ لم تكن عرفته ولا تعودته ، او ليس كان ابوك فارسا من فرسان ابن حجاج الخسوم حـالا عنده وانت يومئذ نخاس الحمير باشبيلية فاقبلتم الينا فاويناكم ونصرناكم وشرفناكم وموّلناكم واستوزرنا اباك وقلدناك اعنة الخيل اجمع وفوضنا اليك امر ثغرنا الاعظم فتهاونت بالتنفيذ لنا وقلة المبالاة بنا ثم مع هـذا ، الترشيح للخلافة افبأي حسب او أي نسب ؟ وفيكم قال القائل :

انتم خثار الختار وليس خز كخيش
ان كنتم من قريش تزوجوا في قريش
او كنتم قبط مصر فذا التعاطي لايش

اليست كانت امك حمدونه الساحرة ؟ وابوك المجذوم ؟ وجـدك بواب حوثره يفتل الحبال في اسطوانة ويخيط الخلقا على باب داره ؟ فلعنك الله ولعن من انشبنا في الاستخدام بك ، فيا مأبون ويا مجذوم ويا ابن الكلب والكلبة اقبل صاغراً » .

فلما استلم احمد بن اسحق هذه الرسالة ترك المعسكر وولى هاربا مع اخيه فقطعا الشعاب والوهاد حتى وصلا الى الغرب (Algarbe) والحقد على الخليفة يتأكل فـؤاده فبث الضغائن ونصب الدسائس واتصل بالفاطميين في افريقيا وبعث اخاه الى ملك ليون لكي يوقع عبد الرحمن بـين نارين من الشمال ومن الجنوب .

وبعد اختفاء هذين القائدين من المعسكر ادرك الوالي الثائر محمد بن هاشم التجيبي ان الهجوم واقع لا محالة على المدينة فطلب الصفح والامان من الخليفة . ونال ما طلبه واكثر لان عبد الرحمن كان حليما ومن جهة اخرى كان يريد ان

يسترضي هذا الحاكم الذي لا تضاهيه قوة سوى قوة الخليفة نفسه .

وهكذا انتهت هذه الحملة سنة ٩٣٧ على احسن ما يرضاه امير قرطبة ولا سيما بعد ان اعترفت به سيدأ الملكة طوطه (Tota)الوصية على عرش نباره وان كانت هذه السيادة لم تدم طويلا لان الملكة المذكورة حاربت الى جانب ردمير الثاني ضد امير قرطبة في معركة الخندق سنة ٩٣٩ كما سنرى .

معركة الخندق او شانت منكش

في سنة ٩٣٨ مسيحية و٣٢٦هجرية اعلن الخليفة الجهاد ضد الملوك المسيحيين الذين كانوا يشنون الغارات على الاراضي الاسلامية،فحشد جيشاً جباراً استغرق استعداده سنة كاملة ، وضم حوالي مائة الف رجل انطلقت من قرطبة غرة يوليو تموز ٩٣٩ فوصلت الى سانت منقش Simancas حيث كان ينتظره ردمير الثاني بجيشه المؤلف من ليون وقشطالة ونباره بما فيه القمص فران غنصالس والملكة طوطه او طوية من نباره .

قسم الخليفة الاموي جيشه الى ثلاثة اقسام: القسم الاول يقاتل تحت قيادة المظفر عم الخليفة وساعده الايمن ، والثاني بقيادة والي بطليوس (Badajoz) والثالث بقيادة الخليفة نفسه مع والي طليطلة وبلنسية وتدمير .

اجتاز نهر الدويره (Duero)ودخل في اراضي ليون واتلف الزرع واحرق القرى ،يتوقف امام ابواب سموره (Zamora)وكانت مدينة حصينة عالية الاسوار تحيط بها سبعة منها وخندقان غمرتها المياه ، وحاميتهـــا من اشد الفرسان المسيحيين مراساً .

تختلف المصادر العربية والغربية ، تقول هذه ان الملك ردمير الثاني كان محارباً لا يلوى له عنان وعدواً لدوداً للمسلمين ، وان أخاه الراهب ترك نذوره الرهبانية وخرج من الدير لينصب ذاته على العرش . وملك ليون يغادر ساحة القتال الرجوع الى مملكته لانه يفضل خسارة معركة على خسارة عرش ، وعلى

ما يظهر ان معركة الدويره كانت سجالاً ويقول مؤرخو العرب ان عبد الرحمن نجا من فشل محقق لو سارع الاسبان الى استئناف القتال في اليوم التالي .

ولكن المسألة ليست مسالة حزم وعزم فانه في ذلك اليوم ظهرت خارقة سماوية ارتعبت لها قلوب الجميع ، كسفت الشمس في ضاحية النهار فاوقع هذا الخسوف الخوف في نفوس الفتيان الذين لم يروا مثله شبيهاً في حياتهم .

كان الجيشان وجهاً لوجه وعلى اهبة القتال ودامت الحالة يومين وفي اليوم الثالث استعرض المظفر قواته وحثها على بدء القتال . كان الاول في مهاجمة المسيحيين ، وكان معه والي طليطلة وبطليوس يقودان جناحي هذا الجيش الفاخر ، ووراء الامير قوات اندلسية مستعدة الدخول في القتال عندما تدعو الحاجة .

ابتدأت المعركة في مطلع النهار بقرع الطبول ، فانحدرت القوات المسيحية من الجبال ووقعت مجزرة مرعبة والمظفر ينتقل من صف الى صف يحض الناس على الثبات فصمدت قوات ردمير امام تدفق الجيوش العربية ، وكان الثائر ابن اسحق ابن أمية شقيق احمد بن اسحق ، المبعوث الى ملك ليون ، بين المقاتلين الاشداء. ولما راى عبد الرحمن ان جناحه الايمن قد تزعزع انطلق بخيالته من قرطبة فرد القوات المعادية الى الوراء ، وتجدد القتال باكثر ضراوة من ذي قبل وصارت القوات المسيحية تقاتل متراجعة لما اقبل الليل ووضع حداً لتلك المجزرة المرعبة.

انسحبت قوات ليون من ساحة القتال وظل العرب اسياد الموقف فاستسلموا للرقاد بين الجثث والاشلاء المتناثرة غير عابئين ، فالتعب انهك اجسادهم ، على انتظار ان يتجدد القتال في اليوم التالي ، ولما طلع الصباح شاهدوا معسكر ليون خالياً .

فليس كما يقال ان المعركة كانت حاسمة لصالح ردمير الذي ترك عدوه في ساحة القتال وتخلى عن مدينته الحصينة لرحمة القرطبيين . المعركة كانت سجالاً والخسائر جسيمة من الطرفين .

اما الرواية العربية فتقول ان الاموي الثائر ابو اسحق الذي انضـــم الى العدو لما رأى بني قومه على وشك الاندحار ادخل في روع ردمير ان الوفـــا مؤلفة من الفرسان آتية من كل فج وصوب لمساعدة الخليفة القرطبي ، وهذه الرواية هي اقرب الى التصديق من تلك القائلة بان ملك ليون يترك اعـــداءه بسلام بعد ان اشرفوا على البوار .

ولما اصبحت سموره بدون مساعد ياتي لنجدتها تحول اليها عبـــد الرحمن بجيشه المفلول وابتدأ الحصار . كان القتال عنيفاً وتوصلت القوات العربية الى دك سورين فتدفقت منهما الفيالق العربية ووجدت ذاتها امام خندق بعيد المهوى تغمره المياه والمسيحيون يدافعون عنه بضراوة ، فبدأ تراشق النبـــال وسقط القتلى من الجانبين وكان المسلمون يلقون قتلاهم في الخندق ، ولم يتمكن المسيحيون من صد هذه القوات المتدفقة والسيوف الظامئة الى شرب الدماء فماتوا ابطالاً واصبحت المياه قانية من دماء المسلمين والمسيحيين على السواء فتحول الخندق الى بحيرة من الدماء ، وتحطمت الابواب ورفعت الاعلام الاسلاميـــة فوق الابراج واستولت القوات العربيـــة على المدينة وعفوا فيهـــا عن النساء والاطفال .

تلك معركة الخندق الدامية التي وقعت بين قوات خليفة قرطبة وردمير في شوال سنة ٣٢٧ هجرية او ٩٣٩ مسيحية . وكان ذلك بعد ثلاثـــة ايام من كسوف الشمس الذي زرع الرعب في قلوب تلك القوات الهائلة ، ويقول المسعودي انه مات في هذه الحملة اربعون الى خمسين الف مسلم .

اما ابن الخطيب فيصف هذه المعركة على النحو التالي :

ثم ان الله ابتلاه ومحصه بالوقيعة الشهيرة التي اوقعه بها عدو الله ردمير بن اردون يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ٣٢٧ على باب مدينة شانت مانكس (Simancas) من بلاد الروم بعد قتال ايام جالت فيه المغالبة بين الفريقين بأشد ما يكون واصعبه . وكانت للعدو الكرة فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله ، وجرت الهزيمة على المسلمين طائفة من جند الناصر لدين الله حسدته على ما هيأه الله له من الصنع ولم تناصحه في الحرب حق النصح فجالت

ثانية للاعنة واختل مصاف القتال والجأ العدو المسلمين الى خندق بعيد المهوى اليه تنسب الوقيعة ، فتساقط فيه الناس حتى ساووا بين حافتيه وانكشف الناصر واسلم محلاته فاستولى عليها العدو بما فيها من عدة وغير ذلك وضاع فيها مصحفه ودرعه وكان لا قيمة لهما ، الى ان استرد ذلك فيما ياتي .

ولما خلص من المعركة وجه طائفة من الجاد خدمته سبقت الى قرطبة فبشرت بسلامته وانفذت بامره باتخاذ الخشب والمصالب على ضفة نهرها ولحين وصوله ، تقبض على ما يناهز ثلاثماية من الفرسان فصلبهم وامر بالنداء عليهم : « هذا جزاء من غش الاسلام وكاد اهله واخل بمصاف الجهاد » . فرفعوا بها وبادرتهم الرماح بمرأى من الناس ودخل الى قصره . ومن لدن هذه الغزاة لم يباشر الغزو بنفسه ، وصنع له الله بعدها من الوقائع على ملوك النصارى واكتساح بلادهم ما لم يصنعه لاحد ممن قبله .

تضاربت الاراء في هذه المعركة حتى ان دوزي يقول بان عبد الرحمن رجع الى قرطبة فقط مع تسعة واربعين رجلاً وهذا لا يمكن تصديقه اذا اردنا ان نصدق رواية ابن الخطيب الذي يقول انه صلب ثلاثماية من الفرسان الذين «غشوا الاسلام واخلوا بمصاف الجهاد» .من الثابت ان جيوشه سيطرت على ساحة القتال قرب ضفتي نهر الدويره واعلامه ارتفعت فوق اسوار سموره الا ان قسماً كبيراً من زهرة فرسانه قد مات في ساحة الجهاد .

وعلى كل حال كانت الضربة شديدة على هيبة الخليفة الاموي

علق اهمية كبرى على هذه الغزوة التي سماها غزوة القدرة ولم يتمكن فيها من الوصول الى اهدافه ،فبعد ان استعد لها سنة كاملة وانفق ما اتفق في سبيلها بلغت خسائرها اضعاف مكاسبها اذ ان القتلى وصل عددهم الى اربعين او خمسين الف قتيل .

ويعزون هذا الفشل الى سوء تصرف بعض القادة العرب الذين لم يخلصوا في الجهاد . جاء في «اخبار مجموعة» ما يلي : ولكنه (عبد الرحمن الناصر) عفا الله

عنه ، مال الى اللهو واستولى عليه العجب، استمد بغير الكفاءة واغاظ الاحرار بقامة الانذال كنجدة الحيري واصحابه الاوغاد فقلده عسكره وفوض اليه جليل اموره والجأ اكابر الاجناد ووجوه القواد من العرب وغيرهم الى الخضوع له والوقوف عند امره ونهيه ، فتواطأ اهل الحفائظ من رجاله ووجوه اجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام سنة وعشرين وثلاثماية وسماها غزاة القدرة لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها، فهزم فيها اقبح هزيمة واتبعهم العدو اياما يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة ، فلم يكد ينجو منهم الا قوم جمعوا اصحابهم على الويتهم وتخلصوا الى بلدانهم ، فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه .

ونجدة الحيري هذا قد يكون من الصقالبة وهو الذي قاد جيش الناصر سنة ٣٢٧ – ٩٣٩

والصقالبة (Eslavos) في الاصل كلمة يطلقها المسلمون على الاسرى الذين يسقطون في قبضة الشعوب الجرمانية في حروبهم مع جيرانهم ثم يبيعونهم الى العرب الاسبان . وقد عرفوا بهذا الاسم قبل عهد عبد الرحمن الناصر بزمان . ثم شمل هذا اللقب جميع الاجانب الذين يخدمون سواء في الحريم او في الجيش مهما كان اصلهم وجنسهم

وكان في خدمة عبد الرحمن الثالث صقالبة من الافرنج والجرمن والايطاليين وخاصة من جنوبي ايطاليا منطقة كلابريا ، فالبعض منهم وقعوا اسرى بقبضة القراصنة الاندلسيين والآخرون اشتروهم من المرافىء الايطالية ، اذ ان اليهود الذين يستلذون البؤس كانوا يشترون الاولاد من بنين وبنات من العيال الفقيرة ليبيعوهم بدورهم الى اليونانيين او اهالي البندقية فينقلهم هؤلاء الى المدن العربية في افريقيا او اسبانيا .

ولما كان القسم الاكبر من هؤلاء اطفالاً عند وصولهم الى اسبانيا لم يصعب عليهم اتقان اللغة العربية ومبادىء الديانة الاسلامية عن اسيادهم الجدد ، والكثيرون منهم حصلوا على ثقافة عالية فاصبحوا مغنين ومغنيات وراقصين

الشاعر الصقلي، الذي

وراقصات ويحيي القراءة ونظم الشعر وقد وضع حبيب، الشاعر الصقلي، الذي شاع ذكره على عهد ملوك الطوائف، في مجلد ضخم قصائد الشعراء الصقالبة في اسبانيـــا.

ودللهم الناصر فعهد اليهـــم بالمناصب الكبرى في القصر والادارة والجيش فسما شأنهم وتوطد سلطانهم فكان منهم قائد الجيش نجدة وكان منهم افلح صاحب الخيل ودرى صاحب الشرطة، ومنهم ياسر وتمام صاحبا الخلوة مع الناصر وحرمه وبيدهما القصر السلطاني.

والنساء منهم مرغوبات في قرطبة بالنظر الى بياض بشرتهن والامراء من بني امية يختارون منهن الحظايا المقربات. واذا رزقن اولاداً يرفعن الى رتبة اميرات «ام ولد». تأثيرهن ونفوذهن عظيمان في البلاط ومستعدات دائماً لحبك الدسائس واستعمال السم عند الحاجة. وكان الخاصة في الاندلس يشترون هذه الجواري الافرنجيات الراقيات الناعمات الى اقصى درجة مقلدين بذلك الامراء، وهؤلاء النساء اسهمن الى حد بعيد في اعطاء المجتمع الاندلسي صبغة خاصة وفي تحسين حالة المرأة بالاجمال.

وازداد عدد هؤلاء الصقالبة على ايام الناصر لدين الله زيادة كبرى فهـــم يشكلون حرس قصره في الداخل وعددهم اربعة آلاف رجل، ويقال ان هذا العدد وصل الى ما يقارب ١٣٧٥٠ صقلبي.

ومع كونهم عبيداً يقتنون عبيداً واراضي واسعة فالناصر يثق بهم اكثر من ثقته بالعرب فيقربهم اليه كما فعل الخلفاء العباسيون في تقريب الفرس والاتراك مما ادى الى اضعاف الخلافة العباسية وانحلالها فيما بعد، ولولا حزم الناصر وشدته لتكررت الفاجعة في الاندلس على ايامه، ولما كانت تأخرت خمسين سنة الى ما بعد موته اي عند ظهور ملوك الطوائف وتقسيم الاندلس الى دويلات نهشها المسيحيون نهشاً. شعر العرب انهم منبوذون ومحتقرون امام هؤلاء الدخلاء فتحينوا الفرص للانتقام من الناصر وانتقموا منه اذ تخلوا عنه في اشد المعركة احتداماً ودارت

الدائرة عليهم وعليه . من استفاد من هذا الانشقاق الداخلي ؟ العدو الخارجي !
لقد كتب على العرب ان يعيشوا هكذا ابد الدهر منقسمين يكيدون لكل من
يتقدم فيهم ويعملون على اسقاطه ؟ اما حان لهم ان يتعلموا الامثولة ويتعظوا ؟
ماذا ينفع التاريخ اذا لم يعلمنا ان نعيش الحاضر والمستقبل افضل مما عشنـــا
الماضي ؟ من سبب في سقوط العباسيين وضياع ملكهم ؟ — العناصر الاجنبية
التي ادخلوهـــا في جهـــاز الدولة لان الخلفـــاء لم يعودوا يثقون بابنـــاء
جلدتهم الطامعين في السلطان . لماذا قرب الناصر الصقالبة اليه ؟ — لانه فقد
ثقته ببني قومه . ولماذا فقد ثقته فيهم ؟ — لانهم يكيدون له ويسيئهم ما وصل
اليه من العز والسؤدد . وحد كلمة العرب في الاندلس ورفع شانهم ونصرهم على
اعدائهم حسدوه وتآمروا على اهلاكه . ومن هم ؟ — انهم اقرب الناس اليه من
اعمامه ومن المقربين الذين خصهم برفده . وما كانت النتيجة — هي نفسها في
جميع الاوقات والازمنة ، الضعف والانحلال فالملك الذي شيده الناصر لدين
الله والاموال التي جمعها وتقدر بخمسة الاف الف الف ثلاث مرات لم تدم
اكثر من نصف قرن ، جاء عصر ملوك الطوائف وتفرد كل زعيم بمنطقة حكمه ،
واستفاد العدو فاستولى على ما وصلت اليه يده من ممالك ومقاطعات .

بعد معركة الخندق

ضرب الناصر بيد من حديد على الذين اخلوا بشروط الجهاد وصلب ثلاثمائة
منهم على ضفاف وادي الكبير (Guadalpuivir) بضع الدمل قبل ان يتسرب
بلاؤه الى بقية انحاء جسم الدولة ، فاستطاع بمدة قصيرة جداً ان ينهض من كبوة
الخندق ليوجه ضربات قاصمة الى الجلالقة في الشمال ليبر في قسمه للانتقام للجنود
الكثيرين الذين سقطوا في تلك المعركة .

اما ردمير فقد تخطت شهرته الحدود الاسبانية وامتدت في انحاء اوروبا
آنذاك .

وسقط ابو يحيى محمد بن هاشم اسيراً في قبضة ردمير الثاني حليفه السابق ، لقد

رجع عن تحالفه مع ملك ليون ليسالم الناصر لما حاصر مدينته سرقسطـــه ، فبقي في الحبس سنتين

لم تدم طويلاً شهرة ردمير ، لانه بعد موقعة الخندق Simancas اخلد الى السكينة تجاه العرب لانه كان يجابه مشاكل داخلية في قشطالة حيث يثور القمص فران غنثالص ضده ، فالقمص هذا اشترك في معركة الخندق الى جانب ردمير الثاني وطوطه ملكة نباره ، كما انه اشترك في جميع المعارك التي نشبت ضـــد الناصر لدين الله منذ سنة ٩٣٣ .

يرجع اصله الى القاضي نونيه راجوره ، كان مقره في برغش (Burgos) ويحكم باسم ملك ليون (Leon) على قشطالة ، غير انه كان ما زال يضمر الحقـــد لاردون الثاني الذي بعد معركة وادي جنكيره الفاشلة ضد عبد الرحمن قتل اربعة من القمامصة القشطاليين لانهم لم يشتركوا معه في تلك المعركة الفاشلة ضد الجيوش العربية ، غير ان ردمير الثاني تمكن من القمص غنصالص وحبسه في ليون ، ثم ولى على قشطالة قمص آخر اسمه اشور فرننديس سنـــة ٩٤٣ ، فاساء هذا التدبير القشطاليين الذين ظلوا على وفائهم لزعيمهم فران غنصالص ، فاطلق سراحه واعاده الى منصبه من جديد بعد ان عاهده على التقيد بالشروط التالية:

اولا — اقسام يمين الطاعة الكاملة لسيد ليون .

ثانياً — تنازله عن املاكه الخاصة .

ثالثاً — تزويج ابنته اوراكه (Urraca) بولي العهد اردون الثالث .

لم ير القمص فران غنصالص بداً من الرضى بهذه الشروط المجحفة بحقه .

ضعف موقف ردمير العسكري بخسارته حليفاً قوياً مثل القمص النبيــــل فاغتنم الناصر الفرصة فارسل قواده الى الشمال يقتلون ويهدمون ويسلبون في غليسية وليون وقشطالة ، ولا سيما بعد ان نقلت القيادة العامة من طليطلة Toledo الى مدينة سالم (Medinaceli) بعد ان شيدها غالب مولى عبد الرحمن الثالث ،

فتحولت الى قاعدة هامة قريبة من قشطالة ينطلق منها العرب لمحاربة ملوك الشمال فتوغلوا الى ما وراء لغ (Lugo) على المحيط الاطلسي او بحر الظلمات سنة ٩٤٩ ، وفي شتاء ٩٥٠ قام القائد العربي احمد بن يعلى بهجوم مفاجىء في ذلك الاتجاه واستولى على ثلاثة معاقل واخذ الف اسير ، وما طال الامر حتى توفي ردمير الثاني سنة ٩٥١ .

خلفه ابنه البكر اردون الثالث غير ان مؤامرة قامت ضده لتنصيب اخيه سانجه الاول المولود من المرأة الثانية النبارية اوراكه التي تزوجها ردمير الثاني .

المتآمرون هم القمص فران غنصالس ضد صهره زوج ابنته وقد رأينا ان هذا الزواج تم على اكراه من القمص ، والمتآمر الآخر طوطة ملكة نبارة .

ومع ذلك فقد تغلب اردون الثالث على المتآمرين امام اسوار ليون ، ثم اضطر للذهاب الى جليقية لقمع فتنة .

فاغتنم الناصر الفرصة لشن الغـــارات الموفقة على مملكة ليون ، فكانت انتصارات ومغانم في طلبيره وجليقية اذ نقلوا من هذه الأخيرة الى قرطبة اجراسا وصلبانا كثـــيرة ، ولم تنج قشطالة من هجمات قواد العرب المرابطين على الثغور فكانت خسائر القشطاليين تقدر بعشرة آلاف قتيل .

كل ما استطاع اردون الثالث فعله ذهابه الى نهب ليشبونه ولم ينفعه شيئا لانه اضطر الى القيام بمفاوضات مع قرطبة لعقد الصلح بينهما بارسال سفراء الى الخليفة القرطبي ، فدخلوا عليه وقد ظهر لهم من عظيم الملك ما رعبهم ، فان عبدالرحمن الناصر امر بان تبسط لهم الحصر من باب قرطبة الى باب الزهراء قدر فرسخ ، وجعل الرجال عـــن يمين الطريق ويساره وبأيديهم السيوف الطوال العراض مجردة يجمع بـــين السيف الايمن والسيف الأيسر حتى صارت كعقد الحنايا ، وامر الرسل بان يمشوا بين تلك في ظلالها كانها سباط فدخلهم من الرعب ما لا يعلمه الا الله تعالى . فلما وصلوا الى باب الزهراء فرش لهم الديباج من باب المدينة الى مقعده على تلك الحالة من الترهيب واقام في مواضع مخصوصة حجابا

كأنهم الملوك قعوداً على كراسي مزخرفة عليهم الديباج والحرير فما ابصروا حاجباً الا سجدوا له ، يتخيلون انه الخليفة ، فيقال لهم ارفعوا رؤوسكم هذا عبد من عبيده الى ان وصلوا الى ساحة مفروشة بالرمل والخليفة في وسطها قاعد عليه ثياب خلق قصار ، يساوي كل ما عليه اربعة دراهم وهو قاعد على الارض مطرق وبين يديه مصحف وسيف ونار ، فقيل الرسل هذا السلطان فسجدوا له فرفع رأسه اليهم قبل ان يتكلموا وقال لهم : « ان الله امرنا يا هؤلاء ان ندعوكم الى هذا ، واشار الى المصحف كتاب الله ، فان ابيتم فبهذا ، واشار الى السيف، ومصيركم اذا قتلناكم الى هذا ، واشار الى النار ، فملئوا منه رعباً وامر باخراجهم ولم يبدوا كلاماً فصالحوا على ما اراد .

وعقد فران غنصالص من جهته مع الناصر لدين الله هدنة ، فلم يبق امام الخليفة سوى اخضاع نبارة ، ولما مات اردون الثالث بسموره في خريف سنة ٩٥٦ ، ابى اخوه شانجه الاول الذي خلفه ان يبرم المعاهدة المعقودة مع قرطبة ، وجاء رد الفعل في الحال . ارسل الناصر في صيف ٩٥٧ (٣٤٦ هـ) القائد احمد ابن يعلى لمهاجمة ملك ليون الجديد فألحق به هزيمة نكراء اضيفت الى الاحتقار الذي يكنه له اهالي ليون نظراً لسمانته المفرطة التي تمنعه عن ركوب الخيل . والقمص فران غنصالس الذي ساعده ضد اردون الثالث ثار عليه هذه المرة مع اشراف ليون الراغبين في خلع الملك الجديد ، وتم لهم ما أرادوا سنة ٩٥٨ فطردوه من ليون ونصبوا مكانه اميراً لا يقل بشاعة عنه ، فهو محدودب الظهر فاتخذ اسم اردون الرابع واطلق عليه لقب « الفاسد » وهو ابن الفونس الرابع الراهب .

ذهب الملك المخلوع الى نباره للاجتماع بجدته طوطة التي كانت ما زالت وصية على العرش رغم بلوغ ولدها السن القانونية ليستلم زمام الحكم ، فوضعت تحت حمايتها حفيدها شانجه الاول المخلوع عن عرش ليون ، واول ما فكرت به شفاءه من تلك السمانة التي تجعله انساناً عديم النفع ، ثم تعمل بعد ذلك على استرجاع ملكه ، ولكن اين هي الوسائل للوصول الى هذين الغرضين ؟ واين

تفتش عنها ؟ عند قمص قشتالة ؟ عند ملك ليون الجديـــد ؟ لا ، انها اعداء حفيدها الالداء ، فلماذا لا توجه انظارها نحو الجنوب ؟ فـــد نجد الدوائر عند سيد قرطبة ، بينها وبينه قرابة . رزق الامير عبدالله، جد الخليفة عبدالرحمن، احد عشر ولداً ، سبعة منهم قبل تسلمه الحكم واربعة بعده ، منهم البكر محمد ولد سنة ٨٦٤ وعين ولي العهد، وكانت امه تسمى در ، وليست ام ولد فحسب بل اميرة من البشكنس تسمى (Iniga) تزوجت بعد ترملها بالامـــير عبدالله وولدت له الامير محمد والد الخليفة الناصر ، وابوها كان فرتون بن غرسيه ملك نباره ، وفرتون هذا ظل اسيراً في يد الامير محمد الاول طيلة عشرين سنة .

وصل الرسل الى الخليفة وعرضوا عليه الامر ، فلم ير من مانع يحول دون المفاوضات فبعث الى بنبلونه لاجراء هذه الاتصالات طبيبه حسداي بن شبروت فهو يعرف كيف يشفي سانجه من السمانة وينال منه تنازلات جديدة لجد العرب وسلامتهم كتدمير بعض الحصون والقلاع المسيحية لـكي لا تكون في المستقبل قاعدة لغزوات جديدة يشنها المسيحيون على الاراضي الاسلامية ، والخليفـــة يزداد سروره اذا توجهت طوطه مع حفيدها الى قرطبة فتخاطب الناصر وجها لوجه وتتواصل معالجة شانجه .

انجز اليهودي المهمة الموكولة اليه فشفى شانجه من سمانته واقنع الملكة طوطه بالذهاب الى الاندلس لمقابلة امير المؤمنين الناصر لدين الله . قررت السفر برفقة ولدها غرسيه وحفيدها سانجه الملك المخلوع فاجتازوا السهول والجبال من نباره الى قشتالة الى سلسلة الجبال السمراء (Sierra Morena) الى غياض الاندلس مع فرسانها والطبيب حسداي بن سبروت . واستطاع الملك المسكين ان يمتطي صهوة جواده بعد ان زالت سمانته قليلاً .

وصلوا الى قرطبة واستقروا في قصر مروان ، وجرت المقابلة بعدئذ في قصر الزهراء لكي تتخذ ابهة اكبر نظراً الى اهمية الزوار الذين صمدوا مرات كثيرة امـــام هجمات القرطبيين واليوم جاءوا الى سيد قرطبة يلتمسون المساعدة .

كما يستحقون ووعدوه بتسليم عشرة حصون وعدم
استقبلهم باكرام فـائق حفيدها على عرش ليون، وتتواصل
بارسال جيش جبار لينصب من جديـــد
المعالجة فينقص وزن شانجه كثيراً .
ثم يعود ضون غرسيه وامه الملكة طوطه الى نباره، ويظل شانجه في المعالجة
حتى اصبح في حالة جيدة، عادت اليه حركاته الطبيعية ونشاطه .

لم يطل الامر ان سار الجيش العربي ضد اردون الرابع، بينما طوطه وغرسيه
هاجما القمز فران غنصالص على الحدود الشرقية من ولايته، حتى لا يسرع الى
مساعدة ملك ليون كما وعدا الخليفة الناصر .

رافق شانجه الجيش القرطبي في ربيع سنة ٩٥٩ (٣٤٧ هـ) وحاصر سموره
ودخلها عنوة . ولم تمض بضعة اسابيع حتى كان سانجه قد استرد القسم الاكبر
من مملكته . اما اردون الرابع، فوجـد نفسه مضطراً للتفتيش عن مأمن له في
اشطوريش، بعد تركه مرغماً مدينة ليون، فدخلها سانجه وجلس على العرش
سنة ٩٦٠ .

وتوفقت طوطه في مهاجمتها القمز فران غنصالص واسرتـه في مكان قريب
من ناجره، واردون الرابع طرد من اشطوريش فالتجأ الى برغش .

ومن العجيب، ان عبدالرحمن الناصر، رغم هذه الانتصارات المتوالية على
ملوك الشمال لم يضم الى مملكته اي اراضي، او يزيل سلطة احــد الملوك في
الشمال، فأمراء قرطبة في ايام الفتح الاول كانوا يهدفون الى توسيع حدودهم .
غير ان الخليفة الناصر لدين الله يكتفي بما تصل اليه يده من غنائم واسلاب يأتي
بها جنوده في صيف كل سنة تقريبـاً . جل ما عمل انه شل حركات الملوك في
الشمال، واستلم زمام المبادرة في الهجوم، لينقل الحرب الى حيث يشاء .
عرف كيف يفرض على الملوك المسيحيين ارادتـه، فمن جميع هؤلاء الذين
مروا في ليون ونباره طوال حياته، الملك اردون الثاني الوحيد الذي قاس

نفسه بالناصر ، والباقون قدموا الاكرام لخليفة قرطبة عن رضى او اضطرار
سواء كان القمص فران غنصالص، او طوطه ملكة نبارة، او ولدها الملك غرسيه
او حفيدها شانجه او امير برشلونه .

ولم يكن هذا الاكرام مجرد شكليات خارجية ، بل اتفاقات ثنائية بين
غالب ومغلوب وسيد ومسود ، بتأدية كميات كبيرة من المال او بهدم بعض
القلاع او تسليمها الى امير المؤمنين الناصر ، وبنوع خاص دفع الغرامة السنوية
لبيت المال في قرطبة ، ودفع الجزية لم يكن من ابتكار الناصر ، انما هو الذي
رده الى سابق عهده ، ففي اواخر ايامه كان على اسياد ليون وبرغش وبنبلونه
وبرشلونه ، ان يقدموا سنوياً تعويضاً لقاء الهدنة ، وما كان بالامر الذي يستهان
به ، واذا لم يتم الدفع في الموعد المعين ترسل قوة لتعاقب المتهاونين في الدفع .

ونستخلص من جميع الحروب التي شنها عبدالرحمن ضد الملوك المسيحيين في
الشمال والمعارك التي خاضها، انه لم يكن يرمي من ورائها الى الفتح كما فعل امراء
قرطبة في السابق . أراد ان يبين للاجيال المقبلة ان عهد الفتوحات قد انتهى ،
وان الاعتداء على ممتلكات الغير ظلم ، والله لا يحب الظالمين ، وان الاستعمار قد
ولى ، فليعش كل شعب على هواه دون ان يزعج جيرانه ويتعدى عليهم ، ولكن
المسيحيين في الشمال ما كانوا ليرضوا بهذه التعاليم الجديدة ، التعاليم المسيحية
الصحيحة ، فالطمع والعظمة يتأكلان قلوبهم ، واعتداءاتهم متواصلة على الثغور
العربية كلما وجدوا الى ذلك سبيلا ، يريدون توسيع رقعة ممالكهم على حساب
جيرانهم العرب الذين يحبون العيش معهم بسلام ووفاق منذ عهد الناصر . فلم
يرضوا مع علمهم انه لا قبل لهم على مجابهته كما دلت الاحداث ، انه قادر على
محاربتهم وقهرهم بسهولة حينما شاء ومتى شاء ، وحاربهم وقهرهم. وكان بمقدوره
التخلص منهم نهائياً باحتلال اراضيهم وسوقهم اسرى وسبايا ولم يفعل .
تركهم في ممتلكاتهم يعيشون لقاء دفع غرامات لا يستطيعون بعدها اعداد حروب
جديدة . ومع هذا ، كلما تنفسوا قليلاً من ضيقتهم يرجعون الى اثارة الحروب
دون فائدة ، لانها كانت ترجع وبالاً عليهم ، فتجتاح اراضيهم وتقتل رجالهم

وتنهب اموالهم وتسبى نساؤهم .

ان حروب عبدالرحمن كانت جميعها تأديبية حتى لا يعودوا لمثلها . يرهقهم بالضرائب ، يحتل قلاعهم او يدمرها حتى لا يستخدموها فيما بعد، لشن غارات اخرى على ثغوره .

لم تنجح معهم خطة الرفق والتسامح ، نقضوا عهودهم له و كرروا اعتداءاتهم عليه . اتاهم بالمعروف ، فقابلوه بالمنكر . لم يوسع رقعة حدوده على حسابهم ، وكان قادراً على توسيع هذه الرقعة ، فظلت مملكته على حالها منذ استلامها الى حين موته . عفوه عن حلم ولا عن رهبة كما دلت جميع انتصاراته عليهم .

تلك تعاليم سامية جاءت الينا من القرن العاشر من عبدالرحمن الناصر ، ولم يفهمها اهل زمانه الذين كانوا يرون الحق في القوة، لقد كان الناصر قوياً ولم يستغل قوته على حساب الضعيف ، ظل اميناً لرسالته طوال خمسين سنة من حكمه ، وتركها للاجيال امثولة للقدوة .

اجل ، ذلك كان التعايش السلمي الحقيقي الذي يريدون تطبيقه اليوم ، ينطلق من القوي الى الضعيف، لا يبغي سوى ضمانة لسلامة حدوده من الاعتداء، ولم يفهمها جيرانه آنذاك .

تعاليمك يا عبدالرحمن كانت سابقة جداً لأوانها ، غير انها لم تذهب سدى ، لقد ابتدأ صوتك ان يسمع ، بعد مرور الف سنة على انطلاقه في صرخة حق، مدوية ، لو سمعها العالم في حينها لنجى من ويلات جمة .

٥

السفارات الأجنبية لدى بلاط الناصر لدين الله

لم تقتصر السفارات التي قدمت الى بلاط الناصر على الملوك المسيحين المقيمين في الشمال ، وقد اشرنا اليها في الصفحات الماضية ، عند حديثنا عن طوطه ملكة نباره وابنها وحفيدها والقمص فران غنصالص صاحب قشطالة وملك ليون ، بل تعدتها الى المانيا وايطاليا وافريقيا والقسطنطينية .

استؤنفت العلاقات بين بيزنطية وقرطبة حوالي سنة ٩٤٨ ، وكانت قد انقطعت منذ اكثر من جيل ، أي سنة ٨٤٠ مسيحية . في هذه السنة بعث توفيلا قيصر الروم الى عبدالرحمن الثاني رسولاً من تلقاء نفسه ، وبادله الامير القرطبي فأرسل له اثنين من اخصائه وزودهما بأسمى التحيات الى ملك بيزنطية . وهذا التبادل في السفارات لم يأت بنتيجة عملية آنذاك . اراد عاهل القسطنطينية ان يشرك امير قرطبة في سياسة البحر المتوسط الشرقي بجزيرة كريت التي استولى عليها جماعة من العرب المغامرين سنة ٨٢٩ . ان توفلا يطلب كثيراً من عبدالرحمن الثاني ، وان كان هذا الاموي عدو العباسيين ، فلا تبلغ به البلاهة حدها حتى يرسل جيشاً عربياً ليقاتل جيشاً عربياً ارضاء لسيد بيزنطية الذي يظهر الصداقة لقرطبة حباً في جر مغنم . انها وقاحة ما بعدها وقاحة ، رفض الاقتراح البيزنطي

بطريقة دبلوماسية ، ولم يسترسل خلفاء توفيلا في التفاؤل بالحصول على مساعدة قرطبة لاسترداد الجزيرة . وحتى منتصف القرن العاشر ، لم يقو البيزنطيون على استرداد كريت رغم الجهود التي بذلها اباطرتهم لطرد العرب منها ، فالعائلة الحاكمـــة التي اسسها ابو حفص عمر البلوطي ما تزال تحكم . ولم يتمكنوا من استرداد الجزيرة الا سنة ٩٦١ قبل وفاة الناصر ببضعة اشهر ، لما هاجمها الجنرال نيقيفور واصبح فيما بعد امبراطوراً ، فاستولى عنوة على قلعة الخندق وخلع الامير عبدالعزيز بن شعيب . وكان الامبراطور قسطنطين السابـــع سنة ٩٤٩ حاول انزال قوة في الجزيرة فباء بالفشل . وفي هذا الحين ظهرت بوادر تشير الى استئناف العلاقات الدبلوماسية مع قرطبة .

وقد تكون هذه مصادفة فالامبراطور البزنطي لم يكن يأمل بمساعدة تأتيه من الاندلس لتصفية قضية كريت التي تتعلق رأساً ببيزنطية دون سواهـا . ولا ريب ان قسطنطينية كانت على علم صادق بالسيطرة والجـــاه اللذين وصل اليهما خليفة قرطبـــة والسيادة التي يفرضها على الملوك المسيحيين في الشمال من شبه الجزيرة الايبريـــة واعلانه على رؤوس الاشهاد عداءه للعباسيين و الفاطميين على السواء ، وهؤلاء هم اعداء بزنطية ايضاً .

ومهما كانت الاسباب التي حملت البزنطيين على التقرب من قرطبـــة فقد لاقى هذا التقرب ترحيباً كبيراً عند الخليفة الأموي وبالخصوص فانه جاء من مدينة مثل القسطنطينية لها هيبتها السامقة ومجدها التليد ، ففي القرن العاشر كانت ما زالت ملكة العالم المتمدن والساهرة والمحافظة على التراث اليوناني والروماني في حضارة متشعبة الفروع ، وتكسف بهاء كثير من المدن الاسلامية والناصر يرغب في التخلص تماماً من نفوذ بغداد ومن تأثيرها على الحياة الاسبانية العربية فعادات زرياب ما زالت في اوجها وتزيين المدن والآثار العربية في الاندلس كلها متأثر من بغداد ، فاذا تقرب من بيزنطية قد يتمكن من ان ينفض عنه نهائياً هذه السيطرة الادبية التي ظل شبحها يخطر في الاندلس رغم قطع كل علاقة دينية وسياسية مع بغداد . وفعلاً فانه منذ سنة ٩٥٠ نرى التأثير البيزنطي اخـــذ

يقترب شيئاً فشيئاً الى الحياة الاندلسية من عدة وجوه وخاصة في فن البناء .

وصل رسل الروم الى الديار الاندلسية سنة ٩٤٩ م – ٣٣٨ هـ وامر الناصر ان يلقوا احسن لقاء وافخمه واحسن قبول واكرام . واخرج للقائهم يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمتهم اثناء الطريق . فلما وصلوا الى اقرب الحلات من قرطبة خرج الى لقائهم القواد في العدد والعدة والتعبئة فتلقوهم قائداً بعد قائد. واخرج اليهم الفتيين الكبيرين الخصيين ياسراً وتماماً ابلاغاً في الاحتفال بهم ، فلقياهم بعد القواد، فاستبان لهم بخروج الفتيين اليهم بسط الناصر واكرامه لان الفتيين حينئذ هما عظماء الدولة لانهما اصحاب الخلوة مع امير المؤمنين وحرمه ، وبيدهم القصر السلطاني .

انزلوا بمنية ولي العهد الحكم المنسوبة الى نصير بعدوة قرطبـــة في الربض ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ، ومن ملامسة الناس طراً ، ورتب لخدمتهم رجال من الموالي ووجوه الحشم . ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه . فقعد لهم يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الاول من سنة ٣٣٨ هـ في بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلاً ، في صدر البهو فوق عرش مرتفع ، ووقف بين يديه جماعة من كبار الفتيان يتلقون اوامره . وقعد عن يمينه ولي العهد من بنيه الحكم الثاني ثم الامير عبدالله ثم عبد العزيز ثم الاصبغ ثم مروان ، وقعـد عن يساره المنذر ثم عبدالجبار ثم سليمان ، وتخلف عبدالملك لانه كان عليلاً لم يطق الحضور . وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً ، ووقف الحجاب من اهل الخدمة من ابناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم ، وقد بسط صحن الدار بعتاق البسط وظللت الابواب وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور ، فوصل رسل الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ، فسجدوا للخليفة عدة مرار الا واحـداً منهم يحمل صرة من الديباج على كفيه ، اكتفى باحناء رأسه . ولما دنوا من سرير الخليفة ، تنحى الوفد إلا رئيسه ، فقد تقدم ومال على يد الخليفة يقبلها ، فمنعه الناصر واشار اليه ان يجلس هو ورفاقه على وسائد من الديباج موشاة بالذهب ، اعدت

لهم على نحو عشر اذرع من السرير ، فجلسوا إلا حامل الصرة .

كان الناصر يخاطبهم بواسطة ترجمان ، فتقدم رئيس الوفد وقدم للخليفة تلك الصرة ، ولما فتحت فاذا داخلها درج من الفضة عليه غطاء من الذهب قد نقشت فيه صورة الملك قسطنطين من الزجاج الملون البديع ، ففتح الدرج فاذا فيه كتاب من ورق مصبوغ بلون سماوي ومكتوب بالذهب بالخط الاغريقي وهو كتاب صاحب القسطنطينية ابن ليون الى الخليفة ، وداخل هذا الكتاب رسالة مصبوغة ايضاً ومكتوبة بالفضة بالحرف اليوناني كالاولى .

فتناول الخليفة الكتابين واخذ يقلبهما فوجد على الكتاب الاول طابع ذهب وزنه اربعة مثاقيل على احد وجهيه صورة المسيح ، وعلى وجهه الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده واما المدرجة ففيها وصف هدية الملك للخليفة وعددها .

وكانت انظار الجلوس متجهة الى الكتاب فاشار الخليفة الى من يترجمه فقرأوا العنوان على ظاهره ما ترجمته : « من قسطنطين ورومانين المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكي الروم » في سطر ، ثم :

« الى عظيم الاستحقاق والفخر الشريف ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس اطال الله بقاءه » في سطر آخر .

امر الخليفة بالاحتفاظ بالكتاب وتسلم الهدية فاستوقف انتباهه منها اسم كتاب سرّ به كثيراً ، وهو كتاب الحشائش تأليف ديوسقريدس العالم النباتي المشهور ، فامر الخليفة باحضار الكتاب فاذا هو مكتوب بالخط الاغريقي وقد صورت فيه الحشائش كلها بالتصوير الرومي العجيب . وجاء مع هذا الكتاب ايضاً كتاب هروشيوس صاحب القصص ، وهو تاريخ للروم فيه اخبار الدهور وقصص الملوك باللغة اللاتينية . وكان في جملة ما كتبه اليه : « ان كتاب ديوسقريوس لا تجتنى فائدته الا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف تلك الادوية فان كان في بلدك من يحسن ذلك فزت ايها الملك بفائدة الكتاب » .

« واما كتاب هروشيوس فعندك في بلدك من اللاتينيين من يقرأون باللسان اللاتيني ويستطيع نقله منه الى اللسان العربي » .

فلما اطلع الناصر على ذلك الكتاب انبسطت اسارير نفسه وسر سروراً كثيراً بتلك الهدية واعتز بسلطة وجلالة قدره .

ثم طلب الى ولي العهد ان يختار من يراه من الفقهاء اهلاً للخطابة قبل ان يتقدم الشعراء بالانشاد ، فاختار الحكم الثاني صنيعه الفقيه محمد بن عبد البر الكسياني بالتاهب لذلك، وكان يدعي من المقدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره . فلما قام يحاول التكلم بما رآه بهره هول المقام فلم يهتد الى لفظة بل غشي عليه وسقط الى الارض ، فقيل لابي علي البغدادي اسماعيل بن القاسم القالي صاحب الامالي والنوادر ، وهو ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق واميز الكلام وبحر اللغة : « قم فارقع هذا الوهي » ، فقام فحمد الله واثنى عليه ثم انقطع به القول فوقف ساكتاً مفكراً في كلام يدخل به الى ذكر ما اريد منه ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد البلوطي ، وكان ممن حضر من زمرة الفقهاء ، قام من ذاته فوصل افتتاح ابي علي لاول خطبته بكلام عجيب وفصل مصيب ، كأنما يحفظه قبل ذلك بمدة وبدأ من المكان الذي انتهى اليه ابو علي البغدادي فقال :

ان من الحق ان يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت ، وان الجليل تعالى سماؤه امر كليمه موسى ان يذكر قومه بايام الله عز وجل عندهم ، واني اذكركم بايام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافة امير المؤمنين التي لمت شعثكم وامنت سربكم ورفعت قوتكم بعد ان كنتم قليلاً فكثركم ومستضعفين فقواكم ومستذلين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم واسند اليه امامتكم ايام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق واحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم في مثل حدقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتقتير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة الرخاء وانتقلتم بيمن سياسته الى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء ، الم تكن

الدماء مسفوكة فحقنها والسبل مخوفة فأمنها والاموال منتهبة فاحرزها وحصنها الم تكن البلاد خراباً فعمرها وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها، فاذكروا الاء الله عليكم بخلافته ... فانشدكم الله الم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها؟ الم يتلاف صلاح الامور بنفسه بعد اضطراب احوالها ولم يكل ذلك الى القواد والاجناد حتى باشره بالقوة والمهجة والاولاد واعتزل النسوان وهجر الاوطان ورفض الدعة وهي محبوبة وترك الركون الى الراحة وهي مطلوبة بطوية صحيحة وعزيمة صريحة وبصيرة نافذة ثاقبة ... اصبحتم في خلافة امير المؤمنين احسن الناس حالاً وانعمهم بالاً واعزهم قراراً وامنعهم داراً ...

ولما انتهى المنذر بن سعيد البلوطي من خطبته سأل الحكم اباه رأيه فيه قال: ولقد احسن ما شاء فلئن كان حبر خطبته هذه وأعدها مخافة ان يدور ما دار فيتلافى الوهي فانه لبديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان اتى بها على البديهة فانه لاعجب واغرب».

وقال الشاعر ابن سعيد لما فرغ المنذر من خطبته:

هذا المقام الذي ما عابه فند ... لكن قائله ازرى به البلد
لولا الخلافة ابقى الله حرمتها ... ما كنت ارضى بارض ما بها احد

فخرج الناس يتحدثون عن حسن مقام المنذر وثبات جنانه وبلاغة لسانه، والخليفة الناصر اشدهم تعجباً منه، ولم يلبث ان ولاه بعد ذلك سلطة القضاء، وكان في السابق قاضياً في الثغور الشرقية ويعمل في الاشراف على العمال وكان من جملة القضاة الذين قادوا العساكر في الجهاد ومن نظمه قوله:

الموت حوض وكلنا نرد ... لم ينج مما يخافه احد
فلا تكن مغرماً برزق غد ... فلست تدري ما يجيء غد
وخذ من الدهر ما اتاك به ... ويسلم الروح منك والجسد
والخير والشر لا تدعه فما ... في الناس الا التشنيع والحسد

ويحكى صاحب « طبقات القضاة » ان الناصر لدين الله اتخذ بسطح القبة المائلة على الصرح الممرد المشهور شأنه بالزهراء قراميد مغشاة ذهباً وفضة، انفق عليها مالاً جسيماً ، وقرمد سقفها بهما فاقعة الى بيضاء ناصعة تستلب الابصار بطارح انوارها المتشعشعة وجلس فيها اثر اتمامها ، لاهل مملكته ، فقال لوزرائه وخاصته مفتخراً بما صنعه ، وبما يتصل به من البدائع : « هل سمعتم او رأيتم ملكاً كان قبلي فعل مثل فعلي هذا او قدر عليه ؟ فقالوا: لا والله يا امير المؤمنين وانك لأوحد في شأنك كله ، وما سبقك الى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ولا انتهى الينا خبره ! فابهجه قولهم وسره جداً . وبينما هو كذلك ، تضحك اسارير وجهه اذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد واجماً ناكساً ، فلما اخذ مجلسه ، قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على ابداعه . قال : فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له : « والله يا امير المؤمنين ما ظننت ان الشيطان – لعنه الله – يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا انك تمكنه من قيادك هذا التمكن ، مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين ، حتى ينزلك منازل الكافرين ! قال : فاقشعر عبدالرحمن الناصر لدين الله وقال : « انظر ما تقول كيف انزلتني منزلتهم ؟ فقال : « نعم أليس الله تعالى يقول ولولا ان يكون الناس امة واحدة » الآية . قال : فوجم الناصر لدين الله ، ونكس رأسه ملياً ، ودموعه تنحدر على لحيته خشوعاً لله تعالى وتندماً مما اجرى إليه . ثم اقبل على منذر بن سعيد، فقال: « جزاك الله عنا وعن نفسك خيراً، وعن المسلمين خير جزائه، وكثر في الناس أمثالك ! فالذي قلت هو الحق ! »وقام من مجلسه ذلك ، يستغفر الله ، وامر بنقض سقف القبة ، واعادة قراميدها تراباً على غير تلك الصفة .

بهذه الدالة كان قاضي قرطبة منذر بن سعيد البلوطي يخاطب امير المؤمنين الناصر لدين الله ويؤنبه، وقد وصل الى هذه المرتبة السامقة لانه اجاد في الخطابة امام رسل القسطنطينية الذين ، بعد الاحتفال العظيم الذي جرى لهم ، يزورون قرطبة وشوارعها الضيقة التي بنيت خصيصاً لهذا الغرض لكي لا تنفذ اشعة

الشمس المحرقة اليها ، وينتقلون بين النهر والجامع .

ثم يسمح لهم بمغادرة البلاد بعد ان اسبغت عليهم الهدايا النفيسة لهم ولملكهم قسطنطين ، وهي من الاسلحة المصنوعة في قرطبة وطليطلة ، وعدد من الخيول العربية الاصيلة وبعث معهم احد وزرائه للسلام على ملك بيزنطية .

وحوالي سنة ٩٥٥ استقبل بعثة فريدة من نوعها . لم يتكلم عنهـا المؤرخون العرب وقد كانت ظلت في طي الكتمان،لو لم يبرزها الى الوجود أحد الرهبان التابعين لجمعية القديس بندكتوس وهو رئيس دير القديس ارملف (Armulfo) في مقاطعة اللورين ، فترجم للراهب يوحنا غورتز (Cortz) من جمعيته .

ويشير في هذه الترجمة الى تبادل رسائل بين امير المؤمنـين الناصر لدين الله واتون الاول (Othon) ملك المانيا وفيهـا يطلب الخليفة العربي الى الملك الجرماني ان يجحد دينه ويضع نفسه تحت سلطة وحماية خليفة قرطبة سيد الغرب الحقيقي .

يقول المؤرخ الآنف الذكر انه في سنة ٩٥٠ مسيحية ، بعث ملك اسبانيـا عبدالرحمن الى الامبراطور اتون الاول سفارة مزودة بالهدايا، وعلى رأسها اسقف من المعاهدين (Mozarabes) وهذه دلالة على كون الخليفـة القرطبي يوزع الوظائف على مستحقيها دون النظر الى مذاهبهم ، وان المسيحيـين لم يلاقوا الاضطهاد على عهد الخليفة الناصر لدين الله .

لاقى اسقف المعاهدين هذا حتفه في المـانيا . ودار جدل طويل في البـلاط الالماني لتعيين اعضاء البعثة التي تحمل رد امبراطور المانيا الى الخليفـة العربي ، ويجب ان تتألف من اناس اشتهروا بتقواهم وفضيلتهم وعلمهم لاقناع عبدالرحمن في اعتناق الديانة المسيحية .

فأشار برون (Bruno) شقيق ومستشار اتون الاول ، ان يطلب الى الاسقف ادلبرون ان يعين راهبين فاضلين من رهبانيته لا يخشيان التهديـد والوعيد ، ويحسنان الدفاع عن الايمان دون رهبة امام جميع ملوك الارض .

فنقل الاسقف ادلبرون (Adalberon) الوصية الى رئيس رهبنة العام اجينلدور فعين راهبين الواحد اسمه الجيل رامو (Angilramo) ، والثـاني ويدو (Wido) الذي لم يرق له السفر الى تلك المناطق المجهولة المسماة اسبانيا ، فقذف اقبح الشتائم والنعوت ، ونزع الثوب الرهباني ورجع الى العالم .

وبعد نقاش طويل وجدال حول السفير الذي يجب ان يمثل اوطون الاول لدى عبد الرحمن تقدم الراهب يوحنا غورتز من تلقاء نفسه لان بقية الرهبان لا تمكنهم صحتهم من القيـام بهذه الرحلة الشاقة ، اما هو فقد وجـد نفسه على استعداد لاقتبال الاستشهاد حبـاً بالمسيح ، فحسن في عين الامبراطور وسلمه الرسالة والهدايا ، فارتأى ان يحمل هو الرسالة فقط والدليل ارمننتدو دي فردون (Ermenendo de Verdun) الهـدايا . ويرافقه ايضاً في بعثتـه الشماس غرامانو (Garamano) .

وتوجهوا الى اسبانيا عن طريق لانجر (Langres) ، فديجون (Dijon) فليون ، وفي ليون سلكوا الطريق النهرية . فتعرضوا لخسارة أكثر الاغراض التي يحملونها معهم .

ولما وصلوا الى مصب نهر الرون ، انتقلوا على متن سفينـة الى الشواطىء الاسبانية من الناحية الشرقية ، برشلونة وتوقفوا في هذه المدينة خمسة عشر يوماً بعثوا في اثنائهـا رسولاً الى مدينـة طرطوشة (Tortosa) لاعلام الخليفـة بوصولهم . وعندما وصلهم رد والي المدينة يدعوهم الى مواصلة سفرهم ، يضطرون للتوقف شهراً كاملاً في طرطوشة بانتظار وصول الاوامر من الخليفة . ثم يسمح لهم الوالي بمواصلة السفر الى قرطبة بذات الابهة التي جرت لسفراء الامبراطور البيزنطي قسطنطين .

وصلوا الى عاصمة الخلافة سنة ٩٥٤ وحلوا ضيوفاً على الخليفة في منزل يبعد حوالي الفي خطوة عن القصر الملكي . فأقاموا في تلك الدار اياماً محاطين بجميع انواع البذخ الذي لم يألفوه في ديرهم .

وتمر الاسابيع والاشهر، ويتسرب الضجر الى نفس يوحنا غورتز ومرافقيه، ويطلبون مقابلة الخليفة بدون تأخير فيجيبونهم: « ان الامبراطور اوطون الاول استقبل السفراء العرب بعد ثلاث سنوات من الاقامة الجبرية في بلاده، وسيظلون هم تسع سنوات قبل ان يسمح الخليفة بصرفهم، كما ان الرسائل التي يحملونها فيها تجديف على النبي محمد، وتعرض حياتهم للخطر، ومن الافضل لهم ان يتركوا الزمن يمر، فكل يوم يمضي يزيد في عمرهم يوماً آخر ».

وتساءل غورتز، كيف وصلوا الى معرفة مضمون الرسالة والوقوف على فحواها، فتذكر ان راهباً من المعاهدين كان قد رافق البعثة التي ارسلها عبد الرحمن الناصر، وهذا الراهب نفسه قدم معهم وتخلى عنهم في طرطوشة، وكان غورتز قد تحدث معه عن محتويات الرسالة، فسبقهم الى سرقسطة (Zaragoza) وباح بما سمعه منه.

وازداد قلق السفراء وندموا على مغادرتهم المانيا. وجاء قوم يحدثونهم عن القوانين والعادات المرعية في تلك البلاد، وهو ان كل شخص يكتب او يتكلم ضد النبي محمد وتعاليمه يعاقب بالموت وهم يحملون كتابات تعتبر تجاديف فظيعة.

واتصل بهم اليهودي حسداي بن شبروت الطبيب والفيلسوف والسياسي، واصبح صديقهم الحميم ومرشدهم. وبالرغم من اعتقادهم بتجسسه عليهم لحساب الخليفة، فقد استناروا بنصائحه الرشيدة، ومنها ان جميع حركاتهم محصاة، فاذا سمح لهم بالخروج الى المدينة، فليصموا آذانهم عن الاستماع الى نداءات النساء ولا يجيبونهن حتى بالاشارة وإلا فيجلبون الويل على انفسهم. ويسمعون نصائحه رغم تحفظهم منه. ويستأنسون به ويستشيرونه فيما يجب عليهم عمله.

فقال لهم ذات يوم: « من الخطر ان تتقدموا الى الخليفة الناصر لدين الله بهذه الرسائل او تتحدثوا عن فحواها مع الآتين من البلاط. كونوا على حذر فيما تجاوبون، فأرى من صواب الرأي ان تعملوا الفكر فيما انتم صائرون اليه،

فالشريعة لا تشفق ولا ترحم ، فاحذروا ان تتحدوها مستهترين » .

وتمضي الشهور الطويلة وهم متسكعون في الخمول والبطالة ، الى ان دخل عليهم يوما ، في سجنهم الذهبي الجميل ، احد الاساقفة المعاهدين قائلا لهم: « ايها الاخوة ، عليكم ان تتقدموا من الخليفة وتقدموا له الهدايا فقط بدون الرسالة . تلك اوامر صدرت عن الناصر لدين الله وليست نصيحة مني اليكم » .

فأجابه يوحنا غورتز : « وماذا اعمل بالرسالة التي دفعها الي سيدي الامبراطور ؟ أليست هي السبب الوحيد في قدومي الى هذه الديار وتحملي المشقات ؟ ثم ان امير قرطبة هو البادىء بكتابة تلك التجاديف والبادىء أظلم» .

ـ تأملوا في حالتنا البائسة ، لقد ثقلت خطايانا ولذا كتب علينا ان نحمل نير الاجنبي الذي لا يدين بديننا ، والرسول يحرم علينا ان نقاوم الذين لهم علينا سلطان ، وعزاؤنا الوحيد هو السماح لنا باقامة شعائرنا الدينيــة على طريقتنا ، وحسبنا عليه علينا ديننا ، وفي ظروف مثل هذه نقلع عن كل ما من شأنه ان يسيء الى دينهم . فلا بد اذاً من مراعاتهم في كل ما يقولون ويأمرون، شرط ان لا يناقض تعاليمنا المسيحية ، فعليكم ان تعدلوا نهائيا عن فكرة تقديم الرسالة.

فحدجه يوحنا غورتز وبقي صامتـا برهة طويـلة ، ثم هز رأسه دلالة الرثاء لحال الاسقف وقال بوداعة : « ليت هذه الكلمات لم تخرج من شفتيــك انت الاسقف والمدافع عن الايمان ، والافضل للمؤمن ان يموت من الجوع الف مرة ولا يشارك الوثنيين والامم طعامهم لاجل خلاص نفسه. ولقد علمت من ناحية اخرى انكم اختتنتم لتكونوا قريبين من ديانة المسلمين ، وهذا مكروه وقبيح في نظر الكنيسة الكاثوليكية ، وكما قال بولس الرسول : الختان ينفع اذا كملت الناموس وان انت تعديت الناموس صارت ختانتك غرلة، وها انا بولس اقول لكم انه ان اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئا ، لانــه في يسوع المسيح لا الختان ينفع شيئا ولا الغرلة بل الايمان العامل بالمحبة .

فقال الاسقف العربي : « لقد احوجتنا الظروف ، فان لم نجارهـم في

طعامهم وشرابهم لا يتساهلون معنا في الاقامة معهم ؟ ».

فازداد الراهب الالماني حدة امام وداعة الاسقف العربي وتواضعه فقال: « لا اسمح قط بأن تداس الوصايا الالهية مراعاة لخاطر فلان او خوفاً منه. واذا كنتم لظروف خاصة قد سايرتم وجاريتم المسلمين ، كما اقررت» ، فانا لا اسايرهم، ولذا لا بد من تقديم الرسالة التي اوكلها الي سيدي الامبراطور ولو نالني ما نالني من التعذيب ولا أخشى في الحق لومة لائم وساعارض بشدة الذي يتجاسر ويهين الايمان الكاثوليكي الصحيح وان اتاني الموت من معارضتي هذه » .

فرجع الاسقف العربي يتعثر باذيال الخيبة وفشلت مهمته مع أخ له في الدين. وعن قليل يسمع الناصر من فم الالماني ما لم يكن يرغب في سماعه . ان دينه يحرم عليه الانصات الى التجاديف ضد نبيه ، فلماذا يسترسل هذا الراهب الالماني في عناده فيتعرض لطائلة العقاب الشديد وربما الموت ؟

ويبعث الخليفة رسلاً آخرين علهم يقنعون الراهب اللوريني ويلينون من صلابة عزمه ويتنصرون على عناده ، فليزعم انه اضاع الرسالة وبدلاً منها ، يلقي خطاباً لطيفاً مجاملاً وهذا يكفي ، فيرجع الى بلاده مثقلاً بالهدايا التي تساوي ثلاثة اضعاف الهدايا التي حملها الى الخليفة ، ومزوداً بالرسائل التي تطري امبراطور المانيا .

وفشلوا من جديد في مهمتهم .

وتقضي اشهر اخرى دون ان يفكر الراهب غورتز بالمثول امام الخليفة الا والرسالة بيده .

كان يسمح للسفراء بمغادرة سجنهم الجميل يوم الاحد فقط لاستماع القداس في الكنائس المسيحية . فيقترب مبعوث من قبل الخليفة ويدفع الى الراهب غورتز حقيبة من جلد الحمل فيتناولها الراهب دون ان ينظر ما فيها خشية ان تضطرب نفسه فلا يعود يستوعب القداس . وعند الرجوع الى قصره يفتح تلك الحقيبة

ويقرأ الرسالة الموجهة اليه من الخليفة ، فاذا كلها تهديد ووعيد له وللمسيحيين ، فانه لا يتردد عن تسليمه الى الموت هو ومن معه وجميع المعاهدين في مملكته ، فتأمل كم من النفوس تهلكها في عنادك، وعليك ان تؤدي حساباً عنها عند الله الذي يطلب منك ان تسعى لأجل السلام الذي نقدمه لك شرط ان لا تقاوم ارادتنا .

فدخل الراهب حزيناً الى منزل الضيافة دون ان يدري بأي رأي يأخذ ، وما عتم ان ظهرت له فكرة انارت بصيرته وهي الاستسلام الى مشيئة الله ، اليس الله الذي وضع النطق في فم الانسان ؟ كما يقول النبي داود .

وما دخل الدار حتى شرع يملي على امين سره الشماس غرامانو رسالة فحواها الاصرار على عناده غير عابىء بالتهديدات ، ومن بعض ما يقول فيها : « فليبق معلوماً لديكم كل مـــا سمعتوه من الذين بعثتموهم الي ، لقد ادركتم ان الموت لا يخيفني ، لان حياة اخرى افضل تنتظرني، ولا اكون المسؤول عن موت الالوف من المسيحيين بل انتم وحدكم المسؤولون وانتم فيما بعد ستكفرون عن هــذه الذنوب ، اما هم فانهم ينعمون في لذة الاستشهاد .

ولما قرأ الخليفة عبد الرحمن الناصر هـــذه الرسالة لم يغضب ولم يتخذ اي اجراء قمعي ، والمؤرخ يذكر ان هذا كان خوفاً ورهبة من الامبراطور الالماني ان يزحف اليه بخيله ورجله . ما اسخف عقل هذا المؤرخ الالماني ؟! هل فاته ما لاقى كارله في رونسفال وان الفرسان الاندلسيين قادرون على صد الغزاة ، واذ لم يتمكنوا وحدهم من صدهم فوراءهم افريقيا وهي لا تبخل على الخليفة القرطبي بالرجال والاموال اذا طلب اليها ، لقد فاته نبل وشهامـة عبد الرحمن الناصر لدين الله ، واعماه اجلاله لسيده الامبراطور حتى صوّر له سهولة غزوه، لاسبانيا واجتياحها دون صعوبة .

الا ان الامر ليس كذلك فقد جمع عبد الرحمن مستشاريه فنصحوه بالاناة تاركين الصنيع ليوحنا غورتز نفسه .

ولما علم هـذا بقرار الخليفة قال : « حسناً تصرفتم ، فلو انكم منذ البدء سلكتم هذا السبيل لما اضطررنا الى تحمل هذه الضيقة الطويلة القاسية . والرأي عندي ان يبعث خليفتكم احد السفراء الى سيدنا الامبراطور حتى يشير علي بماذا يجب ان اصنع في الرسالة التي سلمني اياها وانا مطيع اوامره .

فلم ير الناصر مانعاً من العمل بهذا الرأي، غير ان المشكلة في اختيار الرجل الذي يرضى بحمل الرسالة الى الامبراطور ، ليس من متطوع للمنفى المؤبد والاشراف القرطبيون يفضلون المكوث قرب ضفاف وادي الكبير على انتقالهم الى ضفاف الرين الملبدة بالضباب .

وبعد عناء طويل وجد الشخص الذي يقوم بتأديـة المهمة اسمه ربيع بن زيد Recemundo رومي الاصل يعمل في قصر المروان وأحب معرفة المكافأة التي تنتظره لقاء المغامرة الكبرى ويسأل يوحنا غورتز عن عادات البلاد الالمانية وطبائعهم ، واخلاق اطون الاول ، فـأرضاه جواب الوزراء بشأن الجوائز السنية التي سينالها واطمأن الى انه لا يركب اي خطر لما اكد له يوحنـا ان الامبراطور لطيف الجانب حلو المعشر لا يقطع رؤوس السفراء ولا يلقيهم في غياهب السجون ، بل يستقبلهم بكل حفاوة ويجلسهم على مائدته .

فرفعه الخليفة الى درجة اسقف وأجزل عليه الجوائز الغالية ، وهنـا نرى كيف ان الخليفة الذي لا يدين بالديانة المسيحية ينصب اساقفة من بين العلمانيين الذين لم ينالوا درجة الكهنوت حتى ولا الدرجات السابقة لها .

خرج ربيع بن زيد (Recemundo) من قرطبة في ربيع سنة ٩٥٥ بعد ان سيم اسقفاً ، يحمل الرسائل الى اوطون الاول فيجتاز فرنسا ويصل الى دير غورتز الذي ينتسب اليه الراهب يوحنا وهو يقع على مسافة قريبة من مدينـة ميس (Metz) عاصمة اللورين فيستقبله الاسقف ادلبرون ويدعوه للاقـامة في الدير بانتظار اوامر الامبراطور .

وصل الى الدير في اواخر فصل الصيف ودام انتظاره طيلة فصل الخريف

القاسي في المانيا ويأسف على ايام الشتاء الناعمة في الاندلس .

وفي اواخر يناير جاء من يقول له ليستعد لاستقبال الامبراطور اوطون الاول ، وتمت المقابلة في القصر الملكي في فرانكفورت في اليوم الثاني من شباط (فبراير) سنة ٩٥٦ والمصادف عيد دخول المسيح الى الهيكل .

ويقول المؤرخ الالماني ان هذا الاسقف الذي سامه عبد الرحمن الناصر تحدث عن تصلب وعزم الراهب غورتز اكثر مما تحدث عن شخصية الخليفة وبأس جنوده ، ويطلب الى الامبراطور ان يبعث سفيراً آخر بهدايا اخرى ورسائل ألطف لهجة من الاولى ، وان يمثل يوحنا غورتز امام الخليفة بدون رسالة ، وعلى الامبراطور ان يعمل كل ما في وسعه لتوطيد السلام والصداقة كي تتوقف غزوات القراصنة المسلمين .

لقد ظهر الغرض الحقيقي من تلك البعثة الى الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ، فجميع التهديدات التي اشار اليها في السابق ، تناثرت كالهباء ، فلا غزو اسبانيا ولا ويلات اخرى قادر على انزالها بالدولة الاموية في الاندلس ، بل على العكس جاء يرغب الى سيد قرطبة ان يساعده على ايقاف اعمال القراصنة الذين يهاجمون بسفنهم سواحل بلاد اوطون الاول ولا يقوى على صدهم ، اذا كان يعجز عن صد بعض القراصنة فكيف يريد ان يناوىء عبد الرحمن الناصر ويغزو بلاده ؟

يرجع رسموند الى الدير برفقة سفير جديد اسمه دودو من اشراف فردون (Verdun) فيقضيان الشطر الاكبر من الصيام ويشدان رحالهما في الثلاثين من مارس (آذار) ويصلان الى قرطبة في اوائل (يونيو) حزيران . يريد السفير الجديد ان يمثل حالاً امام الخليفة ، انه يحمل الاوامر بالعودة حالاً الى المانيا ولكن الناصر له رأي غير هذا الرأي : يجب ان تقدم اولاً الهدايا التي جاءت مع السفير الاول غورتز ، ثم على السفير الجديد ان يزور الراهب ويطلعه على اخبار بلاده واصدقائه وسيده والتعليمات الصادرة اليه .

مرت ثلاث سنوات على غياب غورتز من الدير . يتلقى الاوامر بالمثول امام الخليفة ، الا ان مظهره الخارجي لا يليق بمثوله امام الخليفة فهو رث الثياب اشعث الشعر فيوصونه بقص شعر رأسه وغسل جسمه ولبسه ثياباً لائقة ، ويرفض الانصياع لهذه الاوامر . والخليفة ظن ان رفضه هذا مسبب عن نقص في المال فبعث اليه بالنقود الذهبية ليبتاع له ما يحتاج لكي يظهر بمظهر اللائق امام امير المؤمنين .

فيأخذ غورتز المال ويقول : « الفقراء كثيرون وهم اكثر مني حاجة الى هذا المال والكرم العربي » ويصر على المثول امام الخليفة بالثوب الخلق .

فلم ير الخليفة بدأ من قبوله بثوبه الرهباني فيعين يوم المقابلة وتستعد قرطبة ليوم حافل انيق ، فصائل من الجيش مصطفة على جانبي الطريق المؤدي الى منزل السفراء ، الخيالة والمشاة يقومون بالعاب بالسيف والرمح زرعت الرعب في قلوب السفراء .

جرت المقابلة ابان الصيف في شهر يونيو (حزيران) . وصلوا الى القصر فتقدم الوزراء لاستقبالهم عند المدخل . فيجتازون قاعة ثم بهواً ثم غرفة ثم قاعات ، وفي كل منها نصبت عروش وزينت بأجمل الزينات ، واخيراً يصلون الى قاعة بسيطة تربع فيها امير المؤمنين على حصير وامامه مصحف . فلما وصل اليه يوحنا قدم له الناصر يده ليقبلها ، انها نعمة لم ينلها احد من رعاياه او من الرعايا الاجانب بل فقط الذين يستقبلهم بكل أبهة واعزاز واكرام .

وأشار اليه بالجلوس على الكرسي المعدة له ، ثم ساد بين الاثنين صمت طويل قطعه الخليفة الذي اخذ يقدم له الاسباب المبررة لهذا التأخير في استقباله ، وهذا اللطف الظاهر من عبد الرحمن خفف من حدة الراهب ، فجرت المحادثات ودية للغاية بدا فيها التفاهم . ولما طلب يوحنا الاذن من الخليفة بالعودة الى بلاده أجابه عبد الرحمن :

– كيف يكون الاسراع في الرحيل بعد هذا الانتظار الطويل ، فهل نفترق

قبل ان نتعارف معرفة كاملة ؟ هذه المقابلة الاولى لا تكفي ، ففي الثانية نكمل معرفتنا اكثر وفي الثالثة تزداد معرفة على معرفة ونوطد صداقتنا ، وبعد ذلك اذا أردت العودة الى سيدك نودعك كما يليق بك وبه من الاكرام والاعزاز .

فوافق يوحنا على هذا الكلام . ثم امر الخليفة ان يدخل دودو (Dudo) السفير الجديد مع امين سره والهدايا التي يحملونها من ملكهم الى امير المؤمنين .

وبعد ايام قليلة قابل عبد الرحمن الراهب مقابلة ثانية وأخذ يسأله عن قوة سلطان سيده والجيوش وعددها وعن الجاه والثروة والحاشية والبلاط والانتصارات التي أحرزها وفنون الحرب والخطط العسكرية والعلماء الذين يعيشون في حماه والشعراء الذين يحلون ايامه بأشعارهم .

ـ لا يوجد على وجه الارض ملك يضارع مليكي سلطاناً وعظمة واذا كنت لا تصدق قولي فالاختبار يدل على صحته .

فلم يغضب عبد الرحمن بل يبتسم للراهب وراح يداعب لحيته التي وخطها الشيب وصار يتحدث عن السياسة التي يجب ان يتبعها الملوك في المستقبل : محاربة الاقطاع وتوزيع السلطات ، ويقول ان ملككم لم يحسن الصنيع اذ انه لم يحتفظ بالسلطة الكاملة على ممتلكاته الواسعة بل وزعها بين الرجال النافذين ، فيبدأون بالتنافس فيما بينهم فتسود البغضاء، وبهذا لم يكن قد حملهم على طاعته بل على العكس يغذي كبرياءهم فيثورون ضده .

يرجع يوحنا دي غورتز الى بلاده الشمالية ويروي قصته بفخر ، لقد تكلم وجهاً لوجه مع عبد الرحمن الناصر لدين الله، أعلم وافضل واقوى ملك في العالم.

القسم الثالث

العَرَب في شمَالي افريقية

وقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم حتى تصلوا الى عبدالله بن سعد، وقد قدمت، عليكم عبدالله بن سعد، لما علمت من ثقته ودينه وحسن رأيه وشجاعته. واخذت عليه العهد والميثاق ان يحسن لمحسنكم ويتجاوز عن مسيئكم، ولا يجعله غرض الدنيا على هلاك رجل واحد منكم. وأرجو لعبدالله ان يقف عند عهدي وامري واوصيكم واياه ان لا يهولنكم كثرة العدو وقد علمتم ما أنزل الله عليكم حيث يقول: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله!»، أما علمتم ان أول هذه الامة ما نصروا إلا بكثرة الصبر وقوة اليقين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. استودعكم الله وهو خير الحافظين وسيروا على بركة الله وعليه فتوكلوا وبه فاتقوا!»

هذه وصية عثمان بن عفان في توديع جنوده الذاهبين الى غزو المغرب.

خرج عبدالله بن سعد الى غزو افريقية في عشرين الف رجل. ووصل الى أطرابلس ووجد الروم قد تحصنوا بها، فتركهم وسار أمامه ووجد السفن قد أرست بالسواحل فأخذها وجميع ما فيها من الرجال والمتاع. ثم رحل الى قابس فدخلها الروم وتحصنوا فيها فأشار عليه المسلمون ان يتركها وشأنها فسار حتى دخل افريقية.

وخرج ملكها جرجير في مائة وعشرين الفاً، فعرض عليه المسلمون الاسلام فامتنع لما رأى كثرة ما معه وقلة المسلمين. وحلف انه يزوج ابنته ذاك الرجل الذي يقتل عبدالله بن سعد. فنمي ذلك الكلام الى عبدالله بن سعد فقال: «لا يقتلنّ أحد منكم جرجير إلا نفلته ابنته وما معها!»

ذهب عبدالله بن الزبير بثلاثين من اصحابه وسلكوا طريقاً يسلكه الروم في الوصول الى ملكهم، فلما رآهم جرجير ظنهم من جنده حتى شهروا السلاح وقتلوه، وحمل المسلمون على عساكره فقتلوهم في السهل والوعر واخذوا مدينته فوجدوا اكثر أموالهم الذهب فسألوهم عن ذلك فقالوا لهم: «من بيع الزيت».

وسألوا ابنة جرجير: «هل عرفت قاتل أبيك»؟ قالت: نعم.

ولما عرض عليها عبدالله الثلاثين فارساً الذين كانوا مع عبدالله بن الزبير وهو ساكت فقالت لهم هذا قاتله.

فقال عبدالله بن الزبير : « ما قتلته لسببها ، وانما قتلته لما أرجو عند الله تعالى ، والله تعالى مطلع على نيتي ! »

فأعطاها له عبدالله بن سعد ثم أرسله بعد ذلك الى عثمان بفتح افريقية .

ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة ولى عقبة بن نافع وقال له : « أرجع الى افريقية » .

فذهب عقبة سريعاً حتى وصل الى القيروان ، فخلف فيها ولده مع بعض جيشه . ورحل مع عسكر عظيم حتى وصل مدينة باغاية فقاتلها قتالاً عظيماً حتى هزم جيوشها واخذ لهم خيلاً كثيرة ، وسار الى ممس فهزم أهلها ودخل الزاب الى تاهرت فوجد عليها جموع البربر والنصارى . وكان على تاهرت لواتة، وهوارة وزواغة ومطاطة وزناته ومكناسة ، فقاتلهم حتى هزمهم .

فتح المغرب الأقصى

فلما تفرغ عقبة من المغرب الاوسط دخل المغرب الأقصى سنة ٦٢ للهجرة. فوصل الى طنجة ووجد عليها يليان ، فأستأمن معه يليان ، فذهب عقبة الى مدينة وليلى بالقرب من فاس قبل بناء مدينة فاس ، فهزم جموع البربر واتبعهم الى درعة. ثم نزل الى بلاد الصحراء . ومن بلاد درعة الى تلمسان فدخل بلاد صنهاجة ونزل على أغمات . ونزل على مدينة نفيس حيث بنى مسجده المشهور . ثم سار حتى نزل بوادي سوس وسلك بلاد حاجة ثم بلاد رجراجة ثم بلاد صودة ، وايصرول. ثم رحل الى سرنو .

في سنة ٦٩ من الهجرة أرسل عبدالملك حسان بن النعمان الغساني في اربعين الفاً ، فسار حتى دخل على القيروان ، فسأل عن أي ملك عظمت شوكته بالمغرب الأوسط فقيل له ملك قرطاجنة » . بين تونس وقرطاجنة اثنا عشر ميلاً وبين

تونس والقيروان مائة ميل » .

فذهب حسان حتى نزل على قرطاجنة ودخلها بالسيف .

فسأل حسان عن أي ملك اعظم بأفريقية . فقالوا له :

« امرأة يقال لها الكاهنة ، وهي بجبل اوراس » .

فزحف اليها حسان فنزلت اليه حتى اجتمعوا الى وادي ترضى ، واقتتلوا حتى انهزم حسان وأسرت من اصحابه ثمانين رجلا ، واتبعته الى قابس ، ولما رأت الكاهنة ما فعل حسان أمرت بقطع اشجار افريقية وخراب مدنها وقالت : « ان العرب يطلبون المدائن والذهب والفضة ونحن لا نطلب الا المرعى » .

وكانت الكاهنة حين أسرت ثمانين رجلا من اصحاب حسان احسنت اليهم وارسلت بهم اليهم وحبست عندها خالد بن يزيد فقالت له يوماً : « ما رأيت في الرجال اجمل منك ولا اشجع وانا اريد ان ارضعك فتكون أخا لولدي . وكان لها ابنان احدهما بربري والآخر يوناني » . وقالت له : نحن جميع البربر لنا رضاع اذا فعلناه نتوارث به ، فعمدت الى دقيق الشعير فلتته بزيت وجعلته على ثديها ودعت ولديها وقالت كلا معه على ثديي ، وقالت لهم قد صرتم اخوة .

ولما وصلت المساعدة التي طلبها حسان من عند عبدالملك ، رحل الى الكاهنة ورحلت اليه ولم يبق بينهما الا يوم واحد . استدعت ولديها وخالد بن يزيد القيسي وقالت لخالد :

« أراك يا خالد ستنال عند سلطانكم منزلة عظيمة ، واولادي سينالون عند هذا الرجل منزلة وارى هذا الرجل يقتلني ويجعل رأسي على برذون يركض به الى المشرق » .

فقال لها خالد : ولماذا لم ترحل ؟

فقالت لهم : « الملوك لا يفرون » .

فركب خالد واولادها حتى استأمنوا من حسان واخبره خالد بمقالتها. فلما التقى حسان معها اشتدت عليه بالقتال حتى ظن المسلمون انه الفناء، فهزمها فاتبعها حسان حتى قتلها وقطع رأسها على بئر يقال له بئر الكاهنة .

فلما قتل حسان الكاهنة اذعن اهل المغرب للاسلام ، فأبى حسان ان يقبل منهم ذلك، حتى يعطوه اثني عشر الف فارس،رهائن يجاهدون مع العرب حيث جاهدوا ويقاتلون مع من كفر من البربر والروم . فأجابوه لذلك وأسلموا على يده . وولى حسان ولدي الكاهنة كل واحد على ستة آلاف رجل وترك معهم ثلاثة عشر رجلاً من العلماء يعلمونهم القرآن وشرائع دينهم فرجع حسان الى القيروان سنة ٨٢ من الهجرة .

وكتب حسان الخراج على من أراد ان يبقى على النصرانية من روم افريقية، فعزموا على الاسلام بنية صحيحة فبنوا المساجد .

وفي سنة ٨٩ للهجرة أرسل الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير الداخل على الاندلس .

فأرسل موسى ابنه مروان الى السوس الاقصى وأرسل زرعة بن ابي مدرك الى قبائل البربر الذين لم يأخذ حسان رهائنهم فأخذها : رهائن كتامة وزناتة وهوارة . فجمعهم مع رهائن حسان وولى عليهم طارق بن زياد ورجع الى افريقية وترك معهم سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الاسلام .

وبرهائن المصامدة جاز طارق بن زياد الى الاندلس ففتحوها في آخر يوم من رمضان سنة ٩٢ للهجرة وقتلوا فيها لذريق ملك القوط .

الأدارسة ، الأغلبيون والرستميون

في أواخر القرن التاسع كانت ثلاث دول تبسط نفوذها على افريقيا الشمالية: بنو اغلب في المغرب الادنى والمغرب الشرقي ، أما ملا رستم في المغرب الاوسط، ومملكة الادارسة في المغرب الاقصى .

فالاولى والثانية انقرضتا عند ظهور الفاطميين . كانت مملكة بني اغلب في حالة انحطاط تام عند ظهور الفاطميين وكانت عاصمتهم في القيروان او في الرقادة ، حياة متقاسمة بين ثورات في العشائر واغتيالات ومؤامرات ، وكانت سلطتهم تمتد حتى قسطنطينية .

والرستميون وعاصمتهم تاهرت ويحكمون المناطق الصحراوية من الجزائر ، وعلاقاتهم ودية مع جيرانهم البربر من قبائل الزناتة ، غير ان هذه المملكة كانت سريعة العطب ولم تقو على احتمال اندفاع الفاطميين فسقطت .

وفي المغرب الاقصى الموقف غامض ، الامويون يريدون ايقاف الفاطميين عند حدهم والا فان هؤلاء قد تحدثهم نفسهم بغزو الاندلس اذا ما تمت لهم السيطرة على مرافىء المغرب الاقصى .

الامارات في هذه المنطقة كثيرة وتعيش مستقلة الواحدة عن الاخرى : على ضفاف بحر الظلمات ، المحيط الاطلسي ، تعيش قبائل برغواطة ، وعلى ابواب شبه

الجزيرة الايبرية إمارة نكور . أما القسم الباقي من البلاد فكان تحت سلطة الادارسة المتحدرين من النبي (صلعم) .

يرجع نسبهم الى ادريس بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب .

دخل المغرب في سنة ١٧٠ للهجرة في امارة يزيد بن حاتم بافريقية وإمارة هشام بن عبد الرحمن الداخل بقرطبة واول ظهور بني مدرار بسجلماسة . وكان نزوله بوادي الزيتون بموضع يعرف بمدينة البلد وقيل بمدينة من ارض طنجه . والسبب في ذلك ان الحسين بن علي بن حسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب كان قد قام بالمدينة ايام موسى الهادي العباسي . ثم خرج الى مكة في ذي الحجة وخرج معه جماعة من اخوانه وبني عمه ومنهم ادريس . وبلغ ذلك الهادي فبعث اليه محمد بن سليمان بن علي ، وكانت الواقعة بفخ فقتل الحسين وأفلت ادريس هذا الداخل الى المغرب فوقع الى مصر وكان على بريدها واضح مولى صالح بن المنصور فحمل على البريد الى ارض المغرب فوقع بمدينة وليلة من ارض طنجة ، فاستجاب له من بها من قبائل البربر . ولما ولي الرشيد وبلغه امره بعث الى واضح فضرب عنقه .

الدولة العبيدية الشيعية

الشيعة تدعو الى امام معصوم فترسل دعاة الى سائر النواحي فلا ينجح لهم مسعى . ثم تفاوضوا وتراسلوا على ان يرسلوا داعياً الى المغرب يدعو الناس الى التسدين بحب اهل البيت . فاختاروا رجلاً منهم يسمى ابا عبدالله الصنعاني وجمعوا له مالاً يتقوى به على سفره .

سار الى موسم الحج فرأى في الموسم قوماً من اهل المغرب ، وكانوا نحو عشرة رجال من قبيلة كتامة ملتفين على شيخ منهم فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفتها، فتكلم ابو عبدالله « الداعي » في المذاهب ، ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتي

من براعة في النطق والعلم بالجدل الى ان سلب عقولهم بسحر بيانه ، فطلبوا اليه ان يرافقهم الى مصر فصحبهم في الطريق وصار يحدثهم بمذهبه ، الى ان أشربت قلوبهم بمحبته ، فرغبوا منه ان يسير الى بلادهم ليعلم صبيانهم ، لانه كان قد أخبرهم انه معلم الصبيان، فاعتذر لهم بعد الشقة ثم رضي وصحبهم الى القيروان. فراودوه على ان يصل معهم الى بلادهم وضمنوا له ما أراد من تعليم الصبيان ، فسار معهم ونزل في بيت شيخ كتامي وصار يعلم الصبيان .

أخيراً اطلع الشيخ على امره : « نحن انصار اهل البيت وقد جاءت الرواية فيكم يا اهل كتامة ، انكم انصارنا والمقيمون لدولتنا وان الله يظهر بكم دينه ويعز بكم اهل البيت وان الله يستفتح بكم الدنيا كلها ويكون لكم اجركم مضاعف . » فقال له الشيخ : « اني راغب فيما رغبتني به وانا أطوع اليك من يدك فمر بما شئت أمتثله » .

فبث دعوته في اقاربه ومن يختص به وقال له : « كلهم يا ابا عبدالله . » فقال لهم انتم انصار اهل البيت وشيعته ، حتى خلب عقولهم بحلاوة لفظه فلم يبرحوا حتى دخلوا في دعوته .

ولما حضرت وفاة الشيخ جمع اهله وقال لهم اوصيكم بهذا الرجل الا تختلفوا عليه .

فالتزمت كتامة الطاعة لابي عبدالله الداعي ، ودخلت قبائل كثيرة في دعوته. فقال لهم انا لا أدعوكم لنفسي. إنما أدعوكم لطاعة الامام المعصوم من اهل البيت الذي صفته كذا وكذا ، هو صاحب هذا الامر وانا متصرف بين يديه ، وهو لم يكن رأى هذا الرجل انما كان يسمع عنه من شيوخ اهل الشيعة .

صفا له امير البربر فشرع ينازل الحواضر ويحتل المدن الواحدة تلو الاخرى

وكان سيد افريقية آنذاك زيادة الله الثالث، حاول عبثاً ايقاف التقدم الكتامي ، المتوجه نحو جبال الاورس .

وكانت اول المعارك التي خاضها الدعي معركة كينونـة ضد ابراهيم بن حبشي ، فكانت بينهما ملحمة عظيمة من اول النهـار الى آخره ، ثم انهزم ابراهيم ووقع القتل في اصحابه فذهب كثير منهم ونجا في ظلمة الليل واشتغلت عنهم كتامة بالغنيمة والاموال والسلاح والسروج واللجوم وضروب الامتعة وهي اول غنيمة أصابها الشيعي واصحابه ، فلبسوا اثواب الحرير وتقلدوا السيوف المحلاة وركبوا بسروج الفضة واللجم المذهبة وصح عندهم مـا كان الشيعي يعدهم به من النصر .

ووقع الوهي على اهل افريقية وداخلهم الوهن والجزع ، وكتب ابو عبدالله الداعي الى عبيد الله الشيعي وهو يومئذ بسجلماسة يعلمه بالفتح . ووجه اليـه مالاً كثيراً .

وفي سنة ٢٩٤ خرج ابراهيم بن حبشي من الاربس للاقاة ابي عبدالله الشيعي بمدينة طبنة في النصف من محرم .

وفي سنة ٢٩٦ هجرية وصلت خيل ابي عبدالله الشيعي الداعي الى قصطيلية وانهزم ابو مسلم منصور وشبيب بن ابي الصارم .

ولما وصل الخبر بانبساط جيوش ابي عبدالله الى زيادة الله الثالث هاله واضطربت احوال الجند .

وفي هذه السنة نفسهـا أي ٢٩٦ هجرية زحف ابو عبـدالله الشيعي الى الاربس ونازلها وبها ابراهيم بن ابي الاغلب في عسكر افريقية وجمهور اجنادها فقاتلها حتى أخذها عنوة ودخلها لست بقين من جمادى الآخرة ، فهرب ابراهيم ابن الاغلب وركب الناس بعضهم بعضاً ، وقتلهـم الشيعي اجمعين ، حتى كانت الدماء تسيل من ابواب المسجد كما يسيل الماء من وابل الغيث . وقد قتل داخل المسجد ثلاثين الف رجل . وكان قتلهـم من بعد صلاة العصر الى آخر الليل . فلما أصبح وقد فرغ من القتل والنهب والسبي انصرف الى باغاية .

زيادة الله .

فدفع الفرس ونجا هاربا حتى لحق بزيادة الله .

بلغ عبدالله الشيعي هروب زيادة الله فتحرك من الاربيس يريد القيروان ،

فهال الناس امره وخافوا على انفسهم .

اقبل الى مدينة رقادة في سبعة عساكر ثلاثمائة الف بين فارس وراجل ،

فالتقى به اهلها على ساقية ممس وسلموا عليه ووعدهم بالاحسان والعدل .

وولى الحكام على المدن .

استعد ابو عبدالله للغزو الى سجلماسة ، وكان بها عبيد الله الشيعي وابنه ابو القاسم محبوسين . فسار ابو عبدالله حتى حل بمدينة تاهرت عاصمة الرستميين فدخلها بامان وقتل من الرستمية يقظان بن ابي اليقظان وبعث برؤوسهم الى اخيه ابي العباس وابي زاكي خليفته برقادة وطوفت بالقيروان ونصبت على باب مدينة رقادة وانقضت دولة بني رستم بتاهرت وكان لها مائة وثلاثون سنة.

وصل سجلماسة يوم السبت لست خلون من ذي الحجة فاحاط بها في جموعه وحاربها يوم الاحد لسبع خلون منه ، ففتحها في هذا اليوم واخرج منها عبيدالله الشيعي وابنه القاسم ، وكانا محبوسين في غرفة عند امرأة اسمها مريم بنت مدرار .

فلما بصر به ابوعبدالله الشيعي ترجل له وخضع بين يديه وبكى من فرط سروره ثم مشى امامه وسلم اليه الامر وقال لمن معه : « هذا مولاي ومولاكم قد انجز الله له وعده واعطاه حقه » .

وانتهب ابو عبدالله الشيعي ورجاله سجلماسة واحرقت وهرب منها اليسع صاحبها في جماعة من بني عمه ليلا ، فطلبه الشيعي فلم يقدر عليه .

وفي سنة ٢٩٧هجرية غدر قوم من البربر يعرفون ببني خالد باليسع بن مدرار واستأمنوا به الى ابي عبدالله الشيعي فأمنهم .

واتصل الخبر بزيادة الله في اليوم التالي وهو يوم الاحد لخمس بقين من جمادى الآخرة ، فجعل الناس يفرون من رقادة. وزيادة الله الثالث أخذ في شد الاحمال بما خف من الجواهر والمال ، فأخذت جـارية من جواريه عوداً وضعته على صدرها وغنته لتحركه على حملها معه فقالت :

لم أنس يوم الوداع موقفها	وجفنها في دموعها غرق
وقولهـا والركاب سائرة	تتركنـا سيدي وتنطلق
استودع الله ظبية جزعت	للبين والبين فيه لي حرق

فدمعت عينا زيادة الله عند سماعها وشغله سوء الموقف وضيق الحـال عن حملها معه .

وخرج من مدينة رقادة متوجهاً الى مصر .

وأصبح الناس الى مدينة رقادة فانتهبوهـا وأخذوا من اموال بني الاغلب الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف ورجع القوى يأخذ من الضعيف مـا سبقه اليه .

وكانت ولاية زيادة الله الثالث بن ابراهيم بن الاغلب خمس سنين واحد عشر شهراً واربعة ايام . وكانت امارة بني الاغلب بافريقية مائة واحدى عشرة سنة وثلاثة اشهر .

ثم ان ابراهيم بن الاغلب المنهزم من الاربس اقبل الى القيروان فيمن معه من القواد ، وجعل يظهر عندهم عتب زيادة الله الثالث ويأخذ في انتقاصه .وقال للناس ان كتامة مفسدون في الارض ، أمدوني بالرجال والاموال .

قالوا له بلدنا لا يعرف الفتن ، ونحن لا نقوم بالحروب وانت لم تستطع دفع كتامة بالعساكر والسلاح والمال ، فكيف نقوى نحن على دفعهم بأموال الرعية. ثم صاح الناس به : « لا طاعة لك علينا ولا تبعة في اعناقنا فاخرج عنا » .

وولى عبيد الله على مدينة سجلماسة ابراهيم بن غالب وترك معه خمسمائة فارس من كتامة ورحل بالعساكر الى افريقية .

وصل عبيدالله الى مدينة رقادة ومعه ابنه ابو القاسم ولقيه وجوه القيروان فدعوا له وهنأوه ، وتسمى عبيدالله بالمهدي .

لنرجع الى الادراسة . كنا تكلمنا عن ادريس كيف هرب الى مصر ودخل بعد ذلك الى المغرب ومات سنة ١٧٥ للهجرة ، وخلفه مولاه راشد على البربر .

ترك ادريس جارية بربرية اسمها كنزى ، فولدت له غلاماً سمي باسم ابيه ، فولي ادريس الثاني هذا سنة ١٨٧ وهو ابن احدى عشرة سنة .

وكانت عدوة القرويين غياضاً ، في اطرافها بيوت مززواغة فارسلوا اليه ودبر في البناء عندهم . فكان ابتداء مدينة فاس سنة ١٩٣ . وغزا نفزة ووصل الى تلمسان . ثم رجع ووصل الى وادي نفيس فافتتح بلاد المصامدة وتوفي مسموماً سنة ٢١٣ هجرية .

خلفه ابنه محمد بن ادريس ففرق البلاد على إخوته بأمر جدته كنزى فأعطى القاسم طنجة وما يليها ، وأعطى عمر صنهاجة ، وأعطى داود هوارة وتاملت ، وولى عيسى ويحيى وعبدالله بلاداً اخرى .

وثار عليه عيسى ونكث طاعته فكتب الامير محمد بن ادريس الى اخيه القاسم يأمره بمحاربته فامتنع وكتب ايضاً الى اخيه عمر فأجابه وسارع الى نصرته . وكان تقدم بين عمر وعيسى تنازع ، وتوفي عمر ببلد صنهاجة ونقل الى فاس وهو جد الحموديين .

ثم توفي الامير محمد بن ادريس فولي يحيى بن محمد بن ادريس ، فولى يحيى هذا اعمامه وأخواله اعمالاً ، وولى حسيناً القبلة من مدينة فاس الى اغمات ، وولى داود المشرق من مدينة فاس ومكناسة وهوارة ، وولى القاسم غربي فاس ولماتة وكتامة .

وتشاغل يحيى عما كان يحق عليه من سياسة امره فاستثال اخوانه القبائل وقالوا لهم « انما نحن بنواب واحد وقد ترون ما صار اليه اخونا يحيى من اضاعة امره » . فقدمهم البربر على انفسهم .

وكان يحيى منهمكاً في الشراب ، معجباً بالنساء ، وقيل انه دخل يوماً الحمام على امرأة فتغير عليه اهل فاس فكان ذلك سبب هلاكه ، فهرب الى عدوة الاندلسيين ومات بها .

وكانت بنته زوج علي بن عمر جد الحموديين .

ثم ولي علي بن عمر بن ادريس ، وذلك انه لما هلك يحيى أتى صهره علي هذا فدخل عدوة القرويين وملكها وانتقل الامر عن بني محمد بن ادريس الى بني عمر بن ادريس .

وقام عليه عبد الرزاق الخارجي الصفري من مديونة ، فدارت بينهما حروب كثيرة الى ان هزمه الخارجي واستولى على فاس . وملك عبد الرزاق عدوة الاندلسيين وهم الذين طردوا من قرطبة ، ولم يملك عدوة القرويين . فبعثوا الى يحيى بن القاسم بن ادريس الذي يعرف بالمقدام وقدموه على انفسهم ، فملك عدوة الاندلسيين وأخرج منها عبد الرزاق .

وطالت ايام يحيى هذا بفاس وما ولاها من البلاد الى ان قتله ربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ للهجرة .

ثم ولي يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس بن ادريس ، ورجع الامر الى بني عمر بن ادريس خمس عشرة سنة الى ان قدم مصالة بن حبوس في سنة ٣٠٧ ، وكان مصالة هذا قد قدم المغرب في الردة الاولى سنة ٣٠٥ فابتدأ بالاحسان والاكرام لموسى بن ابي العافية وقدمه على ما استولى عليه من بلاد المغرب .

وكان يحيى بن ادريس صاحب فاس يغير عليه ويقطع عنه امله . فلما رجع مصالة في سنة ٣٠٧ أقام بالمغرب خمسة اعوام . فكان موسى بن ابي العافية

يسعى في ضرر يحيى وحنقه عند مصالة لما تقدم بين موسى ومصالة من المودة ، ولما كان بين موسى ويحيى بن ادريس من العداوة .

فعزم مصالة بن حبوس على القبض على يحيى فلم يزل يتحيل عليه حتى اقبل الى معسكره فقبض عليه وانتزع ما كان بيده وامر باستجلاب ماله فأحضر له من فاس .

وولي فاس عامل مصالة وانفصل مصالة عن الغرب وبقي موسى ابن ابي العافية فيه اميراً .

ثم قام حسن بن محمد سنة ٣١٠ الملقب بالحجام فأوقع بموسى في موقعة قتل لموسى ابن ابي العافية فيها ولد اسمه منهل ، وملك حسن هذا فاساً وما يليها نحو سنتين . ثم غدره اهلها وقدموا حامد بن حمدان الهمداني ويعرف بالوزي فأخذ حامد حسن بن محمد وسجنه وأرسل الى موسى ابن ابي العافية فأتاه بجيوشه ودخل فاس وتغلب عليها وأراد قتل حسن لاجل ابنه منهل فقتل حسن .

واستولى موسى ابن ابي العافية على ملك فاس وبلاد المغرب بعد موت حسن الحجام ، وسمي كذلك لانه حارب بني عمه فضرب رجلاً بحربة صادف فيها موضع المحاجم .

ولما استولى موسى ابن ابي العافية على فاس قتل عبيد الله ابن ثعلبة بن محارب الازدي وقتل أخاه محمداً وهرب والدهما ثعلبة بن محارب الى قرطبة .

وأراد موسى قتل حامد بن حمدان الهمداني الذي كان السبب في دخوله فاس فهرب منه وجاء الى المهدية . وأجلى موسى المذكور بني ادريس اجمعين عن مواضعهم ، وصاروا في مدينة حجر النسر مقهورين ، وهو حصن منيع بناه ابراهيم بن القاسم بن ادريس سنة ٣١٧ للهجرة .

واستخلف موسى بن أبي العافية ابنه مدين على فاس فبقي بها حتى قدم حميد

ابن بصال ولما وصل هذا الاخير الى بلاد المغرب ولى على فاس حامد بن حمدان. وتظاهرت بنو ادريس على قائد موسى بن ابي العافية وغنموا اكثر عساكره.

هذا كله كان يجري على الضفة الاخرى من البحر المتوسط في شمالي افريقية. يتلخص الموقف هكـــذا : عبيد الله الشيعي يبسط نفوذه على المغرب الادنى، والمغرب الاوسط وعلى قسم كبير من المغرب الاقصى ، الأدارسة معتصمون في حصنهم المسمى « حجر النسر ».

وعلى الضفة الاخرى من المتوسط كان الامير عبدالله منهوكاً بالثورات الداخلية ، فلم يستطع ان يعير افريقية وشؤونها أي اهتمام.. ولا ندري كيف ترك هذه العلاقات تتدهور بينه وبين الرستميين والمدراريين والصالحيين الذين كانت تربطهم علاقات طيبة مع امراء قرطبة الذين سبقوا عبدالله. وهذا الامير وقف موقفاً معادياً من بني الأغلب والأدارسة.

إلا ان الحركة الفاطمية او الشيعية او العبيدية، فلنسمها بهذه الاسماء الثلاثة، كان لا بد ان يصل تأثيرها الى الاندلس كما سنرى في الفصول الآتية .

عبدالله الشيعي

في فصل سابق تحدثنا عن قيام الدولة العبيدية او الفاطمية واحتلالها تقريباً كل شمالي افريقيا من طرابلس الغرب حتى المحيط الاطلسي بمساعدة عبدالله الشيعي والملقب بالداعي ، فسلم زمام الامور لعبيدالله الشيعي لما قدمه للناس قائلاً : « هذا مولاي ومولاكم » .

فلما اصبح عبيدالله سيد الموقف اظهر عن حزم وجرأة في تسيير الشؤون فبالغ في القسوة على انصاره المخلصين من قبيلة كتامة التي حاربت لاجله حتى اوصلته الى مرتبة كانت حلماً جميلاً يراود خياله وبفضل هذه القبيلة تحقق هذا الحلم .

وبين المغضوب عليهم ايضاً عبدالله الشيعي او الداعي الذي شيد له هذا المجد العريض ، جازاه جزاء سنمار . خشي من شعبيته في صفوف الجند ، ومن احتمال انقلابه عليه اذ عدا طوره بالصلف وانكر على عبيدالله عصمته هو الملقب نفسه بالمهدي ، فكتب الى عامله بطرابلس الغرب يأمره بقتل عبدالله الشيعي وغيره فدس لهم الوالي من اراح عبيدالله منهم في سنة ٩١١ مسيحية .

وفي السنة التالية مات الامير عبدالله في الاندلس وتولى الحكم بعده حفيده عبد الرحمن الناصر لدين الله ، فورث عن جده الراحل مملكة متقسمة الاجزاء ، فراح يعمل على جمع كلمتها كما رأينا الى ان دانت له الامور في جميع انحاء

الاندلس ، ونتساءل ماذا كانت حاله لو ان الفاطميين الذين بعد ان تغلبوا على الاغلبيين والادارسة والرستميين في المغرب، زحفوا بجيوشهم الظافرة على الاندلس ولهم الاسطول الكافي لنقلهم ولهم العدة والعدد للاستيلاء على الاندلس بالسهولة نفسها التي استولوا بها على شمالي افريقيـا ، لا سيما وانهم يكرهون الامويين كرههم للعباسيين وربما اكثر ، غير ان هذا الامر لم يحدث لحسن حظ الناصر لدين الله ، وجه الفاطميون انظارهم نحو المشرق كما سنرى لان سقوط القيروان في يد عبيدالله لم يكن سوى مرحلة تتلوها مراحل للوصول الى الشرق عن طريق ليبية ثم مصر .

غير ان هذه السيطرة على شمالي افريقيا لم تكن تامة فالثورات كانت تنطلق من هنا وهناك كلما وجدت هذه الشعوب المغلوبة على امرها سبيلاً الى التمرد على الحكم الشيعي الجديد ، فيضطر عبيدالله الى ارسال حملات تأديبية ، فانه ما كاد يتسلم زمام الحكم اي في السنة نفسها التي مات بها عبدالله الاموي في الاندلس ، اضطر الى ارسال جماعـة من قواده الى المغرب الاوسط اي منطقـة الجزائر الحالية ، لمحاربة قبيلة زناتة التابعة في الاصل للامامـة الرستمية ، وكانت هذه القبائل قد استردت عاصمة الرستميين تاهرت التي كانت قـد سقطت في ايدي العبيديين وولوا عليها والياً اسمه دواس ، فثاروا على الوالي وارادوا قتله .

جرت معركة عظيمة بين الزناتة والقوات التي ارسلهـا عبيدالله لقمعهم ، في موضع يعرف بفك مديك ، قتل فيها من الزناتة عـدد لا يحصى وفتحت مدينة تاهرت من جديد يوم الثلاثاء لاربع ليـال خلون من صفر من السنة نفسها فقتلوا الرجال وسبوا النساء والذرية ونهبوا الاموال .

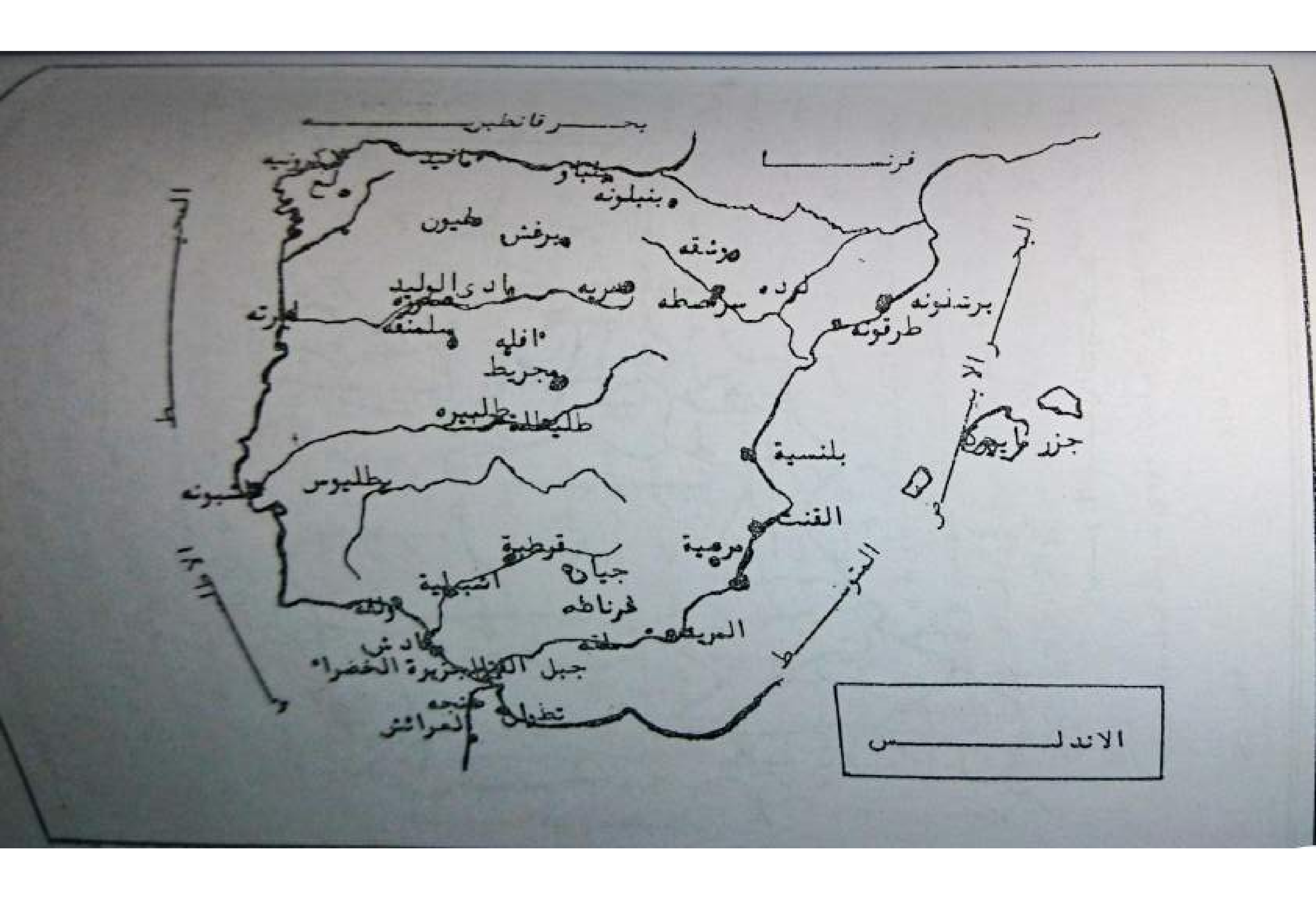
ثم ولى عبيدالله على مدينـة تاهرت مصالة بن حبوس بن منـازل بن بهلول المكناسي ويعتبر من افضل القواد الذين عرفهم عبيدالله المهدي ، امـا دواس العـامل السابق على تاهرت فقد انصرف الى مدينة رقـادة ولم يلبث عبيدالله ان قتله .

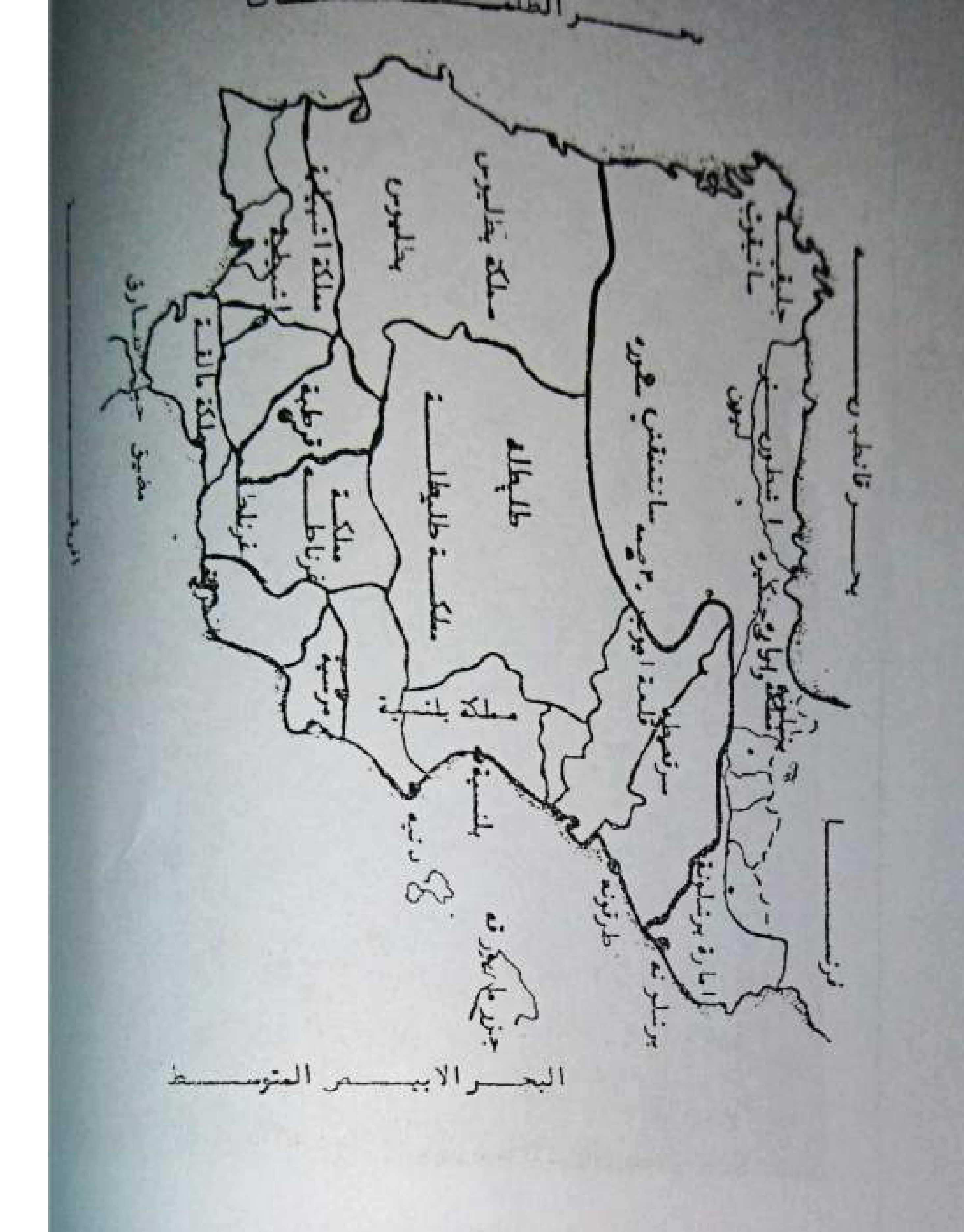


...أمير المؤمنين ان هذه المخلوقة الناعسة تحاول ان تخطف مني ابني عكازة شيخوختي



القاعة الكبرى في مدينة الزهراء


الاندلس
بحر قانطبريه
فرنسا
بنبلونه
طليطلة
بلنسية
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
جيان
مرسية
المرية
جبل الفتح
الجزيرة الخضراء
برشلونه
طرقونه
سرقسطه
وشقه
مجريط
بطليوس
طبيره
وادي الوليد
برغش
طميون
سلمنكة
افلية
لبونه
العرائش
طنجه
تطوان
جزر
البحر المتوسط
البحر المحيط



الخط الفاصل بين الممالك الاسلامية في الجنوب والمسيحية في الشمال

جاءت سنة ٩١٤ (٣٠١) قام ولي العهد ابو القاسم محمد بغزوة وصل فيها الى الاسكندرية ثم اضطر للعودة الى افريقيا تاركا منطقة برقة في ثورة تختدم، وطرابلس حاولت ان تخلع الفاطميين، وصقلية كانت على وشك السقوط في يد الخليفة المقتدر العباسي.

كل هذه الثورات حملت عبيدالله على التفكير انه حتى ذلك الوقت لم يعمل سوى الاستيلاء على اراضي احتلها له الداعي، ومن ناحية اخرى فان ثورة الخوارج لم تنطفىء، فرأى ان يبني عاصمة جديدة على رابية وقريبة من البحر يمكن المدافعة عنها براً وبحراً بواسطة الاسطول الضخم الذي ورثه عن بني الاغلب.

سماها المهدية نسبة اليه هو الذي اطلق على نفسه اسم المهدي. وبينها وبين القيروان ستون ميلاً، وكانت القيروان هذه اعظم مدن المغرب طراً.

ادرك الناصر لدين الله الخطر المحدق به من اسطول فاطمي قوي، فتوجه الى الجزيرة الخضراء لتعويم سفن جديدة، واقام مراقبة شديدة على الساحل الجنوبي، والقصد من عمله هذا قطع كل علاقة بحرية بين اسبانيا والفاطميين في افريقية، هذا من جهة ومن جهة اخرى منع وصول الامدادات الى عدوه ابن حفصون كبير الثوار في الاندلس، لان ابن حفصون هذا لما علم باستيلاء عبيدالله الشيعي على افريقية وجه اليه رسالة يقدم له فيها طاعته وانه يصلي باسمه في المساجد التي تقع ضمن نطاق الاراضي المحررة من المملكة الاموية في الاندلس.

بكلمة لم يحاول الفاطميون والاندلسيون القيام بأي عداء سافر الواحد تجاه الآخر، بل اقتصر النشاط عند الفريقين المتنافسين على خلق شبكة من التجسس لدى الفريق الآخر، ليعلم الى اي درجة وصلت اعمال التهدئة عند خصمه، لانه كما رأينا، الملكان يحاولان ان يوحدا بين اجزاء مملكتهما المتفككة نتيجة الثورات والقلاقل التي تشب من هنا وهناك.

ولما جاءت سنة ٩١٧م = ٣٠٤هـ اعتقد المهدي عبيدالله ان قد حانت الساعة

للهجوم في اتجاه الغرب ، فامر الزعيم المكناسي مصالة بن حبوس حاكم تاهرت ليهاجم سعيد بك صالح في ناكور ، وكان قد سبق فوجه الى سعيد رسالة انذار يطلب اليه فيها التسليم ، ويختمها بابيات كثيرة نذكر بعضها .

فان تستقيموا استقم لصالحكم وان تعدلوا عني اقتلكم عدا
واعلو بسيفي قاهراً لسيوفكم وادخلها عفواً واملؤها عدا

فاجابه شاعرهم قائلاً :

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
ومـــا انت الا كافر ومنافق تميل من الجهـــال في السنة المثلى
وهمتنا العليـــا لدين محمد وقد جعل الرحمن همتك السفلى

وتجاه هذا الرد لم يجد عبيدالله وسيلة سوى الكتابة الى مصالة قائده فتوجه هذا الى ناكور واحتلها في ٢٦ حزيران ٩١٧ – ٣٠٥ وسبى النساء والذرية . وبعد ان اقـــام في المدينة بضعة اشهر انصرف الى تاهرت وكتب بالفتح الى عبيدالله وبعث اليه برأس سعيد بن صالح ورؤوس اصحابه فطوفت بالقيروان .

ثم ان بني صالح خرجوا فارين بانفسهم الى الانــدلس معتصمين بما تناهى اليهم من فضل امير المؤمنين الناصر لدين الله فنزلوا بمرسى مالقه ، وعهد بانزالهم والتوسعة عليهم وبعث اليهم بضروب الكسوة مــا احتاجوا اليه وخيروا في القدوم الى دار الخلافة او المقام في ذلك المكان فاختاروا المقام في بره .

وكان مصالة قد استخلف على ناكور رجلاً يقال له ذلول وانصرف الى تاهرت كما رأينا ، فافترق عن ذلول من كان معه وبقي في فل من المشارقة .

فــما بذلك بنو سعيد بمالقة فعبروا البحر في مراكب مختلفة في ليلة واحدة واتفقوا على ان من وصل اليهــا قبل فالولاية له ثقة منهم برعيتهــم . وكانوا ادريس وصالح والمعتصم ، فــوصل صالح من ليلته فتسامى البربر بقدومـــه

فسارعوا اليه وعقدوا له الامارة ولقبوه باليتيم وزحفوا الى ذلول واصحابه فقتلوهم جميعاً .

وكتب صالح بالفتح والنصر الى الناصر لدين الله فامر بامداد صالح بالاخبية والآلات والبنود والطبول فتوطد الملك بالمغرب لصالح بن سعيد .

استقبل امير قرطبة هذا النبأ بارتياح كبير واعتبره نصراً مبيناً فـارسل هدايا نفيسة الى اولاد صالح واذاع الخبر في جميع انحاء الاندلس . وصالح من جهته اعلن على رؤوس الاشهاد ولاءه لعبد الرحمن .

وهكذا فان الخليفة الامـوي بعد خمس سنوات من توليه الحكم في قرطبة وجد ذاته عن قصد او عن غير قصد منغمساً في شؤون افريقية الداخلية .

لم يقم الفاطمي برد فعل في الحـال تجاه الفشل الذي مني به في ناكور . ومرت ثلاث سنوات دون ان يوجه الشيعي اي قوة لمحاربة بني صالح ، الى ان جاءت سنة ٩٢٢ – ٣٠٨ وجه قائده الشهير مصالة بن حبوس لمهاجمة الحـاكم الادريسي يحيى الرابع كما رأينا في كلامنا عن الادارسة فاضطر الادريسي هذا بعد فشله في ساحة الوغى الى الاستسلام للقائد الفاطمي .

وفي سنة ٣٠٩ هجرية فتح مصالة بن حبوس مدينة سجلماسة وقتل بها احمد ابن مدرار ، توجه الى المهدية ليقدم لرئيسه عبيدالله حساباً عما فعل في حملاته في المغرب الاقصى .

وكان مصالة بن حبوس قد ولى قريبه موسى بن ابي العافية على المقاطعات التي استولى عليها من الادارسة . وموسى هذا من قبيلة مكناسة وبسط نفوذه على مساحات شاسعة من الاراضي استولى عليها من سلاطين فـاس ، وكان في بادىء الامر يخدم مصالح الفاطميين ثم قدم الطاعة لامير قرطبة كما سنرى .

ومنذ تولي بني صـالح الامور في ناكور اخذ النـاصر يتتبع باهتمام كلي الاحداث الجارية في افريقية وراح يفتش عن عملاء بين الزعماء الذين لا يخضعون

للأدارسة .

وقع رسله على قبائل مغراوة التابعة للزناتة ، وكانت لهم روابط تربطهم بالامويين في الاندلس منذ القرن الثامن ، وكان زعيمهم محمد بن خزر .

كان المهدي عبيدالله بشك في ولاء هذا الزعيم للفاطميين فأمر قائده الامير مصالة بن حبوس مهاجمة ابن خزر لارغامه على طلب الصفح من الفاطميين، فأخرج مصالة خيالته الى بعض نواحي ابن خزر وبقي في نفر من اصحابه .

علم ابن خزر بالامر فقصد نحو مصالة ودارت حرب عظيمة قتل فيها مصالة ابن حبوس وانهزم اصحابه يوم الجمعة لعشر بقين من شعبان .

وفي السنة التالية لم تنتصر جيوش الفاطميين لان قائدهم موسى بن ابي العافية انهزم امام الحجام كما رأينا في كلامنا عن الادارسة وقتل له ابن اسمه منهل، غير ان موسى هذا انتقم لابنه من الحجام الذي سلم الى موسى بن ابي العافية فقتله بابنه سنة ٩٢٨ - ٣١٥ .

ومحمد بن خزر زعيم قبائل مغراوة الحق هزائم شنعاء في قوات الفاطميين المرسلة ضده .

وتجاه هذه الظروف المواتية رأى عبد الرحمن الناصر ان يحتل مركزاً على الشاطىء الافريقي ، وعمد الى تنفيذ فكرته فانه في سنة ٩٢٧ - ٣١٤ امر باحتلال مليلية وعززها . وكانت هذه المحاولة الاولى التي يقوم بها امير قرطبة لفرض حمايته على المغرب . وفي الوقت نفسه حاول ان يكون على علاقة ودية مع محمد بن خزر عدو الفاطميين وقاهر جيوشهم في المغرب الاوسط فبعث اليه سنة ٣١٦ القاضي محمد بن عبدالله بن ابي عيسى كسفير .

ولما رأى عبد الرحمن الناصر انه لم يعد من خوف عليه من الادارسة الذين اصبحوا مهيضي الجناح بعد اضطرارهم الى اللجوء الى معقلهم المسمى ، حجر النسر اخذ في التفاوض معهم وان كانوا من اتباع علي .

ماذا كان موقف الفاطميين تجاه هذا التدخل السافر من قبل عبد الرحمن الناصر في شؤون افريقية ؟ سار موسى بن ابي العافية قائد الفاطميين الى مدينة تاكور العاصمة للناصر ، وصاحبها يومئذ المؤيد بن عبد البديع بن ادريس بن صالح ، فحاصره فيها حتى تغلب عليها واستباحها وقتل المؤيد وهدم اسوارها.

وبعد هذا الانتصار الساحق على تاكور سار يريد بني محمد وعميدهم المعروف بابن ابي العيش صاحب جراوة وهي اشرف المدائن فأخذها وهرب ابن ابي العيش . وصار في ملك موسى بن ابي العافية من احواز تامرت الى السوس الأقصى .

دخول سبتة

الضربات بين الامويين والفاطميين متقابلة ، في سنة ٩٣١ - ٣١٩ توجه اسطول اموي بقيادة فرج بن عفير الى مدينة سبتة وانزل قوة من الجيش لم تلاق اي صعوبة في احتلال المدينة ومنذ ذلك الحين صارت الصلوات في المساجد تقام باسم امير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله .

ان بعض الفقهاء يذكر في شأن سبتة حديثاً عن رسول الله قد اختلف الناس في امره قال : « مدينة بالمغرب سمعت رسول الله ﷺ يقول انها على مجمع بحري المغرب وهي مدينة بناها سبت بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام واشتق لها اسماً من اسمه فهي سبتة ودعا لها بالبركة والنصر فلا يريد احد بها سوءاً الا رد الله دائرة السوء عليه » .

ومدينة سبتة مدينة ازلية على ضفة البحر الرومي وهو بحر الزقاق الداخل في البحر المحيط، وهي في طرف من الارض والبحر محيط بها من كل ناحية الا موضعاً ضيقاً جداً، لو شاء اهلها ان يصلوه بالبحر لفعلوا فتصير من جزر البحر ويجلب الماء الى حماماتها من البحر واهلها عرب وبربر ولم تزل دار علم. ويشرف عليها جبل منيف داخل في البحر والبحر محيط به ويلقط في بعض نواحي هذه

الجبل ياقوت صغير الجرم عريق في الجودة . وبحرها يستخرج منه المرجان.
سميت سبتة لانقطاعها في البحر . تقول سبت النعل اذا قطعته .

قال العذري كان ملك من ملوك القوط بالاندلس يسمى بردوش ، فجاز البحر الى سبتة لمحاربة البربر فحاصرهم ثم تألفوا عليه فامكنتهم منه غرة ولم ينج منهم الا القليل . ورجع بردوش الى الاندلس وبقي البربر فيها الى ان دخلها الروم ثانية .

وكان فيها يليان فخرج الى عقبة بن نافع فاتح المغرب ، بهدايا وتحف فامنه عقبة واقره على موضعه . ثم دخلها العرب بعد ذلك بالصلح . ثم قام البربر بطنجة وزحفوا اليها فاخرجوا ما كان فيها وخربوها وبقيت مسكنا للوحوش مدة .

ثم دخلها رجل من غمارة يسمى ماجكسن فعمرها واسلم ورأس فيها . ثم وليها ابنه عصام وكان يحكم فيها برأي فقهاء الاندلس . ثم دخلها قوم من قلعة فاشتروا فيها ارضا من البربر وبنوا فيها دوراً ، وكانوا يؤدون الطاعة لبني ادريس .

وكانت سبتة مطمح همم ملوك العدوتين ، وقد كان للناصر المرواني صاحب الاندلس عناية واهتمام بدخولها في ايالته ، حتى حصل له ذلك ومنها ملك المغرب وبها اشتد سلطانه وملك البحر بعدوتيه وصار المجاز في يده ، وتوطدت طاعته بارض المغرب . وكان اول من سما الى ذلك من ملوك الاندلس . واكرم وجوه اهل سبتة الذين جنحوا الى طاعته ورفع منازلهم وقضى حوائجهم ووصلهم وخلع عليهم وعلى قاضيهم حسين بن فتح .

وليها لبني امية فرج بن عفير .

احمد بن عبد الصمد الغرناطي .

محمد بن حزب الله ، عزل ووليها

محمد بن مسلمة .

ولم يزل ولاة الناصر يتداولونها الى سنة ٣٤٦ للهجرة[1] .

وبعد احتلال سبتة نصراً كبيراً للخليفة الاموي فانه بذلك ابتنى قاعدة يستطيع منها ان يوجه حملاته على المغرب ، وموقعها افضل من موقع مليلة لانها اقرب منها الى المرفأ العسكري الاموي في الجزيرة الخضراء على العدوة الاخرى ، فان الاستيلاء عليها ليس يعني الاستيلاء على منطقة سبتة وحسب بل التدخل عسكرياً فيما اذا حاول موسى بن ابي العافية صنيعة الفاطميين التعدي عليها .

غير انه حدث ما لم يكن فيه الحسبان ، فان موسى هذا دخل في طاعة الناصر اذ انه بدل ان يتوجه كتب الى صاحب الاندلس امير المؤمنين في العدوة الغربية ورغب في موالاته وانه يستميل اليه اهواء اهل العدوة ، فتقبله امير المؤمنين افضل قبول وامده بالخلع والاموال وقوّى اوده على ما كان يحاوله من حرب بن ابي العيش وغيره ،فظهر امر موسى ابن ابي العافية في العدوة وتجمع اليه كثير من القبائل وتغلب على مدينة جراوة .وذلك ان مركباً نزل من الاندلس بمرسى جراوة لموسى بن ابي العافية ، فهبط اليه الحسن بن ابي العيش واخذ ما كان فيه . فكاتبه موسى و كلمه في ذلك فلم يدفع اليه متاعه ، فزحف موسى بن ابي العافية الى صاع فاخرج منها عامر بن ابي العيش وامن اهلها .

في فتحها يقول عبيدالله بن يحيى بن ادريس يخاطب الناصر :

وبسيفك دانت عنوة واقرت	بصائر كانت برهة قد تولت
وما قربت اهواءها ان تقربت	ولا حليت بالزي لما تحلت
ولكن ازالت راسيات عقودها	عزائم لا ترقى بها العصم زلت
ودولة منصور اللواء مظفر	تدال بحمد الله من شر دولة
فهذا اوان النصر منها وهذه	تباشيرها تروي الاقاح بسبتة ،

ثم زحف الى زواغة فخرج اليه ابن ابي العيش ، ولمـــا رأى كثرة من معه انصرف عنه بغير قتال .

ودارت بين ابن ابي العيش وابن ابي العافية مراسلات . ورغب ابن ابي العيش في مصالحته وصرف ما كان اخذه له واصطلحا .

ثم زحف موسى بن ابي العافية الى اوزقور فاستمدوا مساعدة ابن ابي العيش فامدهم بخيل واغاروا على بعض نواحي ابن ابي العافية واخذوا له جمالاً كثيرة وقاسموا الغنيمة ابن ابي العيش .

وكاتب اهل جراوة ابن ابي العافية وضمنوا له دخول المدينة فزحف اليها بمن معه وادخله اهلها طائعين . قصد الى المنصور فدعاهم الى الامان فاجابه بعضهم وتغلب على سائرهم وقتل بها جماعة واخذ زوجة ابن ابى العيش القرشية واولاده وخيله وسلاحه واحرق المدينة وبعث زوجة ابن ابي العيش الى اهلها .

فعظم على الشيعي ما ورده من هذا الامر واقلقه ، وكتب الى القبائل في المغرب يحضهم على طاعته .

ان السياسة الرشيدة والمفاوضات والاتصالات التي اجراها الناصر في شمالي افريقية اعطت احسن الثمار ، فانضمام محمد بن خزر من قبائل مغراوة ، اليه ، من جهة وموسى بن ابي العافية من قبائل مكناسة من جهة ثانيـــة جعل قسماً كبيراً من شمالي المغرب الاقصى ومساحات شاسعة من المغرب الاوسط تحت حماية سيد قرطبة .

دامت هذه الحماية حتى اواخر القرن العاشر ومرت في ملابسات كثيرة . وعلى كل فانه منذ احتلال سبتة وخضوع موسى بن ابي العافية ، حاول الناصر ان يظل بعيداً عن التدخل العسكري في شؤون افريقية ، غير انه كان يحث اتباعه من قبائل الزناتة بتقديمه لهم الذخيرة والعتاد لمواصلة الكفاح ضد العدو الفاطمي ، لاشغاله ، حتى لا يفكر في مهاجمة الاندلس .

ومنذ ذلك الحين لم تنقطع السفارات الى بلاط الناصر من قبائل مغراوة ويفرن بما فيهم الادارسة . ومما زاد في حسن سير الامور لصالح الخليفة الاموي ثورة ابو يزيد الخارجي ، وسنتحدث عنه ، ضد الفاطميين في المنطقة الشرقية من المغرب لدرجة انه كاد يقضي على هذه الدولة في كل شمالي افريقية .

ولا يحق للناصر ان يتبع سياسة غير هذه السياسة أي تغذية القوى ضد الفاطمي ، لانه اذا اراد ان يقوم بحملة عسكرية واسعة النطاق ، كان عليه ان يؤمن المؤخرة من العدو حتى لا يطعنه بظهره بينما يكون منشغلا في حملة افريقية ، والعدو هذا هو ردمير الثاني ملك ليون كان دائما على اهبة الانقضاض على الممالك العربية في الاندلس كلما وجد الفرصة مؤاتية ، كما رأينا في الفصول السابقة عند كلامنا عن الناصر وحروبه مع الممالك المسيحية في الشمال . لقد كان ارتكب خطأ يندم عليه طوال حياته لو انه ترك وراءه عدواً يتربص به ليقود حملة على افريقية .

غير ان الحظ لم يظل مرافقه ولا يرجع هذا الى سوء سياسته ولكن لضعف انصاره في افريقية او لعدم حنكتهم . فقد اراد موسى بن ابي العافية صنيعه في المغرب ، القضاء على الادريسي ابو العيش الذي التجأ الى جزيرة صغيرة وتحصن بها ، فكتب موسى الى عبد الرحمن طالباً امداده باسطول لمحاصرة الجزيرة . ولبى الناصر عميله في افريقية وامر اسطوله المرابط في المرية والجزيرة الخضراء بالتوجه الى تلك الجزيرة . وصل الاسطول وانزل القوات الى البر وحاصر المدينة على امل الاستلام ، فلم تستلم فاضطروا للعودة الى المرية في خريف سنة ٩٣٢ رمضان من سنة ٣٢٠ دون التوصل الى الاستيلاء على الجزيرة ، ولم يتركوا فيها حامية .

لم يظل المهدي عبيد الله مكتوف الايدي بعد خيانة موسى بن ابي العافية له ، ففي سنة ٩٣٣ (٣٢٠) طلب الى والي تاهرت حميد بن ياصل الذي خلف مصالة بن حبوس ، بمهاجمة موسى بن ابي العافية ، فالتقى الفريقان في شرقي

تازه ، وانهزم موسى بن ابي العافية شر انهزام تاركاً للقائد الفاطمي مدينة فاس . ولكن هذا القائد حميد بن باصل بدل ان يستغل انتصاره ، عجل بالرجوع الى افريقية وعندما وصل الى الشيعي عنفه على التخلي بهذه السرعة عن فاس وحبسه ، غير انه استطاع الهرب من سجنه وتوجه الى قرطبة فاستقبله الناصر بالجيش والزينة واكرم مورده وقعد له بقصر الزهراء قعوداً بهياً .

وما طال الامر ان توفي المهدي عبيدالله في ١٤ آذار ٩٣٤ (١٤ ربيع الاول ٣٢٢) .

وفي هذه السنة نفسها وصل الخبر الى عبد الرحمن الناصر بوفاة المهدي عبيدالله مؤسس الدولة العبيدية ، وكان الشعراء يمدحونه حتى توصلوا في مديحهم له الى الكفر ، فلنسمع محمد البديل كاتب ابي قضاعة يمدحه :

حل برقادة المسيح	حل بها آدم ونوح
حل بها احمد المصطفى	حل بها الكبش والذبيح
حل بها الله ذو المعالي	وكل شيء سواه ريح

واجازه عبيدالله على هذا الكفر .

بقي علينا قبل ان نختم هذا الفصل ان نذكر اصل الشيعي هذا ، فمنهم من قال انه عبيدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن علي بن الحسن بن علي بن ابي طالب . وقال غيرهم انه من القرامطة وذلك ان جعفر بن علي كانت له جارية فغشيها رجل من القرامطة وقيل من اليهود ، دفعت له مالاً فكان يهواها وتهواه وقتلت جعفراً مولاها وولدت جد عبيدالله هذا .

ابو القاسم « القائم بأمر الله »

ولي الامارة ابو القاسم ، بويع له يوم مات ابوه ولقب « القائم بامر الله » . كانت دولته ١٢ سنة وسبعة اشهر ، وعمره ٥٥ سنة ، وما ركب دابة منذ موت والده من باب قصره ، سوى مرتين ، حزناً على ابيه . ثار عليه ابن طالوت القرشي فسار الى ناحية طرابلس ليأخذه وهو في عدد كبير فقاتلوه وقتلوا جماعة من اصحابه . ورغم انه ابن المهدي فقام معه البربر واتبعوه ، فلما تبين لهم امره قتلوه واتوا برأسه الى القائم بأمر الله .

اول ما بدأ به ابو القاسم الشيعي ان امر عماله في سائر البلدان بعمل السلاح وجميع آلات الحرب . واخرج ميسوراً الفتى في عدد عظيم الى المغرب فانتهى الى فاس وهزم موسى بن ابي العافية ، لان موسى هذا عند موت عبدالله الشيعي توصل في سنة ٩٣٥ (٣٢٣) الى استرجاع فاس ، واخرج يعقوب بن اسحق في الاسطول الى بلد الروم فافتتح جنوة .

وتوجه فتى آخر اسمه صندل من قبل الخليفة الفاطمي الجديد لاحتلال قلعة ناكور . وكانت هذه المدينة قد استولى عليها عنوة موسى بن ابي العافية بأسم المهدي الى سنوات خلت ، وعادت الى سابق عهدها من الازدهار ووضع عليها حاكما من عائلة بني صالح اسمه ابو ايوب اسماعيل بن عبد الملك . وبعد قتال دام اسبوعاً كاملاً ، استولى صندل على ناكور في ايلول ٩٣٥ (شوال ٣٢٣) وقتل الحاكم الصالحي ووضع مكانه حاكماً من قبيلة كتامة ، وتوجه للانضمام الى زميله

ميسور المشغول في حصار فاس .

ولما كان سكان ناكور بكرهون النير الفاطمي ، ما كاد يتوارى صندل حتى ثاروا على الحاكم الذي نصبه عليهم فقتلوه ، وارسلوا رأسه الى الناصر لدين الله ، وجعلوا مكانه زعيماً آخر من بني صالح اسمه موسى بن الرومي وظلت هـذه المدينة خاضعة لسلطة قرطبة حتى اوائل القرن الحادي عشر .

وكان انه في سنة ٣٢١ وصل الخبر الى قرطبة بولايـة ابي المنصور بن المعز مدينة سجلماسة وهو غلام ابن ١٣ سنة ، فمكث في ولايته شهرين ، وقـام عليه ابن عمه محمد بن الفتح واخرجه منها وتسمى بـأمير المؤمنين وتلقب بالشاكر لله وذلك بعد مدة نحو من عشرين سنة وضرب الدنانير الشاكرية .

كان الحصار على مدينة فاس ما يزال في اشده بقيـادة ميسور وصندل ولم يتوصلا الى الحد من حيل الفاسيين ، ولما رأيا ان لا سبيل الى دخول المدينة بحد السيف لجأا الى المفاوضات مع السكان الذين رضخوا للاعتراف بسيادة ابي القاسم القائم بأمر الله عليهم والصلاة باسمه في المساجد .

فك ميسور الفتى الحصار عن مدينة فاس وتوجه ضد موسى بن ابي العافية الذي كانت القوات الادريسية والفاطمية تطارده ، فانجلى ابن ابي العافية امامهم الى الصحراء وصار كل ما كان لبني العافية لبني ادريس . ثم بعدها عـاد ميسور الى افريقية .

وهذه الحملة الظافرة التي شنها قائد ابي القاسم وضعت حداً للحياة السياسية التي عاشها موسى بن ابي العافية حتى ذلك الحين . ولم يتمكن من استرجـاع هيبته المفقودة فمات بعد بضع سنوات .

ان ولاءه لعبد الرحمن الناصر لم يفد هـذا الاخير كثيراً بل على العكس اضره لانه قلب عليه اعداء كثيرين اتفقوا جميعاً على عدائه .

وسياسته منذ الآن وصاعداً ترمي الى بذر روح الشقاق والخلاف بينهم .

والفاطمي من جهته لم يقف مكتوف الايدي فقام بحملة ظافرة على مصر ، ووقع ثورة نشبت في جزيرة صقلية ، وفي الوقت ذاته عمد الى تقوية قبائل صنهاجة وزعيمها زيري بن مناد . فزاد هذا العمل في سخط الزناتة عليه لانهم اعداء صنهاجة التقليديون وزعيمهم المغراوي محمد بن خزر الذي جئنا على ذكره اكثر من مرة وهو الذى انهزم امام موسى بن ابي العافية سنة ٣٢٠ هجرية وكان سبب ذلك ان محمد بن خزر كتب الى موسى بن ابي العافية في أمر ابن ابي العيش واظهر انه مؤيد له عليه فأنف لذلك موسى وخرج عليه وواقعه وهزمه .

وسخط الزناتة هذا يرضي عبد الرحمن الناصر كل الرضى . وثورة ابو يزيد على الفاطميين زادت في ارتياح خليفة قرطبة .

ابو يزيد مخلد

هو ابو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي ، ينتسب الى الكاهنة التي جئنا على ذكرها في افتتاح افريقية ، هبط من جبال اوراس وخرج على الشيعة ودخل افريقية وخرب مدنها .

وفي سنة ٣٣٢ اشتد امره بافريقية حتى فر امامه ابو القاسم الشيعي الى المهدية من رقادة ، وكان يركب الحمار ولذا سمي صاحب الحمار .

وكان ابو القاسم الشيعي لما مات ابوه عبيد الله اظهر مذهبه وضايق الذين لا يطيعونه واضطهدهم . ثم ان ابا يزيد هبط من جبال اوراس يدعو الى الحق بزعمه ولم يعلم الناس مذهبه ، فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة ، فخرج على الشيعة ودخل افريقية ، وتسمى شيخ المؤمنين .

خرج الفقهاء والعباد مع ابي يزيد لحرب ابي القاسم الشيعي ، فركبوا معه ونهضوا الى القيروان ، فدخلها واظهر لأهلها خيراً وترحم على ابي بكر وعمر ودعا الناس الى جهاد الشيعة وامرهم بقراءة مذهب مالك ، فخرج الفقهاء والصلحاء في الاسواق بالصلاة على النبي وعلى اصحابه وازواجه حتى ركزوا بنودهم عند الجامع وركبوا مع ابي يزيد بالسلاح والبنود ومعهم الطبول ، ومنها بندان اصفران مكتوب في احدهما البسملة ومحمد رسول الله ، وفي الآخر نصر من الله وفتح قريب على يدي الشيخ يزيد ، اللهم انصر وليك على من سب اولئك »

وبند آخر مكتوب عليه : « قاتلوا ائمة الكفر » وبند آخر فيه : « قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم . » .

فلما اجتمع الناس وحضر الامام وطلع على المنبر خطب خطبة ابلغ فيها وحرض الناس على الجهاد واعلمهم بما لهم فيه من الثواب . ثم لعن عبيد الله الشيعي وابنه .

ثم خرج الناس معه لقتال الشيعة فلم يزل قاهراً لهم ، غالباً عليهم ، قاتلاً لجنودهم ، حتى لم يبق لهم من بلاد افريقية الا اليسير . ولما رأى ابو يزيد انه قد استولى على الامر او كاد وان الشيعي قد كاد يبيد او باد قال لجنوده : « اذا التقيتم مع القوم انكشفوا عن اهل القيروان ، حتى يتمكن اعداؤكم من قتلهم فيكونوا هم الذين قتلوهم لا نحن فنستريح منهم » اراد ان يتبرأ من معرة قتلهم عند الناس واراد الراحة منهم . لانه فيما يظن اذا قتل شيوخ القيروان وائمة الدين تمكن من اتباعهم فيدعوهم الى ما شاء فيتبعونه . فقتل من صلحاء القيروان وفقهائها من اراد الله بسعادته وشهادته وسقط في ايدي الناس وقالوا قتل اولياء الله شهداء ففارقوه واشتد بعضهم لابي يزيد .

وفي سنة ٣٣٣ هجرية قتل ابو يزيد ميسرة الفتى قائد ابي القاسم الشيعي ، وكان بين ابي القاسم وابي يزيد حروب كثيرة في هذه السنة وكانت الوقعة المشهورة بينهما في وادي الملح قتل فيها من اصحاب ابي القاسم عدد لا يحصى .

وفي سنة ٣٣٤ توفي ابو القاسم بن عبيد الله الشيعي القائم بامر الله وذلك يوم الاحد لثلاث عشرة خلت من شوال من السنة المذكورة وكانت مدته اثني عشر عاماً .

وابو يزيد طيلة هذه المدة كان على اتصال مع امير قرطبة ، فقد بعث له رسولين يحملان رسالة اليه يخبره فيها على استيلائه على القيروان ورقادة وايقاعه باصحاب الشيعي فيها وما يعتقدوه من ولاية الناصر ومن امامته ، واتصلت كتب ابي يزيد ورسله على قرطبة من ذلك الوقت الى حين وفاته .

وفي السنة التي مات فيها ابو القاسم عرف امير قرطبة بموته من محمد بن محمد ابن كليب من القيروان، فاخبر ان القاسم بن عبيد الله الشيعي هلك بالمهدية وهو محصور وان شيعته قدمت ولده اسماعيل مكانه وانـه فارس شجاع ابي النفس اقدم على ابي يزيد وجموعه ولاقاه بمدينة سوسة فقيل فيه :

الم بسوسة وبغى عليها ... فلا كان الاله له نصير
مدينة سوسة الملك ثغر ... تدين له المدائن والقصور
لقد لعن الذين بغوا عليهـا ... كما لعنت قريظة والنضير

فرفع ابو يزيد الحصار عنها ورجع الى المهدية ، فلما وصلها دفع حتى ضرب برمحه في بابها. فدخل رجل الى القصر على اسماعيل فوجده يلعب بسلحفاة في الصهريج فقال له : « او قد فعل » قال : نعم . قال والله لا عاد اليها ابداً ، وقـد جاء حتفه .

ثم امر في الحين بالركوب والخروج اليه وامر الناس باتباعه الى ان دخل بلاد كتامه فتعلق بالجبل المعروف بحصن ابي يزيد . واثخن بالجراح وقبض عليه حياً فجعل في قفص حديد وجاء به الى المنصور الى المهديـــة فقتله وصلبه على الباب الذي ضرب فيه برمحه ، وامر بسلخه وحشي جلده قطنا وصلبه .

تلك كانت نهــاية ابي يزيد الذي هز عرش العبيديـــين اكثر من مرة وحاصر عاصمتهم المهدية نفسها وكاد يدخلها لولا المساعدات التي جاءتهـا من الصنهاجي زيري بن مناد ، ولا حاجة بنـا الى القول ان سيد قرطبة كان يهلل لكل انتصار يحرزه ابو يزيد ، غير انه ارتكب الخطأ برفع الحصار عن المهدية لانه كان فاتحة فشله اذ اضعف معنويات جنوده مما اضطره الى التخلي شيئاً فشيئاً عن المدن التي احتلها حتى جاءت نهايته على تلك الطريقة الشنيعة .

ورأيناه شديد الحرص على اقـــامة علاقات مكينة مع قرطبة . فالرسائل والوفود متواصلة الى العاصمة الاندلسية من ابي يزيد وآخر سفارة بعثها اليه تتألف



حي قديم في برشلونه

بن ابنه ايوب فقعد له الناصر قعوداً فاوصله الى نفسه وكرم لقاه وامر بانزاله في قصر الرصافة، وقد اعد له من الفرش والعطاء والآنية مابعد لامثاله فاقام هناك تحت نزل واسع وكرامة موصولة .

ولم تكن بالسفارة الاولى ولا الاخيرة التي وردت على الناصر من المغرب بل سبقتها وعقبتها سفارات .

وبينما كان ابو يزيد يدك اساس العرش الفاطمي في افريقية كان عملاء الخليفة الاموي في المغرب الاقصى يبذلون قصارى جهدهم لتقويض سيادة الفاطميين . وفي تشرين الثاني سنة ٩٤٤ (ربيع الاول ٣٣٣) اخرج الناصر قاسماً بن محمد قائداً الى عدوة المغرب لمحاربة بني محمد الادارسة الحسنيين الذين بدا من خلافهم عليه في هذه السنة ونقضهم للطاعة ، واجاز قاسم البحر الى سبتة .

فلما تبين ذلك لكبير بني محمد وهو ابو العيش بن عمر بن ادريس بن عبدالله ابن حسن بن علي بن ابي طالب اسرع الى تحقيق الطاعة للناصر ، فعقد له الامان على نفسه وانفذ عليه ابنه محمد بن ابي العيش الى قرطبة مؤكداً له طاعته، فاحتفل عبد الرحمن لدخوله احتفالاً عظيماً وركب لاستقباله من قبل الناصر القائد احمد ابن يعلى في ابهة راقت للعيون ووصل الى قصر الزهراء وقعد له الناصر افخم قعود ، فأوصله الى نفسه وابلغ في تكريمه .

ثم خرج عنه في مثل الابهة التي دخل عليها . ودخلت بدخول محمد بن ابي العيش في هذا النهار على الناصر رسل لبني عمه الادارسة امراء المغرب وانعقد في هذا النهار كتاب امان محمد بن ادريس . ودعا عبد الرحمن ايضاً محمداً بن ابي العيش فبالغ في تكريمه واقامه بقرطبة بقية هذه السنة في تكرمة وانصرف الوفد المذكور بعد التزامهم الطاعة للناصر .

ثم ورد الخبر بوفاة ابي العيش فاوصل الناصر ابنه محمداً الى نفسه وعزاه عن والده وعقد له عمله ووصله وخلع عليه وعلى الوافدين معه وصرفهم . فخرج قاصداً ابن عمه قنون الذي احتوى على اهل ابي العيش . ولما بلغ البربر اقبال

محمد بن ابي العيش الى بلده من قبل الناصر رجعوا الى عيسى بن فنون وقد خرج عن تبكبساس فغلبوه وسلبوا ما كان اخذه لابن عمه وقتلوا اكثر اصحابه فلم ينج الا في سبعة فوارس .

ووصل الى قرطبة ايضاً احمد بن الاطرابلسي رسول البوري بن موسى ابن ابي العافية بكتاب يذكر انه صرح عنده ان الخير بن محمد بن خزر الزناتي وصل الى تاهرت وحاربها، فاستنصر اهلها بميسور قائد الشيعي، فالتقوا، فدارت الدائرة على ابن خزر اول النهار . ثم كانت الكرة لزناتة ودخل الخير اميرهم مدينة تاهرت وملكها في غرة ذي القعدة واخذ قائد الشيعي اسيراً في عــدة من اصحابه . ووقع في يده عبدالله بن بكار اليفرني الذي توجه الى الشيعي برأس ايوب بن ابي يزيد فأرسل به الى يعلى بن محمد بن صالح اليفرني ليقتله بوالده بعدمـا كان اخذ كل ما عنده، فلم يرض يعلى بذلك ولا رآه كفواً لعبده فكيف لوالده . ودفعه الى رجل من البربر كان قد قتل ابنه فقتله به ودخـــل يعلى بن محمد وهران وملكها .

اسماعيل بن أبي القاسم الشيعي

كنيته ابو الطاهر ، ولده بالمهدية سنة ٣٠٢ هجرية . ولم تزل المهدية دار ملك بني عبيد الى ان صار منهم ابو الطاهر الى القيروان بعد قتله لأبي يزيد كما رأينا ، وكان انتقاله الى المنصورية في سنة ٣٣٧ ، وتوفي سنة ٣٤١ وكانت ولايته ٧ سنين وخمسة عشر يوماً ولم يقم بأي عمل يذكر منذ انتصاره على ابي يزيد .

وكان الانتصار الوحيد اذ ان قواده لم يوفقوا في المعارك التي خاضوها في المغرب الاوسط والمغرب الاقصى فانه في سنة ٣٣٩ هجرية وصل الى قرطبة ابنا البوري بن موسى ابن ابي العافية امير المغرب . وورد الامير الخير امير الزناتة وكبير امراء المغرب ، الى الناصر يذكر ما اتاح الله له من دخول تاهرت وظفره بميسور وعبدالله بن بكار اليفرني قواد الشيعي .

وفي سنة ٣٤١ هجرية وصل الى قرطبة فتوح بن الخير بن محمد بن خزر كبير امراء زناتة بأرض المغرب ومعه وجوه اهل تاهرت ووهران وادخلت بين يدي الناصر الرؤوس التي احتزها القواد من رجال اسماعيل الشيعي وبينها رأس ميسور الفتى ورأس محمد بن ميمون وغيرهما من رؤوس اعلام الشيعة ادخلت منكسة معها عدة من اعلامهم وطبولهم فرفعت هذه الرؤوس والبنود والطبول على باب قرطبة واقيمت له ولمن جاء معه الكرامات الواسعة .

ولكن جاء بعده ابنه واخذ عهداً على نفسه انه سيكيل ضربات شديدة لعملاء الناصر في افريقيا كما سنرى .

معد بن اسماعيل

مولده بالمهدية ٣١٩ ، لقبــه المعز لدين الله وفي سنة ٣٤٤ ولد للمعز ابن سماه نزاراً .

بعد ظهور المعز بقليـل غضب رئيس قبــائل مغراوة محمد بن خزر على الناصر لتفضيله يعلى بن محمد ، شق عصا الطاعـــة على الخليفة الاموي وقدم الخضوع للفاطمي ، انها ضربة جاءت في غير وقتها على الناصر الذي كان يرى ، والغيظ يملأ فؤاده ، كيف ان سياسة مزاحمه المعز لدين الله تنجح وينتشر نفوذه اكثر فاكثر نحو الجهة الغربية من دولته . وممـا زاد الطين بلة انه في سنة ٩٥٥ (٣٤٤) ارسل عبد الرحمن الثـــالث الى المشرق سفينة محملة بالبضائع فالتقت قرب الشواطىء الافريقية بسفينة متوجهة الى المهدية وعلى ظهرهـــا رسول من قبل الحاكم العربي في جزيرة صقلية الى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، فهاجمت السفينة الاندلسـية السفينة الصقلية واستولت على حمولتها وعلى الهدايا المرسلة الى المعز لدين الله . ثم تتابع سيرها الى الاسكندرية ويبعث الغنائم الى اهـالي المدينة .

ورجعت السفينة الى اسبانية بعد ان باعت كل بضائعها . ووصل الى اسماع السلطان المعز النبأ القاصم فأرسل الى مطاردة السفينة الاندلسية عدداً هاماً من اسطوله في افريقية وصقلية ، غير ان هذا الاسطول لم يقو على ادراك الباخرة الاندلسية السريعة التي بلغت مرفــأ المرية . فلم يتورع الاسطول الذي يقوده

صاحب صقلية الحسن بن علي ، عن دخول المرفأ واستولى على ما في السفينة واحرق جميع البواخر الراسية بالمرفأ بما فيها الباخرة المعندبة . ونزل البحارة والجنود الى البر واعملوا القتل والسلب والنهب في المدينة واخذوا معهم اسرى كثيرين . ورجعوا الى بلادهم غانمين ظافرين .

تلك كانت المرة الاولى التي يقوم بها فاطمي بغزوة على الاراضي الاندلسية في ايام عبد الرحمن الناصر .

فغضب الخليفة الاموي غضباً لامزيد عليه ، وجواباً على هذا العمل امر جميع حكام المقاطعات بان يلعنوا من على المنابر في جميع المساجد الامراء الشيعيين ، وبالوقت ذاته بعث قائده غالب الى سواحل افريقية من اعمال الشيعي (١) .

وفشل هذا الغزو الاول ، وعاد الكرة مرة ثانية فتوجه باسطول ضخم قوامه سبعين سفينة حربية ، فتتغلب القوات الاندلسية على القوات الافريقية التي حاولت منع نزولها الى البر ، وبعد يومين وصلت القوات الظافرة الى مدينة

---

١ - في اول محرم من سنة ٣٤٧ للهجرة امر الناصر لدين الله صاحب الشرطة القائد احمد بن يعلى بالخروج غازياً في الاسطول الى بلد الشيعي معد بن اسماعيل صاحب افريقية ، فبرز ابن يعلى الى محلة الربض لغزاته هذه يوم الخميس لثمان خلون منه ، وكان بروزه فخماً خرج اليه من النظارة من اهل قرطبة رجالهم ونساؤهم وابناؤهم وولدانهم بخلق عظيم ، فانتشروا باكناف الربض على عادتهم فاخذ السفلة منهم يتقاذفون بالحجارة ، فدخل بينهم قوم من الطنجيين من جند السلطان وحمي وطيس الضرب بينهم وقد تكشف صفيهم من النظارة بالرجال والنساء خلق عظيم ، فلم يك الا ساعة ودارت بينهم جولة ظهر فيها احد صفيهم فمالوا على مغلوبهم وانبسطوا عليه ، فامتد الطنجيون بغالب شرهم وجهلهم الى نهب مغلوبهم من الرجال وتخطوهم الى من حولهم من النظارة وانبسطوا على النساء فسلبوهن ثيابهن وفضحوا كثيراً منهن فجعل المتجردات من النساء يتوارين في الزرع المكتنف حياء من الناس وترقباً لوقت تفرقهم .

تونس فهوجمت القلعة بينما القوات البحرية تواكب القوات البرية قرب الشاطىء بكل حذر ، فخاف التونسيون على عاصمتهم فدفعوا جزية باهظة وعاد امير البحر الاندلسي غانماً الى اشبيلية حاملاً معه اثقالاً من المال والبضائع والحلي والجواهر والاسلحة والخيول وسفناً كانت راسية في المرفأ ، فاخذ الخليفة الثلث من الغنيمة وبقيت كميات كبيرة منها وزعت على القواد ورؤساء الفرق ودفعت اجور الجنود الاندلسيين والافريقيين بسخاء ، واكرم الخليفة حاجبه ابن سعيد وخصص له مائة الف دينار في السنة .

ولم يكتف الخليفة الاموي بهذا العمل الهجومي بل تعداه الى العمل الدفاعي فراح يستعد لصد الغزوات التي تأتي من افريقية فأمر بزيادة ارتفاع الاسوار لمدينة سبتة وعزز الحامية الموجودة فيها وراحت احواض بناء السفن تعمل بنشاط كبير لتزيد في انتاج البواخر .

والمعز ابو تميم ارسل قائده جوهراً سنة (٩٥٨ ٣٤٧) الى المغرب فاستولى على مدينة فاس ، ثم توجه الى تطوان ووصل الى سبتة فلم يقدر عليها ورجع عنها وقصد بعساكره الى سلجماسة ففر امامه صاحبها محمد بن الامين وتحصن في حصن على ١٢ ميلاً من سجلماسة باهله وماله ، وكان يلقب الشاكر لله واستولى جوهر على سجلماسة وخرج محمد بن الفتح ليتفقد الاخبار فغدره قوم من مدغرة واتوا به الى جوهر فقتله .

ووصل الى قرطبة الحسن بن قنون من بني ادريس فاراً بنفسه امام جوهر قائد المعز . وكان بنو محمد بن القاسم من بني ادريس اجمعوا على هدم تطوان فهدموها ثم ندموا على ذلك وشرعوا في بنائها فضج اهل سبته لان بناءها ضرر عليهم ، فبعث اليهم عبدالرحمن جيشاً على رأسه احمد بن يعلى وكتب الناصر الى حميد ابن يصال صاحب تيكيساس وتلك الجهات ان يعيد القائد المذكور على بني محمد فتخلى بنو محمد عن بناء تطوان لما اجتمع العسكران عليها وبعثوا اولادهم رهائن الى قرطبة .

واصل جوهر تقدمه في طول المغرب وعرضه تدعمه قوات هامة تعززهـا قبائل كتامـة وصنهاجة والزعيم المغراوي محمد بن خزر الذي اصبح عميـل الفاطميين ، فأخذت المدن تسقط الواحدة تلو الاخرى باستثناء القاعدتين الامويتين الواقعتين على شواطىء البحر الابيض المتوسط (بحر الزقاق) وهما سبتة وطنجة.

واضطر الادارسة عن رضى او اكراه الى الخضوع للقائد جوهر ومنهم الحسن ابن قنون الذي كان قد توجه الى قرطبة طالباً مساعدة الناصر لدين الله .

وفي جمادى الآخرة من سنة ٣٤٧ ورد كتاب قائد الاسطول احمد بن يعلى من مدينة اسلان من اعمال تلمسان، يذكر ان جوهراً قائد معد بن اسماعيـل صاحب افريقية قتل يعلى بن محمد بن صالى اليفرني، صاحب مدينة افكان، غدرا وان ابن عمه انتصب مكانه باقامة قومه له. ورجع القائد المذكور الى قرطبـة ومعه ولد بن قرة ابن عم يعلى بن محمد المتقدم الذكر ، والمقدم بعده في قومـه بني يفرن فبولغ في اكرامه .

وفي اول ذي القعدة من سنة ٣٤٨ للهجرة اوصل الناصر اليه حريز بن منذر في جماعة من الموالي والعرفاء ورجال الجند وامرهم جميعاً بالخروج الى مدينة سبتة من ارض العدوة ، مـع بدر الفتى الكبير صاحب السيف ، لتنفيذ العدد فيها وتقويتها من اجل جولان جوهر قـائد معد الشيعي صاحب القيروان فنفذوا امره الى ان امنت الحادثة .

لا شك ان الانتصارات الحاسمة والسريعة التي نالهـا القائد الفاطمي جوهر اثرت في نفسية عبدالرحمن الناصر الخليفة الهرم ، ولم يطل بعدها ان فارق الحياة في السنة نفسها التي مـات بها صنيعته القديم محمد بن خزر بعد ان انضم الى المعسكر الفاطمي ٩٦١ (٣٥٠) وعند موت الناصر كانت كل ممتلكاته في افريقية لا تتجاوز قاعدتي سبتة وطنجة وهو شيء قليل وكثير في الوقت نفسه ، لان ابنه الحكم الثاني سيواصل الزحف على افريقية من هاتين القاعدتين الهامتين.

من جميع ما تقدم يتبين للقارىء الكريم ان عبدالرحمن الناصر لم يحاول قط فرض سيادته على المغرب وجعله جزءاً من اراضيه . جل ما فعل انه استولى على سبتة وطنجة ليس لمجرد الاستيلاء عليها بل كضمانة لعدم الاعتداء عليه ، فـاذا كان عبيد الله الشيعي وابو القاسم واسماعيل لم يقوموا بهذا الاعتداء على الاراضي الاندلسية فان الخليفة الفاطمي الرابع غزا المرية المدينة التي اسسها عبدالرحمن الناصر ، واحرق ودمر وسلب كما اشرنا .

اتبع امير قرطبة في افريقيــة السياسة نفسها التي تمشى عليها مــع الملوك المسيحيين، لا اعتــداء، ولا ضم اراضي الى جسم الدولة الاموية في الاندلس ، على حساب الجيران مهما كان نوع هؤلاء الجيران : ضعفاء او اقوياء ، جيران خير او جيران سوء .

وقف الخليفة الاموي موقف المدافع عن النفس ويحسن الدفاع عن نفسه كما دل في جميع المعارك التي خاضها او بالاحرى اضطر على خوضها . روح سياسته اجتذاب الناس اليه عن طريق الملاينة ، التعايش السلمي من جميع البشر . انها سياسة سابقة لأوانها في ذلك العهد الاقطاعي، في تلك القرون الوسطى المسيطرة فيها شريعة الغاب والبحار حيث الذئب يفترس الحمل لانه اقوى منه ، والسمك الكبير يأكل السمك الصغير .

الناصر من طبيعته لا يحب الحروب واراقة الدماء والفوضى ، فالحرب آخر الادواء اذا لم تنجح بقية الادواء ، وهي خاسرة ، في نظره ، دائماً حتى في حال ربحها . كان مستعداً في كل حين لمد يــد المسالمة الى اعدائــه التقليديين منهم،

والعارضون ، هدفه الاوحد الامان على نفسه من العدوان الخارجي والداخلي على السواء . الملك وديعة غالية وضعت بين يديه وعليه ان يردها كاملة . استلم الوزنات الخمس ولم يدفنها في الارض كما فعل العبد الشرير كقول الانجيل ، بل ذهب هذا العبد وتاجر بالوزنات الخمس وربح خمساً أخر . ولما جاء سيده وطالبه بالحساب قدم له المال مضاعفاً . ان الناصر فعل اكثر من هذا ، حافظ كل المحافظة على الوديعة التي استلمها من جده عبدالله عند ساعة موته ، بنفس الوديعة . مملكة ممزقة الاطراف لم يبق منها الا الاسم فجعلها مملكة قوية مقرامة البنيان نظيفة الارجاء مرهوبة الجانب . ضرب بيد لا ترحم على من سولت نفسه بالاعتداء عليها حتى ولو كان اقرب الناس اليه . حافظ عليها من الاعداء في الخارج المتجسمين في الملوك المسيحيين في الشمال وبالفاطميين في الجنوب على العدوة الاخرى وراء البحر المتوسط في شمالي افريقية ، رأينا كيف ضمن تخومه الشمالية من الاعتداءات المتكررة التي كانت في الماضي عرضة لها .

وخشي على هذه الدولة من الفاطميين ولم يكن خوفه في غير محله . فماذا كانت ادت به الحال لو ان عبيد الله الشيعي اول خليفة فاطمي ، بعد ان استتب له الامر في افريقية ، بدل ان يرسل ابنه القاسم وولي عهده لاحتلال مصر البعيدة عنه ارسله الى الاندلس القريب منه ، ولديه الاسطول الكافي الموروث عن بني الاغلب ، ولديه الانصار الكثر على العدوة الاخرى ، فان عمر بن حفصون الثائر الاندلسي الكبير في قلعة ببشتر اتصل به وعرض عليه خدماته وطاعته وهو من الذين يمكن الاتكال عليهم ، والداء القديم الموروث كما كانوا يسمونه في الاندلس . لم يكترث له او على الاقل لم يقبل الفكرة بحماس ولم تحدثه نفسه ببسط سيادته على تلك المناطق الشاسعة الخصيبة وليست اقل تفككاً من دولة بني الاغلب او الامامة الرستمية او الادارسة انفسهم الذين انهاروا جميعاً امام الصدمات الاولى من عبدالله الداعي المهيء الطريق امام المهدي الفاطمي عبيد الله الشيعي .

حظ الناصر كبير وطالعه سعد . ونتساءل لماذا لم يندفع الشيعي في اتجاه

الاندلس بل فضل الانطلاق نحو الشرق ؟ هناك احتمالان : اما لانه رأى ان الدولة العربية الكبرى تبتدىء في المحيط الاطلسي وتنتهي في الخليج العربي ويريد ان يعمل على جمع شملها ولم شعثها ، وان عاصمة مملكته هذه المترامية الاطراف يجب ان تكون في احدى العواصم الهامة مثل بغداد او دمشق او مكة المكرمة فترجع الخلافة الى البيت الكريم ، الى ولد علي .

او في احتمال آخر رأى ان الوصول الى الشرق اسهل حيث السلطة مترعرعة ويكفي ان تهب ريح جديدة لتتناثر امامها الاوراق الباقية على الاغصان ، ولديه الانصار والمؤيدون المتحمسون في جميع اجزاء الوطن العربي ويشكلون الطابور الخامس عندما تدعو الحاجة اليهم . وهو مــا يزال شديد الحنين الى الشرق حيث ولد وشب وترعرع كما ان الانتصار الممكن في الاندلس لا يشفي غليل نفسه المتعطشة الى المجد والسيادة وبسط النفوذ على العالم الاسلامي بكامله والاستيلاء على البيت الحرام . ولا شك انه قابل بين المكاسب التي يجنيهــا من حملة في السيطرة على الاندلس وبين المغانم المعنوية والمادية التي تنتظره في الشرق وفضل هذه فبعث ولي عهده الى افتتاح مصر . ولم يأت بالنتائج المرغوبة فرأى من الافضل له ان يثبت دعائم ملكه في الأراضي الشاسعة التي احتلها ويطهرها من بذور الفتن ، غير انه لم يتخل عن فكرته في احتلال الشرق ، فأسس عاصمته المهدية على مقربة من مصر نسبياً ليدل على ان اغراضه التوسعية ليست في اتجاه الغرب ، بل في اتجاه الشرق براً وبحراً . فمن يؤكد انه لم يكن يحلم في الاستيلاء على القسطنطينية عن طريق صقلية فجزر اليونان ، فالدخول الى الشرق عن هــذه الطريق قد يكون اسهل مما يتصور فيحتل القسطنطينية التي اعجزت الامويين والعباسيين عن الوصول اليها ، فمن يعلم قد يحتلها هو ويكون امجدهم واسبقهم . خطأه الكبير في نهمه ، ابتلع كثيراً ولم يتمكن من هضم جميع ما ابتلع . وهذا الطموح عند عبيدالله الشيعي حدسه الناصر فوثق من بقائــــه بنجوة من الرياح العبيدية الجنوبية فهبوبها باتجاه الشرق او من ناحية البوسفور .

ومات عبيدالله قبل ان يحول هذه الاحلام الجميلة الى امر واقع في السيطرة

على العالم حسب النبوءة السائدة آنذاك والمبشر بها والداعي عبدالله، والثورات الداخلية قلبت خططه رأساً على عقب وهدت آماله وخنقتها في مهدها قبل ان تبصر النور.

وخلفه ولي عهده ابو القاسم واعاد الكرة على مصر متبعاً سياسة والده وهو الذي احب والده فوق كل شيء، اراد تنفيذ خطته حتى تستريح عظام والده في قبرها، وتوفق الى حد كبير هذه المرة في الاندفاع نحو مصر، ونجح ايضاً في الاستيلاء على جنوة ليضمن السيادة على هذه الناحية من البحر المتوسط لينطلق منها الى ضرب العباسيين عن طريق تركيا، فتتقدم جيوشه في مصر نحو قلب الشرق وتتقدم قواته في البلقان وبر الاناضول نحو الشرق بفكي كماشة ويلتقي الجيشان الفاطميان في العراق او في شبه الجزيرة العربية.

ليست خطة وهمية وقد يكون حظها من النجاح كبيراً لولا تلك الثورة الغاشمة التي بلاه بها ابو يزيد « صاحب الحمار » الذي بعد ان استولى على المغرب الاقصى والاوسط جاء ووضع الحصار على المهدية حيث مات ابو القاسم محصوراً، وفي نفسه رغبات لم تتحقق، افسد ابو يزيد مخلد بن كيداد عليه خططه.

ونتساءل ماذا كان يضير الناصر لدين الله لو ان ابا القاسم عاد فجمع شمل العرب الممزق من الخليج الى البحر المحيط، لا سيما وان العباسيين اعداء الأمويين والشيعيين على السواء.

لا نقدر ان نلقي التبعة على امير قرطبة في فشل مخطط ابي القاسم الفاطمي، فالتبعة تقف على هذا الاخير بالدرجة الاول لانه اساء التصرف مع شعوب افريقية كما رأينا، وهذه الشعوب ابت اول نداء يعللها بالفرج القريب، فسارت وراءه مدفوعة بعامل التحرر، نير اخذ يدمي اكتافها، فتململت تحت ثقله وحاولت خلعه واوشكت ان تخلعه وهو ليس من السهل خلعه. فشل ابو يزيد ومات اشنع الميتات.

وابتهج عبد الرحمن الناصر في قرارة نفسه، كأنه يردد المثل السائر: فخار بفخار والسالم لنا، فان ابا يزيد اولاً وآخراً ليس ممن يمكن الركون اليهم والوثوق بهم. فمن يضمن للناصر ان الخارج على الفاطميين لا يخرج عليه عندما يدرك المغنم ويتوفر له المأرب.

اما المعز لدين الله فقد نهج سياسة تختلف عن سياسة من سبقوه على العرش الفاطمي فبلاده افريقية وروحه افريقية وغايته افريقية، ووجد في الناصر خصماً لا يستهان به. استرد الهيبة التي فقدها اسلافه في المغرب واصبح السيد المطلق في شمالي افريقية بدون منازع وانهارت امام جيوشه الظافرة جميع المعاقل والحصون وسقطت المدن في يد قواته الواحدة تلو الاخرى الا سبتة وطنجة كما ذكرنا.

وكان المنتظر ان يقع يوماً الاصطدام بين الامويين الاندلسيين والفاطميين الشيعيين، وانطلقت الشرارة الاولى من سفينتين الواحدة اندلسية والاخرى فاطمية واعتدت الاندلسية على الفاطمية، ظناً منها ان تصرفها هذا يرضى عنه خليفة قرطبة وتغلبت عليها. وعقب هذه الغلبة من الاندلسيين رد فعل من الفاطميين فغزوا الاندلس ونهبوا وسلبوا، وبادلهم الناصر الضربة فغزا افريقية وسلب ونهب. وفي النهاية ظل الفاطميون اسياد الموقف في شمالي افريقية عند وفاة الناصر فقد عاجلته المنية ومنافسه المعز في اوج عزه.

ماذا استفاد الناصر من افريقية، رغم جميع التضحيات الكبرى، المادية على الخصوص، في ترضية هذا وايوائه وشد ازر ذاك، والسفارات والوفود الافريقية وانفاق الاموال عليهم بدون حساب؟

ماذا كانت الغنيمة وماذا نال منها؟ من المجمل اذنه. غير ان هذه الاذن ستودي الى الانطلاق باتجاه افريقية على نطاق واسع وعلى طريقة اكثر واقعية في ايام الحكم الثاني بن عبد الرحمن الناصر لدين الله وولي عهده.

ومن جهة اخرى وقى امير قرطبة بلاده من الرياح السموم التي كان من المحتمل ان تهب على الاندلس..

مدينة الزهراء

لا حرج علينا في ذكر اسطورة بنـــاء مدينة الزهراء بكل تحفظ تاركين للقارىء الكريم الحرية المطلقة في تصديقها بكاملها او ببعض اجزائها :

سبب بناء مدينة الزهراء ان الناصر ماتت له سرية وتركت مـالاً كثيراً، فأمر ان يفك بذلك المال اسرى المسلمين وطلب في بلاد الافرنج اسيراً فلم يوجد، فشكر الله تعالى على ذلك . فقالت له جاريته الزهراء وكان يحبها حباً شديداً : « اشتهيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي » . فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمالي قرطبة وبينها وبين هذه المدينة ثلاثة اميال واتقن بناءها واحكم الصنعة فيها وجعلها متنزهاً ومسكناً للزهراء وحاشية ارباب دولته ونقش صورتها على الباب .

فلما قعدت الزهراء في مجلسها نظرت الى بيـــاض المدينة وحسنها في حجر ذلك الجبل الاسود. فقالت . « يا سيدي الا ترى الى حسن هذه الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجي ؟ » ؟ فأمر بزوال ذلك الجبل . فقـــال بعض جلسائه : « اعيذ امير المؤمنين ان يخطر له ما يشين العقل سماعه ، لو اجتمع الخلق مـــا ازالوه حفراً ولا قطعاً ، ولا يزيله الا من خلقه » . فـأمر بقطع شجره وغرسه تيناً ولوزاً ، ولم يكن منظر احسن منهـا ولا سيما في زمان الازهـــار وتفتح الاشجار وهي بين الجبل والسهل .

وليفي بروفنســال المستشرق الافرنسـي الكبير يصدق هذه الرواية بحذافيرها اذ يقول: لو ان الناصر لدين الله اتبع الطريقة التي سار عليها الفاطميون في شمالي افريقية لكان سمى هذه المدينة الجديدة اي الزهراء ، الناصرية مثل المنصورية

القسم الرابع

مدينة الزهراء

مدينة الفاطمي اسماعيل المنصور في افريقية او المهدية نسبة الى المهدي عبيدالله الفاطمي ايضاً . ولكن المدينة الاندلسية سميت الزهراء نسبة الى جارية عبد الرحمن الناصر المشهورة . ومن الصعب ان يكون هذا الاسم لغير هذه الجارية لانه على مدخل القصر يوجد تمثال امرأة . ولما مر الخليفة المهدي يعقوب المنصور في قرطبة ذهب لزيارة اطلال مدينة الزهراء سنة ١١٩٠ (٥٨٦) قال « لينزع التمثال عن باب المدينة » . والقرطبيون في القرن الثاني عشر هذا كانوا يرون في التمثال مصدراً من التفاؤل وحسن الطالع وانهم اذا نزعوه نزلت عليهم مصائب شديدة .

وفي هذه الظروف نرى من المستحيل نكران وجود الزهراء جارية الخليفة الناصر لدين الله والاسطورة السائرة في الغرب عن اسم المدينة وتسميتها بالزهراء جارية الخليفة الاندلسي .

هذا هو رأي ليفي بروفنسال ، اما نحن فلنا رأي آخر في هذه المسألة . لا نريد ان نقيس انفسنا من المستشرق الافرنسي الكبير انما لا يمنعنا عن ابداء الرأي وان كان مخالفاً لما اعتقده الجميع حتى اليوم :

من المستبعد جداً ان يكون الناصر لدين الله اعطى مدينته التي بذل فيها الملايين اسم احدى جواريه المسماة بالزهراء ، اسباب عديدة تحملنا على الشك في هذه التسمية ، منها نفسية عبد الرحمن فانه بشهادة المؤرخين كان محباً للعمران ويطمح الى تخليد اسمه كما سنرى ، وكم من المرار ندد به منذر بن سعيد قاضي الجماعة في قرطبة ، لتعلقه بالعمران والبناء ، فلا يعقل ان يعطي اجل ما اخرجه في التشييد اسم جارية من احدى جواريه .

وتبين لنا انه لم يكن من الرجال الذين يسلمون هواهم للنساء ، فالمرأة لم تلعب اي دور في حياته السياسية او الاجتماعية ، فلا نكاد نعرف من نسائه وجواريه الا اللواتي اسعدهن الحظ وانجبن له اولاداً مثل مرجانة ام الحكم ولي العهد ، نعرفهن من اولادهن فلا يعقل ان تستأثر احداهن بقلبه الى هذا الحد

وهو ابن شديد التعلق بالنساء او على الاقل لا يفضلهن على الغلمان وقصته مع وزيره ابي عامر بن شهيد احمد بن عبد الملك شهيرة وسنأتي على ذكرها .

كما ان هذا الاسم ومشابهته باسم احدى جواري عبدالرحمن لا يعني شيئاً ، فقد كان له قصر يسمى الزاهر والمنصور بن ابني عامر بنى مدينة سماها الزاهرة فهل نستخلص الى القول ان المنصور كان يتعشق امرأة اسمها الزاهرة فاعطى مدينته اسمها .

ومن جهة اخرى فان تسمية المدن العامرة بهـذا الاسم كان امراً شائعاً في ذلك العصر او قبله بعشرات السنوات ، فهذا ابن عبدربه شاعر البلاط والمادح كل من يكثر له الرفد ، سواء كان اميراً او وزيراً او والياً ، امتدح ابراهيم بن حجاج بقصيدة شبه فيها مدينة اشبيلية بالزهراء عندما قال :

فاشبيلية الزهراء تزهو بوجهه ... وقرمونة الغراء ذات الفضائل

لا شك ان هذا البيت وصل الى اسماع عبدالرحمن الناصر وهو مـا يزال شاباً قبل تقلده زمام الحكم ، لان ابراهيم بن حجاج هذا الذي قيلت فيه القصيدة المذكورة مات سنة ٢٨٨ هجرية ، والناصر لم يبتدىء في بناء مدينته الا سنة ٣٢٥ هجرية فأراد ان يجعلها منافسة اشبيلية التي سماها ابن عبد ربه الزهراء .

كما ان وجود تمثال امرأة على مدخل المدينة ليس حجة قاطعة تثبت صحة الاسطورة ، فالتماثيل كانت تزخر بها مدينة الزهراء ، منها بشر ومنها حيوان بري ومنها حيوان بحري ومنها طيور السماء .

المهم في الامر انها وجدت مدينة اسمها الزهراء قـال عنها المؤرخون العرب مايلي : والزهراء مدينة الملك اخترعها امير المؤمنين عبدالرحمن الناصر لدين الله وهي من المدن الجليلة العظيمة القدر . وكان يعمل في جامعها حين شرع فيه من حذاق الفعلة كل يوم الف نسمة ، منها ثلاثمائة بنـاء ومائتا نجار وخمسمائة من الاجراء وسائر الصنائع ، فاستتم بناءه واتقانه في مدة ثمانية واربعين يوماً وجاء

في غاية الاتقان من خمسة ابهاء عجيبة الصنعة ، وطوله من القبلة الى الجوف، حاشا المقصورة ، ثلاثون ذراعاً . وعرض البهو الاوسط من ابهائه من الشرق الى الغرب ثلاث عشرة ذراعاً وطول صحنه المكشوف من القبلة الى الجوف ثلاث واربعون ذراعاً وعرضه من الشرق الى الغرب احدى واربعون ذراعاً وجميعه مفروش بالرخام الخمري ، وفي وسطه فوارة يجري فيها الماء . فطول هذا المسجد اجمع من القبلة الى الجوف ، سوى المحراب ، سبع وتسعون ذراعاً وعرضه من الشرق الى الغرب تسع وخمسون ذراعاً وطول صومعته في الهواء اربعون ذراعاً وعرضها عشرة اذرع في مثلها .

وامر الناصر لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد، فصنع في نهاية من الحسن ووضع في مكانه منه وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة . وكان وضع هذا المنبر في مكانه من هذا المسجد عند اكماله يوم الخميس لسبع بقين من شعبان سنة تسع وعشرين وثلاثمائة .

بناء القناة

وكان في صدر هذه السنة نفسها كمل النصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التي فيها الماء العذب. من جبل قرطبة الى قصر الناعورة غربي قرطبة في النامر المهندسة . وعلى الحنايا المعقودة يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة غريبة محكمة بركة عظيمة عليها اسد، عظيم الصورة، بديع الصنعة، شديد الروعة، مطلي بذهب ابريز وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد يجوز هذا الماء الى عجز الاسد فيمجه في تلك البركة من فيه ، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ويستفيض على ساحاته وجنباته ويمد النهر الاعظم بما فضل منه .

وكان مدة العمل فيها من يوم ابتدأت من الجبل الى ان وصلت الى هذه البركة اربعة عشر شهراً . فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من اعظم آثار الملوك في غابر الدهر، لبعد مسافتها واختلاف مسالكها وفخامة

ببابها وسمو ابراجها التي يرتقي الماء منها وينصوب من أعاليها . وكان انطلاق الماء في هذه البركة الانطــلاق الذي اتصل واستمر يوم الخميس غرة جمادى الآخرة من السنــة . وكانت للناصر في هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة افضل فيها على عامة اهل مملكتــه ، ووصل المهندسين والقوام بالعمل بصلات حسنة جزيلة .

وأما مدينة الزهراء فاستمر العمل فيها من عام خمسة وعشرين وثلاثمائــة الى آخر دولة الناصر وابنه الحكم وذلك نحواً من اربعين سنة .

ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما وصف كانت اول جماعــة صلت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان . وكان الامام القاضي أبا عبدالله محمد ابن عبدالله ابن ابي عيسى ، ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة . واول من خطب به القاضي المذكور .

ولما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على انه لم يبن مثله في الاسلام البتة ، وما دخل اليه قط احد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة ، من ملك وارد ورسول وافد وتاجر إلا وكلهم قطع انه لم ير له شبها او يسمع به او يتوهم كون مثله ، حتى انه كان أعجب ما يؤمله القاطع الى الاندلس في تلك العصور النظر اليه والتحدث عنه والاخبار عن هذا تتسع جداً والأدلة عليه تكثر . ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد المشرف على الروضة ، المباهي بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمنه من اتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف ببراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون وذهب مصون وعمد كأنما افرغت في القوالب ، ونقوش كالرياض وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الاشخاص لا تهتدي الاوهــام الى سبيل استقصاء التعبير عنها .

وذكر ابن حيان ان مباني الزهراء اشتملت على اربعة آلاف سارية ، ما بين كبيرة وصغيرة وحاملة ومحمولة . منها ما جلب من مدينة روما ومنها ما أهداه

صاحب القسطنطينية . وان مصاريع ابوابها، كبارها وصغارها، كانت تنيف على خمسة عشر الف باب وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . والله سبحانه، أعلم فانها كانت من أهول ما بناه الانس ، وأجله خطراً وأعظم شأناً .

اختطت الزهراء في ساحة تقع شمالي غربي قرطبة، على قيد خمسة اميال منها في سفح جبل يسمى جبل العروس . وكان البدء في بنائها في فاتحة محرم سنة ٣٢٥ (نوفمبر سنة ٩٣٦) وعهد الناصر الى ولده الحكم بالاشراف على بناء العاصمة الجديدة وحشد لها امهر المهندسين والصناع والفنانين وجلب اليها اصناف الرخام الابيض والاخضر والوردي من المرية وريه ومن قرطاجنة افريقية وتونس ومن الشام والقسطنطينية ، وكان الذين يجلبونه عبدالله بن يونس ، عريف البنائين ، وحسن بن محمد وعلي بن جعفر الاسكندراني . وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير .

وكان عدد السواري المجلوبة من افريقية الف سارية وثلاث عشرة سارية ، ومن بلاد الافرنج تسع عشرة سارية ، وأهدى إليه ملك الروم مائة واربعين سارية ، واكثرها من مقالع الاندلس طركونة وغيرها ، فالرخام المجزع من ريه والابيض من غيرها والوردي والاخضر من افريقية من كنيسة اسفاقس . وأما الحوض المنقوش المذهب، الغريب الشكل، الغالي القيمة فجلبه اليه احمد اليوناني من القسطنطينية من ربيع الاسقف ، فينقل هوينا من مكان الى مكان، حتى وصل الى البحر ورفع منه الى بلده فكان عبرة لمتأمله .

وجلب اليه احمد بن حزم حوضاً ثانياً منقوشاً فيه تماثيل لا تقدر بقيمة احتيل في اجتلابه من بلاد الشام ، فوضعه في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وكان عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الاحمر المرصع بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة اسد بجانبه غزال الى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر . وكل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيسة ،

ويخرج الماء من افواهها .

وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم ، لم يتكل فيه الناصر على أمين غيره . وكان يخبز في ايامه في كل يوم برسم حيتان البحيرات ثمانمائة خبزة .

وكان يشتغل في بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب الف واربعمائة ، كل دابة منها ثلاثة مثاقيل في الشهر . وكان يرد الزهراء من الجير والجص في كل ثالث من الايام الف ومائة حمل ، وكان فيها حمامان : واحد للقصر وثان للعامة .

وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الصخر المصرف الى التبليط فانه لم يدخل في هذا العدد .

والنفقة فيها في كل عام ثلاثمائة الف دينار مدة خمسة وعشرين عاما التي بقيت من دولة الناصر لدين الله .

وابتنى في حاضرته الجديدة هذه قصراً منيف الذرى ، ولم يدخر وسعاً في تمبقه وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف بــه رياض وجنان ساحرة ، وانشأ فيه مجلساً ملوكياً سمي بقصر الخلافة ، صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب وفي كل جانب من جوانبــه ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا من العـــاج والابنوس المرصع بالذهب والجواهر وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة وفي وسطه صهريج عظيم ممـــلوء بالزئبق ، وكانت الشمس اذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه باضواء ساحرة .

وكان الناصر قسم الجباية اثلاثا : ثلث للجند وثلث للبنـــاء وثلث مدخر . وكانت الجباية بالاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف واربعمائة الف وثمانين الف دينار ، واما اخماس الغنيمة فلا يحصيها ديوان .

ولما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة اطبق الناس على انه لم يبن مثله في الاسلام البتة ، ومــا دخل اليه احد قط من سائر البلاد النائية

والنحل المختلفة ، من ملك وارد ورسول وافد وتاجر ، وفي هذه الفئة من الناس تكون المعرفة والفطنة ، الا وكلهم قطع انه لم ير له شبيهاً ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى انه كان اعجب ما يؤمله القاطع الى الاندلس في تلك العصور النظر اليه والتحدث عنه . والاخبار عن هذا تتسع جداً ، ولو لم يكن فيه الا السطح الممرد المشرف على الروضة ، المباهي بمجلس الذهب والقبة وعجائب ما تضمنته من اتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون وذهب موضون وعمد كانما افرغت في القوالب ونقوش كالرياض وبرك عظيمة محكمة الصنعة ، وحياض وتماثيل عجيبة الاشخاص لا تهتدي الاوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها ، فسبحان الذي اقدر هذا المخلوق الضعيف على ابداعها واختراعها من اجزاء الارض المنحلة ، كيما يرى الغافلين عنه من عباده مثالاً لما اعده لاهل السعادة في دار المقامة التي لا يتسلط عليها الفناء .

وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر الف فتى وسبعمائة وخمسين ودخالتهم من اللحم كل يوم حاشا انواع الطير ثلاثة عشر الف رطل ، وعدة النساء بقصر الزهراء ، الصغار والكبار وخدم الخدمة ، ستة آلاف وثلاثمائة امرأة واربع عشرة .

وكما اشرنا سابقاً ، اشرف الحكم على اعمال البناء ورئيس المهندسين الذي خططها اسمه مسلمة بن عبدالله ، والمدينة بنيت من ثلاثة اجنحة : الواحد وهو الاعلى مخصص لقصر الخليفة وما يلوذ اليه ، والجناح المتوسط كان مغطى بالحدائق ، والاسفل يضم الحجرات الخاصة والمسجد الاكبر .

لا يعرف بالضبط تاريخ انتقال الناصر الى مدينة الزهراء هذه ولكن من المعلوم انه لم ينتظر انهاءها ففي سنة ٣٢٣ هجرية ٩٤٥ مسيحية اي تسع سنوات بعد ابتداء البناء ، اجرى فيها استقبالاً حافلاً ، ثم نقلت الدوائر والمصالح العامة شيئاً فشيئاً واخيراً دار صك النقود .

وقد اهتم الناصر بجعل القسم الاسفل من مدينته الجديدة الحي التجاري وهو جدير بهذا الاسم ، فشجع التجار على القدوم اليه والاقامة به بوعد كل واحد منهم باربعمائة درهم اذا نزل في ذلك الحي .

والتنظيم الاداري في مدينة الزهراء منسوخ عن قرطبة فكان فيها قاض وكان فيها رئيس شرطة وكان فيها وال بقطع النظر عن حرس الخليفة الخاص .

وهكذا في مـــدة وجيزة تحولت الزهراء الى مدينـــة ليس فقط للمتعة والاستراحة ، بل من حيث التنظيم الاداري والتجاري دون ان يؤثر ذلـك او يضر بشيء في اقتصاديات قرطبة القريبة منها .

غير ان هذه المدينة الحديثة لم تزدهر سوى ردحا يسيراً من الزمن فقــد زاحمتها المدينة « الزاهرة » التي بناها المنصور .

بعض اخبار الناصر لدين الله

ذكر ابن بسام ان ابا عامر بن شهيد احمد بن عبد الملــك الوزير اهدي له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه فلمحه الناصر فقال لابن شهيد : أنى لك هذا ؟ قـال : « هو من عند الله » . فقـــال له الناصر تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر .

فاستعذر واحتفل في هدية بعثها له مع الغلام وقال : « يا بني كن مع جملة مابعثت به ، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسي وكتب معه بهذه الابيات :

امولاي هــذا البدر سار لافقكم	وللافق اولى بالبدور من الارض
ارضيــكم بالنفس وهي نفيسة	ولم ار قبلي من بمهجتــه يرضي

فحسن ذلك عند الناصر واتحفه بمال جزيل ، وتمكنت عنده مكانته . ثم انه بعد ذلك اهديت اليه جارية من اجمل النساء فخاف ان ينتهي ذلك الى

الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام، فاحتفل في هدية اعظم من الاولى وبعثها معها وكتب له :

امولاي هذي الشمس والبدر اولا تقدم كيما يلتقي القمران
قران لعمري بالسعادة قد اتى فدم منهما في كوثر وجنان
فما لهما والله في الحسن ثالث وما لك في ملك البرية ثاني

فتضاعفت مكانته عنده .

ثم ان احد الوشاة رفع للملك انه ابقى في نفسه من الغلام حرارة وانه لا يزال يذكره حين تحركه الخمرة، فقال للواشي : « لا تحرك به لسانك والا طار رأسك »، واعمل الناصر حيلة في ان كتب على لسان الغلام رقعة منها :

« يا مولاي ، تعلم انك كنت لي على انفرادي ، ولم ازل معك في نعيم واني وان كنت عند الخليفة مشارك في المنزلة محاذر ما يبدو من سطوه للملك فتحيل في استدعائي منه » .

وبعثها مع غلام صغير السن واوصاه ان يقول : من عند فلان وان الملك لم يكلمه قط ان سأله عن ذلك .

فلما وقف ابو عامر على تلك الرسالة واستخبر الخادم علم من سؤاله ما كان في نفسه من الغلام وما تكلم به في مجالس المدام ، فكتب على ظهر الرقعة ولم يزد حرفاً :

امن بعد احكام التجارب ينبغي لدى سقوط الطير في غابة الاسد
وما انا ممن يغلب الحب قلبه ولا جاهل ما يدعيه اولو الحسد
فان كنت روحي قد وصيتك طائعاً وكيف يسر الروح ان فارق الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم يعد الى استماع واش به .

ودخل عليه بعد ذلك فقال له : « كيف خلصت من الشرك » ؟ فقال : « لأن عقلي بالهوى غير مشترك » .

الناصر ووزيراه ابو القاسم لب وعبد الملك بن جهور

مازح الناصر يوماً وزيره ابا القاسم لباً فقال له : « يا لب اهج الوزير عبد الملك بن جهور » . فامتنع عليه فقال لابن جهور : « فـاهجه انت اذ ابى هو من هجوك » .

فقال يا امير المؤمنين اتوقع عرضي منه واصون نفسي عنه . فقال الناصر : فأنا اهجوه :

لب ابو القاسم ذو لحية ... طويلة في طولهـا ميل

ثم قال لابن جهور : لا بد لك من تزيين هذا البيت ودع الاعتذار فقال :

وعرضها ميلان ان كسرت ... والعقل مـأفون ومدخول
لو انه احتاج الى غسلهـا ... لم يكفه في غسلهـا النيل

فضحك الناصر وقال للب : انه قد سبب لك القول فقل . فقال لب :

قـال امين الله في خلقه ... لي لحية ازرى بها الطول
وابن عمير قال قول الذي ... مأكوله القرطبل والفول
لولا حيائي من امام الهدى ... نخت بالمنخس شو قـول

فلما بلغ لب قوله شو . . . سكت فقال له الناصر : قول ، فأتم له على نحـو ما أضمر فقال له انت هجوته يا مولاي فضحك الناصر وأمر له بصلة .

ومعرفة عبد الملك بن جهور بعبد الرحمن الناصر قديمة العهد فقد خـاطبه

من اشبيلية وهو حينئذ ولد وجعل عنوان كتابه :

لأبي المطرف سيدي .

من عبده المتعبد .

وتحت العنوان :

دامت لك النعمى وان رغمت انوف الحسد
ورقتك نفسي كل محـ ذور يروح ويغتدي
وعلوت حتى لا يقا ل لقدرك العالي ازدد
اني كتبت وحر شو قي يستمبح تجلدي
ودموع عيني تنهمي فتحيل ما كتبت يدي
لتغربي وتوحشي وتفردي وتوحدي
من ذاق طعم البين ذا ق الموت غير مصرد
ورأى المنيـة جهرة في مصدر أو مورد
أتذكر الانس الذي ولى وطيب المشهد
وكريم بشرك لي .ووجـ هك حيث يشرق في الندى
فاعي من الحسرات الـ وانا تطيـل تبلدي
فاسلم وعش وابلغ مدا ك ودع حسودك يكمد
وارحمه ان نلت العلا وجرى بجـد انكد
ثم السلام عليك مـ ني دائما يا سيدي

ومن جيد قول عبد الملك بن جهور في النرجس :

قد بعثنا اليك بالنرجس الغـ ض حكى لون عاشق معمود
فيه ريح الحبيب عند التلاقي واصفرار المحب عند الصدود

وله في زوجته وكان كارها لاخلاقها وله معها اخبـار عجيبة ثم صار الى

مقارنتها :

من ذا يفك اساريه ويحل عقد عقاليه

من ذا يخلص من هوى من حبه في الهاوية

اني بليت بشر من تحت السماء العالية

اني دهيت بجية قطعت خراك لسانيه

ما أبصرتها مقلتي مذ أبصرتها راضية

تمضي السنون وتنقضي وحياتها متمادية

ولها اهيل منتن عور الوجوه سواسية

لولا الحياء بصقت في تلك الوجوه البالية

يا قوم معرفتي بهم يا زاني يا ابن الزانية

اشمتني وعورتني وقعدت عني ناحية

ما كان هذا منك في الود القديم جزائية

ومن مناقب عبدالرحمن الناصر لدين الله ، كثرة جوده ، فلم يعرف احد أجود منه في الجاهلية او في الاسلام :

كان محمد بن سعيد المعروف بابن السليم قد احتاج اموالاً كثيرة بتصرفه في كبار الولايات في المدة الطويلة فعلم ذلك منه الناصر ، فعرض له مراراً في ان يسهمه فيه عن طيب قلب منه وهو ملكه ، ولو شاء لأخذه منه . ولكن أبى ذلك كرم طبعه .

فقال في مجلسه يوماً : « ما بال رجال من خاصتنا توسعوا في دنيانا فطفقوا يختزنون الاموال وهم يرون غليظ مؤونتنا في الانفاق على شؤوننا التي بقدرتنا عليها صلاح احوالهم ورفاهية عيشهم ويعلمون ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب قاسم عماله قسطاً من الموازين في ارباحهم في عملاتهم فصيرها في بيت المال وهم من هم وهو من هو والاسوة في فعله » .

فسكت ابن سليم عنه وخالطه في تعريضه ، كأنه يعني غيره فازداد الناصر حنقاً عليه وغيظاً . فقال يوماً في بعض مجالسه الخاصة معه وقد اخذ الشراب منه وشق تفاحة بسكين في يده : « وددت ان اشق هكذا رأس من اعرف له مالاً كثيراً غله دوننا ، ولم يسهم بيت المال منه ، فطار عقل ابن سليم ولم يختلجه الشك في انه المعني به فقام بين يديه وقال : « يا امير المؤمنين طال ماعرفت له فسكت ، بلى والله ان عندي مالاً كثيراً وهو دون ظنك فيه ، اعددته للدهر العثور ، ولست والله اعطيك منه درهماً فما فوقه ، ورأيك في جميل الا ان تستحل ، واعوذ بالله ان تمد يدك اليه بغير جناية مني عليك ، فان الاتقي عفرة الشيخ » . قال فخجل الناصر ثم أقبل على ابن السليم يؤنسه ويسكن جاشه الى ان اعتدل مجلسه ، فجعل يمعن في الشراب طلباً للسكر لما خامره من الذعر . فقال له الناصر : « خفض عليك يا محمد فلا سبيل اليك » . فلما سكر ابن السليم تهوع فقذف ، وابتدره الوصفاء بالطست والمناديل ، فاقبل الناصر واخذ برأسه يمسكه ويقول له : « استفرغ ما في معدتك وتأن بنفسك ، فانكر ابن السليم كلامه بين الخدم وصرف اليه رأسه ، واذا به الناصر ، فما تمالك ان خر الى رجليه يقبلهما ويقول : « يا ابن الخلائف الى هنا انتهيت من بري » . وجعل يدعو له ويعظم شكره . فقال له الناصر : « ليتني اخرج كفافاً من شأني معك الليلة الطافاً بحذوة » .

ثم امر له بكسوة وانقلب الى اهله . فكان هذا مما يعد من كرمه وفضله . فلما مضت ايام ارسل ابن السليم الى الناصر بمائة ألف ، فقبلها الناصر وشكر فضله وعوّضه بكبير الولاية ، وصحبته منه النعمة العريضة الى حين وفاته .

ولم تكن هذه المرة الاولى والاخيرة التي يتقبل بها عبدالرحمن الناصر الهدايا من وزرائه ، فهدية وزيره ابن شهيد مشهورة ، فانه سنة ثلاثمائة وسبع وعشرين لثمان خلون من شهر جمادى الاولى ، وردت على الناصر لدين الله ، هدية وزيره احمد بن عبدالملك بن شهيد العظيمة الشأن ، ووقع الاجماع على انه لم يهاد احد

من ملوك الاندلس بمثلها ، فاعجبت الناصر واهل مملكته جميعاً .

وتفسير هديته هذه على ما ثبت في كتابه للناصر ، وذلك من المال العين ، خمسمائة الف دينار ، ومن العود المرتفع اربع مائة رطل ، منها في قطعة واحدة مائة وثمانون رطلاً ، ومن المسك الذكي المفضل في جنسه مئتا اوقية واثنتا عشرة اوقية ، ومن العنبر الاشهب الذي بقي على خلقته ولم تدخله صناعة مائة اوقية ، منها قطعة عجيبة الشكل - اربعون اوقية ، ومن الكافور المرتفع النقي الذكي ثلاث مائة اوقية . ومن انواع الثياب ثلاثون شقة وعشرة فراء من عالي الفنك ، وستة مطارف عراقية ، وثماني واربعون ملحفة زهرية لكسوته ، ومائة ملحفة زهرية لرقاده ، واربعة آلاف رطل من الحرير المغزول وغيرها . وثلاثون بساطاً من صوف مختلفة الصناعات طول كل بساط منها عشرون ذراعاً . ومن السلاح والعدة مائة تجفاف ، والف ترس سلطانية ، ومئة الف سهم . ومن الخيل مائة فرس واربعون وصيفاً وعشرون جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم .

وتضيف الرسالة :

كان قد امرني ايده الله بابتياعهم من مال الاخماس فابتعتهم من نعمته عندي وصيرتهم من بيتي ومن ذلك عشرة قناطير سكر لا سحاق فيه .

وفي آخر الكتاب : « ولما علمت تطلع مولاي ايده الله تعالى ، الى قرية كذا بالعقبانية المنقطعة الغرس في شرقها وترداده ، ايده الله تعالى ، لذكراها لم اهدأ بعيش حتى اعملت الحيلة في ابتياعها باجوازها واكتبت وكيله ابن بقية الرتيقة فيها باسمه وضمها الى ضياعه . وكذا صنعت في قرية تيرة من منطقة جيان عندما اتصل بي من وصفه لها وتطلعه اليها ، فما زلت اتصدى لمسرته بها حتى ابتعتها الآن باحوازها وجميع منازلها وربوعها . واحتاز ذلك كله الوكيل ابن بقية وصار في يده له ابقاه الله سبحانه وارجو انه سيرفع فيها في هذه السنة آلاف امداد من الاطعمة ان شاء الله تعالى .

ولما علمت نافذ عزمه ، ابقاه الله تعالى ، في البنيان وكلفه به وفكرت في عدد الاماكن التي تطلع نفسه الكريمة الى تخليد آثاره في بنيانها ، مد الله في عمره ، واوفى بها على اقصى امله ، علمت ان اسسه وقوامه الصخر والاستكثار منه ، فاثارت لي همتي ونصيحتي حكمة حيلة احكمها سعدك وجدك اللذان يعطيانك مالا يقوم عده ، حيلة اقيم لك بها في عام واحد عدد ما كان يقوم على يدي عبدك ابن عاصم في عشرين عاماً ، وينتهي تحصيل النفقة فيه الى نحو الثمانين الفاً ، اعجل شأنه في عام ، سوى التوفير العظيم الذي يبديه العيان ، ان شاء الله تعالى .

وكذلك ما ناب الي في امر الخشب لهذه المنية المكرمة ، فان ابن خليل عبدك المجتهد الدؤوب انتهى في تحصيل عدد ما تحتاج اليه ، ثلاث مائة الف عود ونيف من عشرين الف عود ، على انه لا يدخل منه في السنة الا نحو الفي عود ، ففتح لي سعدك رأياً اقيم له بتمامه جميع هذه الخشب العام على كله ، بورود الجلبية لوقتها ، وقيمته على الرخص ما بين الخمسين الفاً الى ستين الفاً .

الناصر والفقيه المشاور ابو ابراهيم

حكي ان عبدالرحمن الناصر لما اعذر لاولاد ابنه مروان الاكبر عبيدالله اتخذ لذلك صنيعاً عظيماً بقصر الزهراء ولم يتخلف عنه احد من اهل مملكته ، وامر ان ينذر لشهوده الفقهاء المشاورون ومن يليهم من العلماء والعدول ووجوه الناس ، فتخلف من بينهم الفقيه المشاور ابو ابراهيم وافتقد مكانه لارتفاع منزلته فساء ذلك الخليفة الناصر ووجد على ابي ابراهيم وامر ابنه ولي العهد الحكم بالكتاب اليه والتنفيذ له . فكتب اليه الحكم رقعة نسختها :

باسم الله الرحمن الرحيم .

حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك ، لما امتحن امير المؤمنين مولاي وسيدي ابقاه الله الأولياء الذين يستعد بهم ، وجدك متقدماً في الولاية متأخراً عن الصلة ،

على انه قد اندرك ابقاه الله ، خصوصاً المشاركة في السرور الذي كان عنده ، لا اعدمه الله توالي المسرة ثم اندرت من قبل ابلاغاً في التكرمة فكان ، على ذلك كله ، من التخلف ما ضاقت عليك المعذرة واستبلغ امير المؤمنين في انكاره ومعاتبتك عليه فاعيت عليك عنك الحجة . فعرفني اكرمك الله ما العذر الذي اوجب توقفك عن اجابة دعوته ومشاهدة السرور الذي سر به ورغب المشاركة فيه لنعرفه ، ابقاه الله ، بذلك فتسكن نفسه العزيزة إن شاء الله تعالى .

فاجابه ابو ابراهيم :

وسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته .

قرأت ، ابقى الله سيدي ، هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقفي لنفسي ، انما كان لامير المؤمنين سيدنا ابقاه الله ولسلطانه لعلمي بمذهبه ولكوني الى تقواه واقتفائه لاثر سلفه الطيب ، رضوان الله عليهم ، فانهم كانوا يستبقون من هذه الطبقة بقية ، لا يمتهنونها بما يشينها ولا بما يغض منها ويطرق الى تنقصها فيستعدون بها لدينهم ويتزيون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم ، فلهذا تخلفت ، ولعلمي بمذهبه توقفت ، ان شاء الله تعالى ، .

قال فلما أقرأ الحكم اباه الناصر جواب ابي ابراهيم اسحق اعجبه واستحسن اعتذاره وزال ما بنفسه عليه . وكان الفقيه ابو ابراهيم المذكور معظماً عند الناصر وابنه الحكم .

الناصر لدين الله والقاضي المنذر بن سعيد

كان الخليفة الناصر لدين الله كلفاً بعمارة الارض واقامة معالمها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان فأفضى به الاغراق في ذلك الى ان ابتنى مدينة الزهراء البناء الذي شاع ذكره واستفرغ وسعه في تنميقها واتقان قصورها وزخرفة مصانعها فأراد القاضي منذر ان يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة والتذكير بالانابة والرجوع فأدخل في خطبته فصلاً

مبتدئاً بقوله تعالى: «اتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون»... ولا تقولوا: «سواء علينا اوعظت ام لم تكن من الواعظين» قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى وهي دار القرار ومكان الجزاء.

ووصـــل ذلك بكلام جزل وقول فصل ومضى في ذم تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته والاسراف في الانفاق عليه، واتى بمـا يشاكل المعنى من التخويف بالموت والتحذير من فجأته والدعاء الى الزهد في هذه الدار الفانية والحض على اعتزالها والرفض لها والاعراض عنها. والاقصار عن طلب اللذات ونهي النفس عن اتباع هواها، فأسهب في ذلك كله واضاف اليه من آي القرآن ما يطابقه وجلب من الحديث والاثر مـــا يشاكله حتى ادكر من حضره من النـاس وخضعوا ورقوا واعترفوا وبكوا وضجوا ودعوا واعلنوا التضرع الى الله والتوبة والابتهال في المغفرة. واخـــذ خليفة قرطبة من ذلك بأوفر حظ وقد علم انه المقصود، فبكى وندم على مـا سلف له من فرطه واستعاذ بالله من سخطه، الا انه وجد على المنذر بن سعيد لغلظ مـا قرعه به. فشكا ذلك الى ولده الحكم بعد انصرافه وقال والله لقد تعمدني المنذر بخطبته وما عنى بها غيري فأسرف علي وافرط في تقريعي ولم يحسن السياسة في وعظي فزعزع قلبي وكاد بعصاه يقرعني. واستشاط غيظاً عليه فأقسم الا يصلي خلفه صلاة الجمعة فجعل يلتزم صلاتها وراء احمد بن مطرف، صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة بالزهراء.

وقال له الحكم: «ما الذي يمنعك من عزل المنذر من الصلاة بك والاستبدال منه اذ كرهته»؟

فزجره وانتهره وقال له: «امثل منذر بن سعيد في خيره وفضله وعلمه؟ لا ام لك، يعزل لارضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟ هذا مـا لا يكون، واني لاستحي من الله الا اجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل

مثله في ورعه وصدقه ، ولكنه قد احرجني فـأقسمت ولوددت اني اجد سبيلا الى كفارة يميني بملكي ، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله تعالى » .

الاستسقاء

وقحط الناس آخر مدة الناصر فـأمر القاضي منذر بن سعيد بالبروز الى الاستسقاء بالناس، فتأهب لذلك وصام بين يديه اياماً ثلاثة تنفلا وانابة ورهبة . فاجتمع له الناس في مصلى الربض بقرطبة بارزين الى الله تعـالى في جمع عظيم . وصعد الخليفة الناصر في اعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشارف النـاس ويشاركهم في الخروج الى الله تعالى والضراعة له ، فأبطأ القاضي حتى اجتمع الناس وغصت بهم ساحة المصلى ثم خرج نحوهم ماشياً متضرعاً متخشعاً ، وقـام ليخطب، فلما رأى بدار الناس الى ارتقابه واخباتهم له واستكانتهم من خيفة الله وابتهالهم اليه ، رقت نفسـه وغلبته عيناه فاستعبر وبكى ثم افتتح خطبتـه بأن قال :

يا ايها الناس سلام عليكم ، ثم سكت ووقف شبيه الحصر ولم يك من عادته ، فنظر الناس بعضهم الى بعض لا يدرون ما اعتراه ولا ما أراد بقوله ، ثم اندفع تاليا لقوله تعالى : « كتب ربكم على نفسـه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فـانه غفور رحيم ، استغفروا ربكم انه كان غفوراً ، « واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه وتزلفوا بالاعمال الصالحات لديه » .

قال الحاكي فضج النـاس بالبكاء وجاروا بالدعاء ومضى على تمام خطبته ففزع النفوس بوعظه وانبعث الاخلاص بتذكيره، فلم ينقض النهـار حتى ارسل الله السماء بماء منهمر وطرد المحل وسكن الازل والله لطيف بعباده .

وكان له في خطب الاستسقاء استفتاح عجيب . ومنه ان قال يوما وقد سرح طرفه في الناس عندما شخصوا اليه بأبصارهم فهتف بهم كالمنادي : يا ايها الناس، وكررها عليهم مشيراً بيده في نواحيهم ،انتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد

ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز» فاشتد وجد الناس وتطافرت أعينهم بالبكاء .

وبما اننا ابتدأنا بالكلام عن منذر بن سعيد البلوطي فلنتابع الكلام عنه ، وهذا نفسه الذي خطب امام رسل الروم وأجاد كل الإجـادة فولاه الناصر القضاء في قرطبة .

يقول عنه نفح الطيب انه خطيب مصقع وله كتب مؤلفة في القرآن والسنة والورع والرد على اهل الاهواء والبدع . شاعر بليغ ، ولد سنة خمس وستين ومائتين . تولى القضاء بقرطبة بعد وفاة محمد بن عيسى القاضي . أقره الناصر على الصلاة في الزهراء . قيل عنه انه آية حركة وسكون بركة وآية سفاهة في تحلم ، وجهامة ورع في طي تبسم ، اذا جد وجد واذا هزل نزل ، وفي كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مرقب ولا اكتسب اثما ولا احتقب ، ولي قضاء الجماعة بقرطبة ايام الناصر ، وناهيك من عدل أظهر ومن فضل شهر ومن جور قبض ومن حق رفع ومن باطل خفض . وكان مهيبا صليبا صارما غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لاحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم .

واستمر في القضاء الى ان مات الناصر لدين الله . ثم ولي ابنه الحكم فأقره في خلافته واستعفى مراراً فما أعفي وتوفي بعد ذلك . لم يحفظ عنه مدة ولايته قضية جور ولا عدت عليه في حكومته زلة . وكان غزير العلم كثير الادب ، متكلما بالحق متبينا بالصدق وكان خطيبا بليغا وشاعراً محسنا . ولد عند ولاية المنذر بن محمد وتوفي سنة ٣٥٥ . ومن شعره في الزهد :

كم تصابى وقد علاك المشيب ... وتعامى عمداً وانت اللبيب

كيف تلهو وقد أتاك نذير ... ان سيأتي الحمام منك قريب

يا سفيها قد حان منه رحيل ... بعد ذاك الرحيل يوم عصيب

ان للموت سكرة فارتقبها ... لا يداوي ، اذا أتتك ، طبيب

كم توانى حتى تصير رهينا ... ثم تأتيك دعوة فتجيب

المماه انت عليم   فاعملن جاهداً له يا رببب

بامور يوما تحاسب فيه   ان من يذكر فسوف ينيب

وتذكر ليس من ساعة من الدهر الا   للمنايا بهـا عليك رقيب

وله من خطبة في هذا المعنى : حتى متى والى متى أعظ غيري ولا أتعظ وأزجر ولا أزدجر ، أدل الطريق على المستدلين وأبقى مقيما في الحائرين ، كلا ان هذا لهو البلاء المبين ، ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهـدي من تشاء ، اللهم فرغني لما خلقتني له ولا تشغلني بما تكفلت لي بـه ولا تحرمني وانا أسألك ولا تعذبني وانا أستغفرك يا أرحم الراحمين .

ودخل منذر بن سعيد يوما على الناصر لدين الله وهو مكب على الاشتغال بالبنيان ، فوعظه ، فأنشد عبدالرحمن الناصر :

هم الملوك اذا ارادوا ذكرهـا   من بعدهم ، فبألسن البنيان

او ما ترى الهرمين قد بقيا وكم   ملك محاه حوادث الازمان

ان البنـاء اذا تعاظم شأنه   اضحى يدل على عظيم الشان

وحضر معه يوما في الزهراء ، فقـام الرئيس ابو عثمان بن ادريس فأنشد الناصر قصيدة منها :

سيشهد ما ابقيت انك لم تكن   مضيعاً وقد مكنت للدين والدنيا

فبالجامع المعمور للعلم والتقى   وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج ، واطرق منذر بن سعيد ساعة ثم قام منشداً :

يا باني الزهراء مستغرقـاً   اوقاته فيهـا اما تمهل ؟

لله مـا أحسنها رونقاً   لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر : « اذا هب عليهـا نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع يا ابا الحكم ، لا تذبل ان شاء الله تعالى » .

وقرطبة اكثر بلاد الاندلس كتبا وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرئاسة حتى ان الرئيس منهم الذي لاتكون عنده معرفة يحتفل في ان تكون في بيته خزانة كتب ليقال « فلان عنده خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس عند احد غيره ، والكتاب الذي بخط فلان قد حصله وظفر به » .

قال الحضرمي : « أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أرقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع الي المنادى بالزيادة علي ، الى ان بلغ فوق حده . فقلت له : « يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوي ، فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة فدنوت منه وقلت له : « أعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده » .

فقال لي : « لست بفقيه ولا أدري ما فيه ولكنني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين اعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير » .

قال الحضرمي : « فأحرجني وحملني على ان قلت له نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لا اسنان له ، وانا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلا وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه » .

وكان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون إمرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي ، هذا في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها . وكان فيها ثلاثة آلاف مقلس وكان لايقلس عندهم في ذلك الزمان إلا من صلح للفتيا ، وكان

الناس بمستصفى، بسرج قرطبة ثلاث فراسخ لا ينقطع عنه الضوء .

وفيها من المباني الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم ثم للقوط والامم السالفة ما يعجز الوصف ، ثم جاء العرب وخاصة الخليفة الناصر ابتدع في قصورها البدائع الحسان والآثار العجيبة والرياض الأنيقة . وأجرى فيها المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة حتى وصلت الى القصر الكريم وجرت في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه ، في قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع، صور مختلفة الاشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في احواض الرخام الرومية المنقوشة .

ومن قصوره المشهورة وبساتينه المعمورة الكامل والمجدد والحائر والروضة والزاهر والمعشوق والمبارك والرشيق وقصر السرور والتاج البديع .

وأرباض قرطبة واحد وعشرون ربضاً منها القبلية والغربية وهي تسعة ربض حوانيت الريحان وربض الرقاقين وربض مسجد الكهف وربض بلاط مغيث وربض مسجد الشفاء وربض السجن القديم ، وأما الشمالية فثلاثة ربض باب اليهود وربض مسجد ام سلمى وربض الرصافة ، وأما الشرقية ربض البرج وربض منية عبدالله وربض الزاهرة وربض المدينة العتيقة ووسط هذه الرباض قصبة قرطبة .

والروح ايضاً ابتدأ يصقل ، فالشعر والفلسفة والموسيقى تربعت على عرشها في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس :

كان الفتح العربي ودان للعرب أمم عريقة القدم في الحسب والنسب ، أمم لسنين خلت كانت تنظر الى ربيب الصحراء نظرة كراهية ونفور وتحقير غير آبهة له وغير حاسبة له حساباً ، واذا هذا العربي النحيل الذي يشد وسطه من الجوع يصبح ذا حول وطول يأمر وينهى ويتحكم ، واذا بالعربية العجفاء الهزيلة بعد الفتح تتهدل من السمنة ويسابقون لخطب يدهما وهي عنهم معرضة وقد

كانوا من قبل ينفرون منها وهي التي لا تصلح لغير الحلب والصر . تبدل فجائي كان من شأنه ان يقعد بالهم الصلد فتستكين وبالصدور العامرة بالثقة فتخمد فيها جذوة الفتح ويضيع هذا المجد الطريف المشترى بدم ذكي . غير ان العقلاء بين العرب أدركوا انه لا بد من اساس مكين تبنى عليه هذه الدولة المترامية الاطراف والا انقرضت كما انقرض سواها . ان هذه الرفاهية الموقتة لا تلبث ان تتحول الى قحط فمحل اذا لم تسر وفقاً لمبادىء تضمن لها البقاء .

ان الامم المغلوبة على امرها لا يمكن ان تدين للقوة طويلا خصوصاً اذا تحقق لديها ان ليس للغالب سوى القوة كسلاح ، وهذه الامم الرومية لا تنام على ضيم ولا تستكين على اذى بل تتحفز للوثبة في كل فرصة مؤاتية ، فكان على العربي ان يكون دائم الحذر كان عليه ان يبين لهؤلاء انه كفوء لتسيير امور العباد احسن منهم هم الذين بلاهم العالم فاثقلوا كواهله باحمال مرهقة ، فكان لزاماً اذن على الدولة العربية ان تقوم على اساسات لا تحتل منها القوة سوى مكاناً يسيرا ، على اساسات ثابتة . وقابلت بين ما عندها من قوى روحية فكرية وبين ما عند الامم المغلوبة من قوى روحية ، فوجدت ما عندها ضئيلا فعمدت الى الاستفادة مما عند هذه الشعوب الكثيرة فصهرته في بوتقة خاصة وبثته من روحها الجديدة الحية عنصراً حيوياً قابلاً النمو والترقي .

وفضل العرب قائم ليس في كونهم فتحوا امصاراً عديدة بل فيما قدموا للعالم من قوى روحية فكرية ظل العالم كله يشتغل على نورها اجيالاً عديدة حتى يمكن القول بكل حق وصواب انه لولا العرب لتأخرت الحضارة الغربية قرناً كاملا .

إن الحضارة العربية في الغرب لا تقل شأناً عن اختها في الشرق ، فقرطبة استحقت ان يطلق عليها شعوب اوروبا اسم « اثينة الغرب » .

كانت العربية اللغة الرسمية للدولة ، وفرض عبد الرحمن الناصر على خدمه وحشمه ووزرائه معرفتها فكانوا يتقنونها كما يتقنونها في الحجاز واليمن .

غير ان عامة الشعب واعيان المدينة كانوا يتكلمون لغة امتزجت فيها كلمات ولهجات بربرية ، فلم يعد التجار القادمون من الشرق يفهمون هذه اللغة الجديدة التي ليست بالعربيـة الصرفة ولا البربرية البحتة بل مزيج غريب من الاثنين ، والعلم كان منتشراً في الاندلس انتشاراً فلا يـكاد يوجد احد لا يعرف القراءة والكتابة خلافاً لظلام الجهل الناشر سهوله على اوروبا آنذاك .

فالمدرسون يلقنون الاطفال تعليم السورات القرآنية ، وعندما يتوصلون الى معرفة القراءة والكتابة ينتقلون الى الدراسات العليا وهي تاريخ العرب ، الفقه تقسيم المواريث ، العلوم الصوفية ، واللاهوت الاسلامي ، الادب ، الطب ، الفلسفة ، علم النجوم ، والموسيقى . وعندما ينهي الطالب دراسته في احد هذه الفروع يعطى شهادة اي اجازة يستطيع بواسطتها ان يرتقي الى الوظائف العالية في جند الدولة .

والعالم في الاندلس معظم من الخاصة والعامة يشار اليه بالبنان وينبه قدره وذكره عند الناس ويكرم في جوار او ابتياع حاجة ، ومع هذا فليس لاهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد باجرة ، فالعالم منهم بارع لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ان يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يتعلم وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم فان لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهر بها خوف العامة فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة او « يشتغل بالتنجيم » اطلق عليه اسم زنديق وقيدت عليه انفاسه فان زل في شبهة رجموه بالحجارة او حرقوه قبل ان يصل امره للسلطان او يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة .

وللفقه رونق ووجاهه ، ولا مذهب لهم الا مذهب مالك وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمة في العلوم ، وسمة الفقيه عندهم جليلة .

والشعر عندهم له حظ عظيم ، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم حظ

واكرام ، فلنسمع احد الشعراء يصف جمال الاندلس :

وفي ارض اندلس تلتذ نعماء ... ولا يفارق فيها القلب سراء
وكيف لا تبهج الابصار رؤيتها ... وكل ارض بها في الوشي صنعاء
انهارها فضة والمسك تربتها ... والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به ... من لا يرق وتبدو منه اهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً ... ولا انتشار لآلي الطل انداء
وانما ارج الند استثار بها ... في ماء ورد فطابت منه ارجاء

ولا عجب اذا كان الشعر له رواج في الاندلس لان كل شيء هنا يوحي الشعر والأمراء كانوا جميعاً ينظمون الشعر وخاصة الامير عبدالله جد الخليفة عبد الرحمن الناصر فورث هذا عن جد الميل الى الشعر واحترام الشعراء وخاصة الشاعر ابن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » .

وما كانت تخلو قرطبة من صالات يجتمع فيها الادباء والشعراء يتداولون في كافة العلوم المعروفة في ذلك العصر فيجتمعون في كل جلسة عند أحدهم ، وكان منزل محمد بن اسماعيل القرطبي الملقب بالحكيم من اشهرها . وهذا الرجل اشتهر في كثرة علمه وتعمقه في الحساب والمنطق واكتشاف حقائق جديدة فهو اللغوي والشاعر والاديب والعالم ، ومنزله يقع في منطقة الباب الغربي وهـو كبقية البيوت الاندلسية مؤلف من اربعة اجنحة في وسطها ساحة تحيط بها العواميد الهيفاء وفي وسط الساحـة بركة وعلى اعتاب الأبواب نقشت الآيات القرآنية والاشعار الحكمية .

وعبد الرحمن في شبابه كان يستلذ تلك الاجتماعات الادبية حيث يتجادلون في علوم الفلك والخليقة والطب وما وراء الطبيعة . وعند وصول الخليفة يترجل الحاضرون فيدعوهم الى الجلوس ويبدأ محمد بن اسماعيل القرطبي يكلمهم عن الطعام والشراب ، فقـال : « افضل الطعام ، الذي لا تسبب عنه اسقام وهو

الذي لا يؤكل الا بعد الجوع ، التخمة اصل كل داء . والفاكهة تؤكل في اقبالها وتترك اذا انقضى زمانها .

وانبرى احد الحضور وسأله عن الحمام وفوائده ومضاره فقال : « افضل الحمام هو ما عذب ماؤه واتسع فضاؤه وطاب هواؤه بحيث تكون اهويته اربعة خريفي وشتوي وربيعي وصيفي .

وبعد هذه الاسئلة عن الطعام والشراب والحمام اخذوا في الحديث عن الشمس والقمر والكواكب الاخرى عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل ، فالشمس حارة يابسة نحسة بالمقارنة سعيدة بالنظرة تمكث في كل برج ثلاثين يوماً .

والقمر بارد رطب سعيد يمكث في كل برج يومين او ثلاثة ايام ،

عطارد ممتزج بين النحس والسعد ، سعد من السعود ونحس من النحوس ، يمكث في كل برج سبعة عشر يوماً ونصف اليوم .

والزهرة حارة رطبة سعد تكمل دورتها في عشرة اشهر وبيتها الميزان والثور وتمكث في كل برج من البروج خمسة وعشرين يوماً .

والمريخ نحس يكمل دورته في ثمانية عشر شهراً وبيته العقرب والحروف ويمكث في كل برج عشرة اشهر .

والمشتري سعد يمكث في كل برج سنة ويكمل دورته في اثني عشرة سنة وبيته القوس .

زحل يكمل دورته في ثلاثين سنة ويمكث في كل برج سنتين ونصف اي ثلاثين شهراً وهو بارد نحس وبيته الجدي والدلو .

وتوجد بين هذه الكواكب محبة وبغضاء ، فالزحل يحب المريخ ، والمشتري يحب الشمس والزهرة تحب المشتري وهو يبغضها ، العطارد يحب الزهرة والقمر يحب المشتري .

الشمس عدوة زحل، الزهرة عدوة المريخ، العطارد عدو المشترى والقمر عدو الزحل . والشمس تطلع من عيون وتأفل في عيون ، فعيون الطلوع اجزاء المشارق وعيون الافول اجزاء المغارب ، قال الله تعالى : «فلا اقسم برب المشارق والمغارب» ، وقال تعالى : «هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً» فالقمر سلطان الليل والشمس سلطان النهار وهما مستبقان متداركان «لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ، ويولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل . »

واذا كان اول يوم من السنة الاحد فهو للشمس ويدل ذلك على الجور من الملوك والسلاطين والولاة وقلة المطر وتكون الحبوب طيبة الا العدس فانه يعطب ويفسد العنب ويرخص القمح ويكثر القتال بين الملوك ويكثر الخير في تلك السنة .

ويوم الاثنين هو للقمر ويدل على صلاح ولاة الامور وتكون السنة كثيرة الامطار والحبوب طيبة ويموت الدواب ويكثر العنب ويقل العسل ويرخص القطن .

ويوم الثلاثاء للمريخ ويدل ذلك على موت كبار الناس واراقة الدماء والغلاء في الحبوب وقلة الامطار ويرخص العسل والعدس ويغلو بذر الكتان وفيها يفلح الشعير دون سائر الحبوب ويكثر القتال بين الملوك .

يوم الاربعاء هو لعطارد ، الامطار معتدلة ويفسد بعض الزرع ويكثر موت الاطفال والدواب ويكثر القتل في البحر ويكثر الرعد والبرق ويغلو العسل ويكثر طلع النخل ويكثر الكتان والقطن . ويوم الخميس هو للمشتري ويدل ذلك على العدل في الوزراء والصلاح في القضاء والخير كثير وتكثر الامطار والثمار والحبوب والسمك .

يوم الجمعة هو للزهرة يدل على التحدث بالزور والبهتان ويطيب الخريف ويكون الرخص في بلاد دون بلاد ويغلو العسل ويفسد العنب والبطيخ .

ويوم السبت هو لزحل ويدل ذلك على ايثار العبيد والروم ومن لا خير فيه ولا في قربه ، وان يكون الغلاء والقحط كثيراً والغيم كثيراً وتقل البركة من الزرع وتفسد الحبوب . ،

وبعد هذا الحديث عن التنجيم أخذوا يتحدثون عن الكائنات وعلم العالم فسأله أحدهم عن الدهر فأجاب : « هو اسم واقع على ساعات الليل والنهار وان هي إلا مقادير الشمس والقمر في أفلاكهما كما أخبر الله تعالى ، حيث قال: « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . »

وسأله أحدهم عن رجل صلى صلاة الصبح فنظر الى أمة فحرمت عليه فلما كان الظهر حلت له ، فلما كان العصر حرمت عليه فلما كان المغرب حلت له فلما كان العشاء حرمت عليه ، فلما كان الصباح حلت له ، فأجاب :

إنه رجل نظر إلى أمة غيره عند الصبح وهي حرام عليه ، فلما كان الظهر اشتراها فحلت له . فلما كان العصر أعتقها فحرمت عليه ، فلما كان المغرب تزوجها فحلت له ، فلما كان العشاء طلقها فحرمت عليه ، فلما كان الصبح راجعها فحلت له .

وسئل عن خمسة اشياء خلقها الله تعالى قبل الخلق فقال الماء والتراب والنور والظلمة والثمار .

وسأله أحد التلامذة عن الصراط فقال طوله ثلاثة آلاف عام الف هبوط والف صعود وألف استواء وهو أحد من السيف وأرق من الشعرة .
وكانت تجري اجتماعات على مستوى أرفع أعني يتحدثون بها عن علوم ما وراء الطبيعة ، يشرف عليها ابن مسرة وسنفرد لهذا الفيلسوف فصلاً خاصاً .

ابن عبد ربه

صاحب « العقد الفريد » وهو أشبه بموسوعة ادبية تاريخية فلسفية .

مدح الامير محمد وشعره قليل فيه وثنا بأخيه المنذر وقد انطلق مرح العنان، فاجاد المديح وتصرف في الافنان وثلث بالامير عبدالله وقد تنفخت اشعاره وانقادت له بدائع معانيه وغرائب اختراعاته واستأخر الى ايام الخليفة الناصر لدين الله ففيها استفرغ القول واستغرف الحمد فعلا ذكره واستطار بأرق شعره. وكان ابن عبد ربه اطلس فكان محمد بن يحيى القلفاط يلقبه طلاس وقد كان الذي بينهما صالحا حتى فسد باسباب المزاح فانقلب عداوة صريحة .

وكان القلفاط وهو من شعراء ذلك العصر يقول عن عقد الدر انه حبل الثوم لا عقد الدر . وتهاجيا هجاء لاذعا .

مدح الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فعلت طبقته وبعد صيته. وكثرت غرر اشعاره ، وانبعث الشعر منه وهو حديث السن فبانت براعته .

وكان غزير القول تؤاتيه القوافي وتنقاد له الاعاريض فشعره كثير واحسانه مشهور :

توفي سنة ٣٢٨ هجرية ، وكان قد اصابه الفالج قبل ذلك باعوام .

من شعر ابن عبد ربه قوله :

ودعتني بزفرة واعتناق ... ثم قالت متى يكون التلاقي

وبدت لي فاشرق الصبح منها ... بين تلك الجيوب والأطواق

يا سقيم الجفون من غير سقم ... بين عينيك مصرع العشاق

ان يوم الفراق أفظع يوم ... ليتني مت قبل يوم الفراق

وقال يمدح ابراهيم بن حجاج :

الا ان ابراهيم لجة ساحل ... من الجود أرست فوق لجة ساحل

فاشبيلية الزهراء تزهو بوجهه ... وقرمونة الغراء ذات الفضائل

اذا ما تحلت تلك من نور وجهه ... غدت هذه للناس في زي عاطل

وإن حل هذي فهو يوحش هذه ... فتهدى برسل نحوه ورسائل

ومن قوله أيضاً في ابراهيم هذا :

كتاب الشوق يطويه الفؤاد ... ومن فيض الدموع له مداد

تخط يد البكاء به سطوراً ... على كبدي ويمليها السهاد

وكيف وبي فؤاد مستطير ... بمن لا يستطير له فؤاد

أمن يمن يكون الجود خلواً ... وابراهيم خاتمها الجواد

وباركه لمن يأتيه حجّ ... ومدحته رباط او جهاد

وما لي في التخلف عنه عذر ... ولي في الارض راحلة وزاد

وقال يمدح الامير عبد الرحمن الناصر :

قد أوضح الله للاسلام منهاجا ... والناس قد دخلوا في الدين أفواجا

وقد تزينت الدنيا لساكنها ... كأنما ألبست وشياً وديباجا

يا بن الخلائف ان المزن لو علمت ... نداك ما كان منها الماء ثجاجا

والحرب لو علمت بان تصول به ... ما هيجت من جبال الدين اهياجا

مات النفاق وأعطى الكفر ندمته ... وذلت الخيل ألجاماً وأسراجا

وأصبح النصر معقوداً بألوية ... تطوي المراحل تهجيراً وأدلاجا

وكان الناصر قد خرج يوما على فرس أبلق والوزراء قد حفوا به ، فقال ابن عبد ربه من قصيدة :

بدر بدا من تحته أبلق … يحسد فيه المغرب والمشرق
لو يعلم الأبلق من تحته … لاختال من عجب به الأبلق
أمام عدل باسط كفه … يرزق منها الله من يرزق

وقال أيضاً في المدح :

وما خلقت كفاك إلا لاربع … عقائل لم تخلق لهن يدان
لتقبيل أفواه وإعطاء نائل … وتقليب هندي وحبس عنان

وقال في الهجاء :

يا قابض الكف لا زالت مقبضة … فما أناملها للناس أرزاق
وغب إذا شئت حتى لا ترى ابدا … فما لفقدك في الأحشاء أقلاق

وقال أيضاً في الهجاء :

براعة غرتني منها وميض سنى … حتى مددت اليها الكف مقتبسا
نصادفت حجراً لو كنت تضربه … من لؤمه بعصا موسى لما انبجسا
كأنما صيغ من لؤم ومن كذب … فكان ذاك له روحا وذا نفسا

وكان لابن عبد ربه فتى يهواه ، فأعلمه انه يسافر غداً . فلما أصبح عاقه المطر عن السفر فانجلى عن ابن عبد ربه همه وكتب إليه :

هلا ابتكرت لبين انت مبتكر … هيهات يأبى عليك الله والقدر
ما زلت أبكي حذار البين ملتهبا … حتى رثى لي فيك الريح والمطر

يا بردة من حبا مزنت على كبد نيرانها بقليل الشوق تستعر
آليت ان لا أرى شمسا ولا قمرا حتى أراك فأنت الشمس والقمر

وله ايضا :

صل من هويت وإن أبدى معاتبة فأطيب العيش وصل بين الفين
واقطع حبائل خدن لا تلائمه فقلما تسع الدنيا بغيضين

ابن القوطية

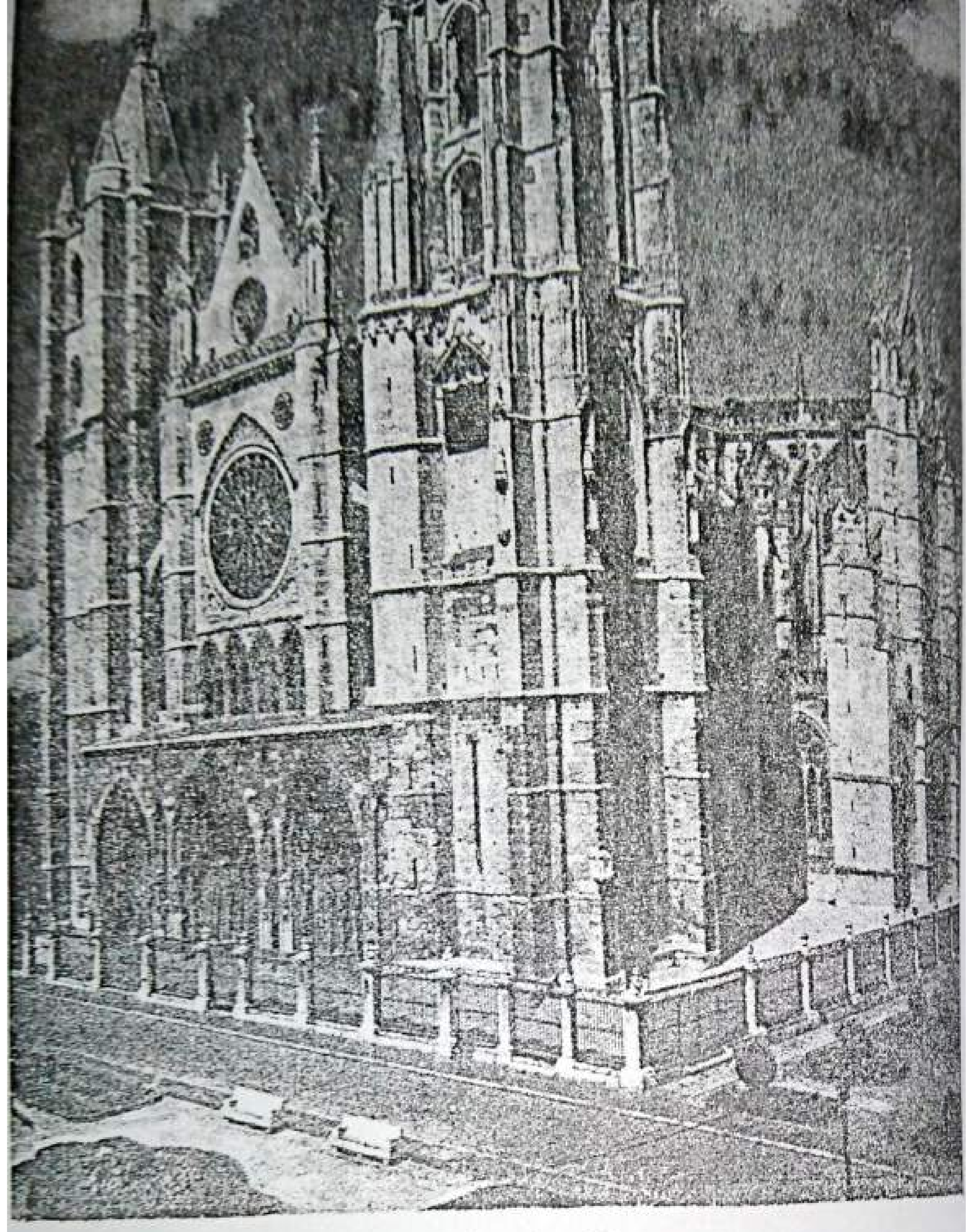
ولد ابن القوطية في قرطبة ودرس في اشبيلية ولم تعرف سنة ولادته بالضبط وإن أجمع الرواة على وفاته سنة ٣٦٧ للهجرة ٩٧٧ للميلاد . وكانت جدته حفيدة غيطشة التي قصدت الخليفة الأموي في دمشق سليمان بن عبد الملك لظلامة لحقت بها فأكرمها الخليفة الأموي وزوجها احد مواليه كما رأينا .

أهم ما بقي لنا من مؤلفات ابن القوطية كتابه « تاريخ افتتاح الاندلس » مخطوطاً في مكتبة مدريد الوطنية مسجلاً تحت رقم ٤٩٩٦ بخط ساباداد الطركوني . ويعتبر تاريخ افتتاح الأندلس من أقدم المصادر لدراسة الفتح العربي إذ يرجع الى القرن الرابع الهجري ، ويحمل عنصراً قومياً لأحداث البلاد الداخلية . عنى بتحقيقه وشرحه الدكتور عبدالله انيس الطباع .

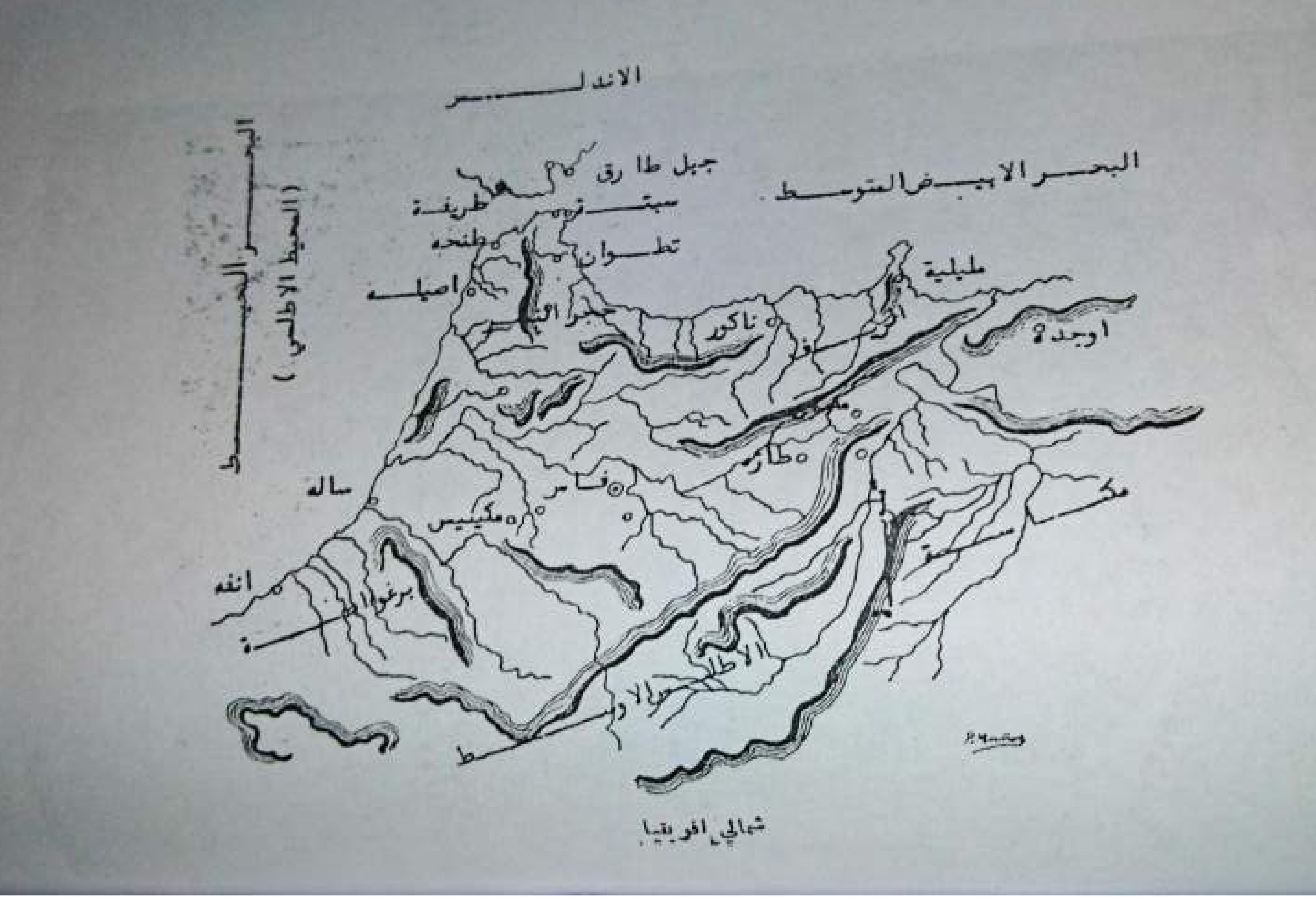
وكان ابن القوطية الى جانب اهتمامه بالتاريخ معنياً بالحديث وعلومه والفقه ، قال ابن خلكان في ترجمة ابن القوطية : « إن أبا علي القالي لما دخل الاندلس اجتمع به وكان يبالغ في تعظيمه ، قال له الحكم بن عبد الرحمن الناصر : « من أنبل من رأيته في بلدنا هذا في اللغة ؟ » قال ، « محمد بن القوطية » .

وكان ابن القوطية مع هذه الفضائل من العباد النساك ، وكان جيد الشعر صحيح الالفاظ حسن المطالع والمقاطع إلا انه تركه ورفضه .

قال ابو بكر بن هذيل انه توجه يوماً إلى ضيعة له بسفح جبل قرطبة وهي



كاتدرائية ليون


الاندلس
البحر المحيط
(المحيط الاطلسي)
جبل طارق
البحر الابيض المتوسط
طريفة
سبتة
طنجه
تطوان
اصيله
مليلية
ناكور
اوجدة
سالة
مكناس
فاس
انفه
برغواطة
الاطلس
مكناسة
شمالي افريقيا

من ضياع الارض الطيبة، فصادف بها ابن بكر بن القرطبة صادراً عنها، وكانت له ايضا هناك ضيعة فلما رآني عرّج علي واستبشر بلقائي فقلت مداعبا له :

من أين أقبلت يا من لا شبيه له ومن هو الشمس والدنيا له فلك

قال فتبسم وأجاب بسرعة :

من منزل تعجب النساك خلوته وفيه ستر على الفتاك إن فتكوا

فما تمالكت ان قبلت يده إذ كان شيخي ودعوت له .

وهو صاحب كتاب « الافعال » ، وله كتاب « المقصور والممدود » جمع فيه مما لا يحد ولا يمد وأعجز من بعده به .

وجوه الحياة عند الاندلسيين

يغلب على اهل الاندلس ترك العمائم ولا سيما في شرقي البلاد فان اهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً اليه الا وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك ، واما الاجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمامة في شرقها او في غربها، وكثيراً ماترى سلاطينهم واجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم فسلاحهم كسلاحهم ، واقبيتهم كاقبيتهم وكذلك اعلامهم وسروجهم .

ومحاربتهم بالترس والرمح الطويل للطعن ، ولا يعرفون الدبابيس ولا قسي العرب بل يعدون قسي الافرنج المحاصرات في البلاد . ولا تجد في خواص الاندلس واكثر عوامهم من يمشي بدون طيلسان، الا انه لا يضعه على راسه منهم إلا الاشياخ المعظمون وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً، والصفر مخصوصة لليهود، ولا سبيل ليهودي ان يتعمم البتة . فالذي يتشبه بالمسلمين وليس عليه رقاع ولا زنار يعاقب بالضرب والحبس ويطاف به في مواضع اليهود ليكون ذلك تحذيراً لمن رآه منه وزجرا ، والزنانير يجب ان تكون عريضة مغيرة في وجوه ثيابهم ليعرفوا بها فمن خالف يضرب عشرين سوطاً مجرداً ثم يزج في الحبس، وان عاود يضرب ضرباً وجيعاً ويطول حبسه .

والذؤابة لا يرخيها الا العالم ولا يصرفونها بين الاكتاف وانما يسدلونها من تحت الاذن اليسرى ، وهذه الاوضاع التي بالشرق في العمائم لا يعرفها اهل الاندلس وان راوا في رأس مشرقيّ داخل الى بلادهم شكلا منها اظهروا التعجب

والاستطراف ولا يأخذون انفسهم بتعليمها لانهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم ، وكذلك في تفصيل الثياب .

ولا يحق المرأة ان تمشي في خف يسمع له صرير وتمشي بهـا في الاسواق ومجامع الناس ، وربما كان الرجل غافلاً فيسمع صرير ذلك الخف فيرفع راسه ، وقد منع الخرازون من صنع الخفاف الصرارة والا يعـاقبون والمرأة تمنع من لبسها .

خطة الاحتساب

واما خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة في اهل العلم والفطن وكان صاحبها .قاضياً والعادة فيها ان يمشي بنفسه راكباً على الاسواق، واعوانه معه، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد احد الاعوان ، لان الخبز عندهم معلوم الاوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم وكذلك للثمن ، وفي ذلك من المصلحة ان يرسل الصبي الصغير او الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الاوزان ، وكذلك اللحم يكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزار ان يبيع بدون ما حد له المحتسب في الورقة ولا تكاد تخفى خيانته ، فان المحتسب يدس عليه صبياً او جارية يبتاع احدهما منه ، ثم يختبر المحتسب فان وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس فلا تسل عما يلقى؛ وان كثر ذلك منه ولم يتب بعد الضرب والتجريس في الاسواق نفي من البلدة . ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتدارسونها كما تتدارس احكام الفقه لانها عندهم تدخل في جميع المبتاعات وتتفرع الى ما يطول ذكره .

والوالي يتحرى العدل وان ينظر في اسواق رعيته ويأمر اوثق من يعرف ببلده ان يتعهد السوق ويعير عليهم موازينهم ومكاييلهم كلها، فمن وجده غير من ذلك شيئاً عاقبه على قدر ما يرى من جرمه واخرجه من السوق حتى تظهر منه التوبة والانابة الى الخير . واذا ظهر في السوق دراهم مبهرجة ومخلوطة بالنحاس يبحث عمن احدثها، فاذا ظفر به اناله من شدة العقوبة وامر ان يطاف به الاسواق

لشكله امامهم ينقون عظيم ما نزل به من العقوبة ويجابه بعد على قدر ما يرى .
ويأمر اوثق من يجد بتعاهد ذلك من السوق حتى تطيب دراهمهم ودنانيرهم
ويحرزوا نقودهم .

والقمح والشعير يباع عندهم بالمكيال وقد احدثها اهل الحوانيت ولا يعرف
لها اصل ، ويسلم الناس فيها فيما بينهم وهي مختلفة .

والمد عندهم هو كيل معين وقد بقيت هذه الكلمة العربية في اللغة الاسبانية .

والقفيز هو ايضاً كيل يختلف حسب المناطق التي تستعمله ، وقد بقيت هذه
الكلمة في اللغة الاسبانية .

والرطل في الاندلس يساوي ست عشرة اوقية او نحو خمسمائة غرام .

والمكس ضريبة تؤخذ على السلع في السوق .

والخبز اذا نقص واللبن اذا مزج بالماء يتصدق بهما ولا يطرحان ، ويؤدب من
وجد عنده من اصحاب الحوانيت ويخرج من السوق لأنه يتاجر فيه ولا حجة
له في نقصانه ويؤدب صاحب الفرن ، وإذا كان صاحب الحانوت عارفاً بالنقصان
يؤدب ايضاً .

والجزار يكون عنده اللحم السمين واللحم الهزيل فيخلطها جميعاً ويبيعها
بوزن واحد مختلطين فلا بأس عليه اذا كانت الأرطال يسيرة ، أما اذا كانت
كثيرة فيمنع لأنه من الغش .

ومن عاداتهم ايضاً ان لا تخرج النساء الى المقابر ولا يبكين على الميت علانية
وأما طريقة الفقراء في الدورة التي تكسل عن الكد وتخرج الوجوه للطلب في
الاسواق فمستقبحة عندهم الى النهاية ، وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على
الخدمة يطلب ، سبوه وأهانوه فضلاً عن ان يتصدقوا عليه ، ولا يوجد في
الاندلس سائل إلا ان يكون صاحب عذر .

احتكار صك النقود

صك النقود وقف على الدولة ، غير ان الافراد يجـاز لهم في بعض الاحوال لإصدار عملة لقاء دفع رسوم تصل عادة الى اثنين ونصف بالمـــائة عن كل قطعة فضية او ذهبيـــة ، ووصل الدخـــل من هذه الرسوم أو الضرائب على ايام عبدالرحمن الناصر الى مائتي الف دينار . والنقود الفضية تزيد ثلاثة اضعاف على القطع الذهبية .

ومن المعروف انه على عهد الناصر أخذت تصك نقود من الذهب والفضة ، ودار الصك في قرطبة نقلت إلى مدينة الزهراء . وكان يشرف عليها موظف كبير مسؤول يحق له ان يضع اسمه تحت اسم الخليفة على قطعة النقد .

الناصر في حياته الخاصة

لما مات الامير عبدالله جد الخليفة عبد الرحمن الناصر كان اولاده يعيشون بعيدين عنه في بيوت خاصة في المدينة ، فلم يعارضوا في تولية عبد الرحمن الحكم دونهم فأقسموا له يمين الولاء . وشكر لهم هذا الجميل وأسبغ عليهم نعمه فقدم لهم القصور والجعالات من ماله الخاص ، لأنه من المعروف ان الخليفة الناصر كان له بيت مال ينفق منه على اهله وولده وليس لهذا البيت علاقة ببيت مال المسلمين.

وكان لا بد من مورد لبيت المال هذا لانه اذا فرغ يفسد على امير المؤمنين قضاياه الكثيرة . فالدخل الذي يرد على بيت المال هذا يأتي من الضياع ملك الخليفة في قرطبة أو في غيرها من المناطق الخاضعة لنفوذه . وقد أقام على هذه الضياع أجراء يستثمرون الموارد ويدفعون قسماً منها للخليفة ويحتفظون بالقسم الباقي لقاء تعبهم .

وقد أوكل هذا التدبير الى موظف أطلق عليه اسم « صاحب الضياع » لجباية الأموال أو المحاصيل ، والخليفة يثق به كل الثقة . وبلغت الثروة من هذه الضياع الكثيرة الموزعة في جميع انحاء الأندلس حداً كبيراً لدرجة ان الحكم الثاني قرر إنفاق ربعها على أعمال البر والإحسان .

وأحد أعمام الناصر اسمه أبان قاد حملات عسكرية موفقة في ربيع سنة ٩١٥ (٣٠٢) في منطقة مالقة ومات في أواخر هذه السنة .

وله عم آخر اسمه العاصي قتـله لأنه تـآمر عليه مع قريب آخر له اسمه محمد بن عبد الجبار ، كما ذكرنا في غير مكان من هذا الكتاب .

أما أعمامه الثلاثة الآخرون فقد عاشوا في الخفاء .

وفي سنة ٣١٩ هجرية ماتت السيدة ابنة الامام الامير عبدالله لثمان بقين من ذي الحجة . وكانت قد نافرت الناصر ايام حداثته وقبل إفضاء الخلافـة إليه. وهو حينئذ ولد في القصر عند الامير عبدالله جده وطالبته عند ابيها عبدالله. فلما تولى الناصر الامور لم تشك في معاتبته لها ومجازاته لسوء معاملتها . فكان الأمر على خلاف ظنها فقرب الناصر مكانتها ورقى منزلتها وأخصها في جملة من اختص من اهله وبنات أعمامه حتى صارت أقربهن محلاً منه .

مات بكر أولاد عبد الرحمن الناصر المسمى عبد الوليد هشام سنة ٩١٦ (٣٠٣) ، وكان قبيل هذا التاريخ بسنة أي في ٢٠ كانون الثـاني ٩١٥ ، أول رجب ٣٠٢ ، أعطته جاريته مرجانة ولداً سماه عبد العاصي الحكم ، وكان مجموع أولاده يزيد على عشرة .

عين ابنه الحكم الثاني ليكون خليفة بعده وأم الحكم هذا مرجانة أعطيت لقب السلطانة الكبرى ، وكانت كثيراً ما تتودد الى الخليفة الناصر .

أراد الامير عبد الرحمن الفصد يوماً ، فقعد في البهو بالمجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء ، واستدعى إليه الطبيب لذلك وأخـذ الطبيب المبضع وجس عضد الناصر .

فبينما هو كذلك إذ أطل زرزور فصعد على إناء ذهب بالمجلس وأنشد :

أيها الفاصد رفقاً	بـأمير المؤمنينـا
إنما تفصد عرقاً	فيه محيـا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة ، فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك

غاية الاستظراف وسر به غاية السرور ، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور ، فذكر له ان السيدة الكبرى مرجانة أم ولده ولي عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك وأعدته لذلك الأمر ، فوهب لها ما ينيف على ثلاثين الف دينار .

كان الناصر قد رشح ابنه الحكم وجعله ولي عهده كما رأينا وآثره على جميع ولده ودفع اليه الكثير من التصرف في دولته ، وكان أخوه عبدالله يوازيه في العلم والمقدرة وقد لقب بالزاهد لورعه وتقواه ،فوسوس له الشيطان في احمد بن عبد البر الكسيباني الذي فشل في الخطابه أمام رسل الروم كما ذكرنا وحاول القيام بثورة ضد أبيه وأخيه الحكم ، وكان له أنصار كثيرون في قرطبة ، فانكشف أمرهم ونالوا جزاءهم بالقتل ، ولم ينج عبدالله من سخط ابيه رغم توسلات الحكم لكي يعفو عنه ، إلا ان الناصر لا يعرف الرحمة والشفقة في أمور تتعلق بسلامة الدولة ، إنه أمير المؤمنين قبل ان يكون والد عبدالله . لا يريد ابنه إثارتها فتنا تذهب بالأخضر واليابس ؟ أيهدم ما بناه أبوه طيلة عشرات السنين في دولة مترامية البنيان ؟ أيريد عبدالله ان يدك هذا الصرح المشيد على اكبر التضحيات بالأرواح والأموال ؟ الرحمة والصفح يجوزان ولكن ليس في هذه الخيانة الكبرى ، في هذه الشرارة التي هي على وشك الاندلاع ولا أحد يعلم متى تنطفىء وكم تذهب من ضحايا في سبيل إطفائها .

ورأى الحكم ان والده على صواب فيما يقول وعاودته ذكريات طفولته ، لما سمع تلك المحتضرة أم الامير عبدالله توصيه بولدها والمحافظة عليه من غدر الايام والليالي ، وتغرورق عيناه بالدموع ، إنها دموع تذهب سدى .

وعبد الرحمن تذكر صبحاً ، المرأة التي فتحت قلبه للحب لأول مرة وكان عبدالله ثمرة هذا الحب . ولعن الساعة التي اكتشف فيها جريمة هذا الولد الذي لم يرع حرمة ابيه وتمثل الماضي البعيد ايام شبابه والساعات المليئة بالحب المتمثل في صبح التي أحبها وأحبته بدون حساب ، وتمثلت امامه شناعة الخيانة من قبل

ولده ووالدها وما يمكن ان تجر من بلايا على هذه الدولة اذا ظل رأس الأفعى سليماً وتذكر بقول الشاعر العربي :

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها   إن كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا

ونفذ حكم الموت بابنه كما نفذه بأحمد بن عبد البر وياسر الفتى وغيرهم .

أما بقية اولاد الناصر فلا نكاد نعرف عنهم شيئاً وكذلك جواريه ، إلا التي يسعدها الحظ بأن تنجب له ولداً مثل مرجانة أم الحكم الثاني .

غير ان هؤلاء الاولاد كانوا يقيمون في القصر الملكي أو في بقية القصور تحت إشراف المؤدبين الذين يعلمونهم القرآن والعلوم المعروفة في ذلك العصر حتى يبلغوا أشدهم فيرسلوا عندئذ الى قرطبة للاقامة بقية حياتهم في الخفاء ، وليس لهم الحق في الانتقال إلى عواصم الولايات ، ولم يشغلوا وظائف هامة في الدولة عسكرية كانت أو إدارية .

وكان الناصر يلذ له قبل بناء مدينة الزهراء قضاء ايام الترفيه في منيته الناعورة وهي المفضلة لديه ، وكان جده الامير عبدالله قد اشتراها من ماله الخاص قبل ان يتسلم زمام الامور في قرطبة وكانت تحيط بها الحدائق الغناء تسقيها المياه المرفوعة إليها بواسطة آلات خاصة من النهر .

غير ان هذه المنيات لم تعد تفي بالمرام بعد ان أصبح عبد الرحمن الناصر أمير المؤمنين ، إنه بحاجة إلى أمكنة أوسع وأفخم للترفيه فقرر إنشاء مدينة الزهراء .

أصبحت هذه المدينة مركز الخلافة ، وعبد الرحمن الناصر تشبه بالخلفاء ، فلا يرى إلا في مناسبات ، هو الامام وهو يطبق الشريعة المستوحاة من الكتاب : عمل المعروف والنهي عن المنكر . هو السيد المطلق الصلاحية . بكلمة على شفتيه الحياة أو الموت يأمر وينهى دون منازع ، وإذا سلم السلطة لأحد فيكون

مسؤولاً أمامه عن أعماله في إدارة دفة الأحكام . ليس له من رادع سوى الشريعة نفسها فعليه ان يطبقها وينشر العدل بين أبناء رعيته ، دون ان يظلمهم ، وفي بعض الأحيان كان يتقبل النصح من الفقهاء .

كان الخليفة وأمير المؤمنين والرئيس الروحي والزمني وقائد الجيوش . قادها بنفسه في أول عهده ، هو يقرر خطط القتال والعمليات العسكرية ، هو يدير سياسة الدولة الخارجية ويبعث السفراء ، يستقبل بحفاوة بالغة ويقدم الهدايا الى البعثات الآتية اليه من الممالك المسيحية والإسلامية ، ينفق الأموال الطائلة على أهله وحاشيته .

التعيينات جميعها تأتي منه ، ويليه بالسلطة الحاجب وهو مثل وزير في الدولة العباسية مثلاً وسلطته أعلى سلطة الى جانب سلطة قاضي الجماعة .

تقوم مهمة الحاجب في النيابة عن الخليفة في الاحكام ، وهو الرئيس المباشر للادارة العسكرية والمركزية والإقليمية ، إنه شخصية هامة جداً ، مهمته المحافظة على الأمن في الداخل ولديه الجواسيس والشرطة ، وعليه ان يقدم كل يوم للخليفة تقريراً عن سير الامور في الدولة .

تولى حجابة عبد الرحمن الناصر مولاه بدر بن احمد ثم موسى بن محمد بن حدير ولما مات هذا الاخير سنه ٩٣٢ (٣٢٠) لم يعين مكانه احداً .

ولى موسى بن محمد الوزارة ، وتولى إدارة الشؤون المالية احمد بن عبدالملك ابن شهيد الذي أهدى الناصر هديته المشهورة التي ذكرناها سابقاً وأعطاه الناصر لقب « ذي الوزارتين » سنة ٩٣٩ (٣٢٧) .

والحاجب بدر بن احمد كان من خيرة الناس فانه في سنة ٣٠٣ كانت المجاعة بالاندلس وبلغت الحاجة بالناس مبلغاً لا عهد لهم بمثله وبيع قفيز القمح بكل سوق قرطبة بثلاثة دنانير دخل اربعين[1] . ووقع الوباء في الناس وكثر الموتى في أهل

---

١ - الرطل او الليبرة يساوي ١٦ اوقية
الاوقية تساوي ٣١٠٤٨ غراماً
القنطار يساوي مائة ليبره أو رطلا
القفيز يساوي ٦٠ رطلا .
القنيقة تساوي نصف قفيز .

الفاقة والحاجة حتى كاد يعجز عن دفنهم ، وكثرت صدقات أمير المؤمنين على المساكين في هذا العام وصدقات أهل الحسبة من رجاله ، فكان الحاجب بدر ابن احمد أكثرهم صدقة وأعظمهم بماله مؤاساة . ولم يكن في هذا العام اضيق الاحوال غزوة أو إخراج جيش ، غير ان الناصر أخذ بالجد والحزم في ضبط أطراف دولته والتحفظ بالمسلمين من عاديات اهل الخلاف إذ كانوا من استيلاء الجوع يغدرون بمن مر بهم من طالبي المعاش ومستجلبي الميسير ، فهؤلاء كانت مهمتهم استيفاء الضرائب والرسوم الاميرية ، وهذه في بادىء الامر كانت تدفع على شكل عشور أو زكاة ، ثم تحولت في بعض المناطق الإسلامية الى جزية تفرض على الرجل البالغ حسب درجة ثرائه أي اذا كان غنياً أو فقيراً أو متوسط الحال ، وهناك نوع آخر من الضرائب يسمى الخراج يفرض على البلدان التي استسلمت بدون قتال ، ويترك لها الحق في التصرف بأملاكها لقاء جزية أو خراج تدفعه كل سنة ، ثم بعد ذلك تحول هذا الخراج الى ضريبة دائمة تدفعها تلك الدولة حتى ولو أصبحت فيما بعد مسلمة .

أما الاراضي التي احتلت بقوة السلاح فهي غنيمة ويحق للخليفة الإستيلاء عليها وبالواقع كان يستولي عليها ولذا كانت عنده ضياع كثيرة ،تغذي بيت ماله الخاص كما رأينا .

وقد بلغت جباية الأندلس في مدة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف دينار واربعمائة الف وثمانين الفاً من السوق والمستخلص سبعمائة الف وخمسمائة وستون الف دينار .

وهناك وظيفة أخرى هامة في جسم الدولة الأموية في الأندلس وهي وظيفة الكاتب أو صاحب الرسائل ، وفي آخر عهد الناصر اي حوالي سنة ٣٤٤ هجرية وصل عدد هؤلاء الكتاب الى أربعة وهم بدرجة وزير : الواحد جوهر ابن أبي عبدة ، يرى في الرسائل الواردة من الولايات والاقاليم .

الثاني عيسى بن فطيس يرى في الرسائل الواردة عن الثغور أو التخوم ،

الثالث عبد الرحمن الزجالي ، وكان في أول عهد الناصر عبد الله بن محمد الزجالي يسهر على تنفيذ التقارير الإدارية التي وافق عليها الخليفة وظهرت في مراسيم رسمية .

الرابع محمد بن حدير يفحص الشكاوي الواردة الى القصر ويعمل على تطبيق التدابير ضد هذه الشكاوي إذا قامت على اساس من الصحة .

والناصر كان له كاتب خاص يملي عليه الرسائل أو المراسيم التي يريد توجيهها الى المسؤولين في قرطبة أو في عواصم المقاطعات ، ولم تكن سوى مسودات يضعها بعدئذ صاحب الإنشاء بقالب رسالة أو بطاقة أو صك أو منشور أو غير ذلك .

والسهر موكول أمره إلى الشرطة ويعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل . وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ، وهو الذي يحد على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الامور الشرعية راجعة إليه . كان اسمه على ايام الناصر : قاسم بن وليد الكلبي .

بقيت خطة القضاء فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمور الدين وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي، لا سبيل الى ان يتسم بهذه السمة إلا من هو وال للحكم الشرعي في مدينة جليلة، وإن كانت صغيرة فلا يطلق على حاكمها إلا مسدد ، وقاضي القضاة يقال له قاضي الجماعة وقد رأينا ان هذا المنصب قد ناله المنذر بن سعيد البلوطي بعدما أجاد الخطابة أمام رسل الروم .

المعاهدون

م جماعة المسيحيين المقيمين بين المسلمين في الاندلس ، يصعب علينا معرفة عددهم ونسبتهم في الممالك الاسلامية ، غير انه من المؤكد ازدياد عددهم لا سيما في الارياف ، وقد اخذ يتضاءل هـذا العدد نظراً الى الهجرة نحو المناطق المسيحية في شمالي شبه الجزيرة ، او الى اعتناق الاسلام .

وكانوا يمثلون اكثرية في مدينة طليطلة عاصمة القوط سابقاً ، وفي اشبيلية ايضاً ، وقرطبة .

اعطاهم الناصر لدين الله الحرية الكاملة في تتميم واجباتهم الدينية ، فحفظوا له هذا الجميل وخدموه اصدق الخدمات .

ولقد رأينا كيف ان الملك المسيحي الفونسو الثالث كيف كان يرغب المسيحيين المجيء والاستيطان في الاراضي التي استولى عليها .

والمسلمون يسمونهم اهل الذمة ويدفعون جزية الرأس ، وفرضوا عليهم الانضمام في جماعات على رأسها زعيم منهم يسمى القومص اي المدافع عن حقوقهم .

ويجمع الجزية موظف منهم يسمى المستخرج ، وكان عليهم قاض منهم لفض النزاعات التي قد تحدث فيما بينهم ويطلق عليه اسم قاضي النصارى ، وقد احتفظ لنا ابن القوطية باسم احدهم المدعو حفص بن الفرد المتحدر من غيطشة القوطي .

والمعاهدون لا يرجعون جميعهم الى اصل واحد فهناك رتب فيما بينهم ، والاشراف منهم يتحدرون من القوط ، ويحق لهم اقتناء الجواري والعبيد مثل اليهود والمسلمين ، والارستقراطيون يشكلون جماعة الاكليروس العلماني والرهباني :

وعلى عهد الناصر كان لهم ثلاث ابرشيات في الاندلس الواحدة طليطلة والثانية البرتغال والثالثة اشبيلية .

كان يتبع كنيسة طليطلة عشرون ابرشية وكل ابرشية على رأسها اسقف او مطران او حبر ، وهذه الرعايا موزعة هنا وهناك في شمالي العاصمة القوطية السابقة مثل اصمة بلانسية وبلنسيه ودانية وشاطبة والتشش ولورقة وبسطه .

وابرشية البرتغال مركزها في لرده وتضم رعية سلمنقة وكريه وجميع اجزاء البرتغال الحالي .

وابرشية الاندلس ويتبعها لبله واستجه وقرطبة وقبره والبيره ومالقة .

من المفروض ان يكون رئيس كنيسة المعاهدين مقيماً في قرطبة التي هي العاصمة المدينة للبلاد ، ولم يكن الامر كذلك فرئيس اساقفة الاندلس يقيم في طليطلة واسمه يوحنا توفي سنة ٩٥٦ وخلفه رئيس الاساقفة عبيدالله بن قاسم ، ثم انتقل الى مطرانية اشبيليـــة ، ونعرف اسقفاً من قرطبة اسمه عيسى بن منصور اشتهر على ايام الحكم الثاني .

وقد جئنا على ذكر اسقف كبير لعب في قرطبة دوراً هاماً على ايام الخليفة عبد الرحمن النـاصر واسمه ربيع بن زيد وفي اللاتينية « ريسيموندو » ، فهو الذي توجه الى المانيا كسفير لدى الملك اطون الاول ، كان يجيد اللاتينية الى جانب العربية ، وقد عينه الناصر اسقفاً على ابرشية البيرة لما شغر المنصب هناك .

وبعثه الخليفة الاموي لما تبين نجاح مهمته في المانيا ، الى القسطنطينية وسوريا للحصول على اواني فنية لتزيين مدينة الزهراء التي بناها الناصر كما رأينا ، ووفق

في جميع المهمات الملقاة على عاتقه . وواصل لعب دوره بنجـــاح على ايام الحكم الثاني ، وكانت له معارف في الفلسفة وعلم الفلك وقد الف بعض الكتب

عينه عبد الرحمن على ابرشية البيره ، الا انه لم يتمكن من اشغال منصبه هذا نظراً الى رحلاته المتواصلة والبعيدة في الامصار ، ورأينا كيف ان الخليفة عمل على سيامته اسقفاً مما يدل على ان السلطة المدنية الاسلامية تتدخل في سيـامة الاساقفة المسيحيين او المطارنة والقسس والرهبان والكهنة العلمانيين ، وكان دائماً يقرن الاسم العربي بالاسم اللاتيني .

وطقس المعاهدين يختلف عن الطقوس الكاثوليكيـــة الاخرى ، وفي مدينة طليطلة ما يزال يقام حتى اليوم قداس الطقس المعاهد في بعض كنائسها وخاصة في الكاتدرائية .

والمسلمون يدهشون من الاحتفالات الدينية الفخمة التي كان يقيمها المسيحيون في ظهرانيهم فانهم لم يتعودوا عليها . وفي أوائل القرن العاشر تحدث ابو عامر ابن شهيد في بعض مؤلفاته عن الاحتفالات الدينية والورع الذي شاهده عنـــد المسيحيين في شعائرهم الدينية وهم يحضرون بعض الرتب في احدى كنائس قرطبة المزينة بالريحان .

وتكثر الكنائس هذه او البيع في قرطبة وخاصة في طليطلة ومرده واشبيلية حيث كانت نسبة المعاهدين عالية ، وكذلك في قرطبة يشكلون نسبة لا يستهان بها ، ولهم في العاصمة الاموية كنيسة في حي الرقاقين واخرى في حي الطرازين ، واخرى على اسم القديسين الثلاثة : فوستو وجيناره ومرسيال . ولهم في ضواحي قرطبة كنائس على اسم القديس مرتينوس والقديسة ايولاليه وما تزال محفوظة الى اليوم ، وكانت عادة تقع هذه الكنائس قرب صومعة او دير .

ولهـم مقابر خاصة عادة تكون على ابواب المدينة ، ومقابرهم في قرطبة الى جانب المقابر الاسلامية .

الرقيــق

للنخاسين في كل مدينة سوق يعرضون فيه الرقيق من الجنسين ، وهذا السوق او المعرض يشبه المعارض في الشرق .

وهنـــاك الرقيق المرتفع ، ووحش الرقيق ، وهذه الاسماء تطلق عادة على الجواري فمنهن المرتفعه ومنهن الدون .

والجواري البيض يؤتى بهن من بلاد الافرنج وغليشية والبربر ، بينما الجواري السود يطلق عليهن اسم السودانيات مهما كان مصدرهن ، ولسن بالمحتقرات فمنهن من تصلح للتسري وغيرهن للخدمة .

ويفضلون الجواري اللواتي يجهلن العادات واللغة العربية .

ويتم البيع بالمزايدة العلنية ، والشاري يتخذ جميع التدابير لكي لا يقع في الغبن ، فهناك نساء خصيصات لفحص الجواري والكشف عليهن وتسمى الواحدة منهن الامينة ، ويتدخل الاطبـاء ايضاً في فحص الجراري المعروضات للبيع ، وعلى كاتب العدل ان يسجل في صك البيـع او الشراء جميع صفات الجارية وعيوبها الجسدية وعلاماتها الفارقة ، وقد اشتهر الفقيه احمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدفي المتوفى سنـــة ٩٦١ مسيحية في انشاء العقود ، وهو من المعاصرين لعبد الرحمن الثالث .

ولكن جميع هذه التدابير الوقائية لم تكن تأتي دائماً بالثمار المرجوة فقد يقع

كثيراً الغبن ، وتتم الخديعة كما حدث لاحد المغفلين من البيرة فانه ابتاع جارية اندلسية وهو يحسبها اسيرة مسيحية ذات اصل عريق وانها لا تعرف سوى لغة بلدها ، وفيما هم في الطريق لم تقو على كبت نفسها فنادت احد التجار باللغة العربية ، فبان للشاري خداع الجارية والبائع فاقترحت عليه الجارية ان يتوجه بها الى المرية ، وعمل بمشورتها فباعها هناك بثمن ارفع وربح بها .

والجواري المغنيات لهن في بعض الاحيان تأثير كبير على بعض الأمراء والاعيان والارستقراطيين القرطبيين ، فبعضهن يؤتى بهن من الشرق حيث تعلمن فنون الغناء ونشيد الاشعار ويبعن بغالي الاثمان ، كما تم للجارية قمر التي اشتراها ابراهيم بن حجاج صاحب اشبيلية ودفع ثمنها وزنها ذهبا ، وغيرهن كن يتلقين فن الغناء في مدارس خصيصة انشئت في قرطبة لهذا الغرض ولا سيما بعد قدوم « زرياب » المغني الشهير الى الاندلس .

والأمراء والأعيان يتنافسون على اقتناء الجواري اللواتي يحسن الغناء ويحفظن الاشعار العربية ، ومنهن من كانت تشرى بثلاثة آلاف دينار .

اليهود

كانت اسبانيا خلال العصور الوسطى مركز الدراسات العبرية . وقد نبعت ثقافة يهود اسبانيا من موارد الثقافة الاسلامية بصورة مباشرة . ابتدأت حركة بعث الدراسات التلمودية في قرطبة بعد ان دخلت في عصر الانحطاط في الاكاديميات السورية والعراقية .

من الصعب اعطاء رقم صحيح عن عدد اليهود في الاندلس . انهم يؤلفون جاليات في اكثرية المدن الاسبانية ويعيشون في احياء شبه منعزلة عن السكان المسلمين والمسيحيين . لهم في طليطلة مدينة دعيت باسمهم فهي « مدينة اليهود » ، وفي قرطبة لهم حي اطلق عليه اسم « حي اليهود » ، وقد عثر في شمالي المدينة على مقابرهم المفصولة عن مقابر المسلمين بطريق عمومية .

وتشير المصادر الموثوق بها الى اعتناق الديانة الاسلامية من قبل عدد كبير منهم طوال القرون الوسطى وهم عادة من المقيمين في الاندلس قبل دخول العرب اليها او قدموا من شمالي افريقية ومن المشرق . ونسبة دخول اليهود في الاسلام اقل منها عند المسيحيين الذين كانوا يدخلون افواجاً على حد قول الشاعر ابن عبد ربه .

وكانوا على ايام العرب يتمتعون بالحرية الكاملة ، فالكتب تحدثنا عن علاقة الذميين من اليهود بالسلطة المركزية ، فيسمح لهم بتتميم واجباتهم الدينية داخل

الكنيسة وجماعاتهم تعين رجلاً تثق به يتكلم باسمها ويدافع عن حقوقها امام السلطة المدنية على غرار القومس عند المعاهدين . ولم يبرز منهم على ايام الخليفة الاموي الناصر لدين الله سوى الطبيب ابو يوسف حسداي بن اسحق بن شبروط.

ولقد جئنا على ذكره في حديثنا عن طوطة ملكة نباره وحفيدها الملك شانجه.

ولد هذا الطبيب والدبلوماسي اليهودي في جيان سنة ٩١٥ – مسيحية ومات سنة ٩٧٠ بعد ان نال شهرة كبيرة في الاندلس وخارجها من حيث مقدرته كطبيب اذ استطاع شفاء الملك شانجه من سمنته ، وبرهن عن براعة في السياسة والتنظيم الاداري وساعد في ترجمة كتاب الحشائش لديوسقريديس الذي اهداه قسطنطين السابع الى عبد الرحمن الناصر . وكان قد ترجمه من اليونانية الى اللاتينية الراهب نيقولاوس .

واليهود ينسبون اليه فضلاً آخر بتجديده الدراسات التلمودية كما اشرنا ، بما بسط من العون لموسى بن حانوخ ومدرسته فلم تلبث ان انجبت من اعلام الادب العبري رجالاً مثل مناحيم بن سروق الطرطوشي ودوناش بن لبرات .

ومهمة اليهود الاندلسيين سواء كانوا في الممالك الاسلامية الجنوبية او المسيحية الشمالية تنحصر بكونهم اداة اتصال في الحقل السياسي وفي التبادل التجاري واكثرهم ، الى جانب لغتهم العبريه ، يفهمون اللغة الاسبـانية اي الرومنسي Romance واللغة العربية .

ويتجشمون اخطار رحلات بعيدة ، يدفعهم حبهم للتجارة ، في الشرق العربي ام في اوروبا ما وراء جبال البرانس حيث يجلبون لزبائنهم الجلود والرقيق والخصيان .

بدأ ظهور السفرديين في القرن العاشر ، فقد تركوا تأثيراً كبيراً في الاقتصاد والاجتماع في شبه الجزيرة الايبرية منذ اواخر القرون الوسطى الى العصر الحديث .

دور الشرق في حضارة الاندلس

لم يتمكن الاندلسيون، رغم تحررهم السياسي من بغداد، ان يقطعوا علاقاتهم تماما مع الشرق في جميع النواحي ، فكثير منهم جاء الى المدينة وبغداد ليستقوا المعارف من ينابيعها ، وللمتاجرة والتعرف على هذه الحياة التي يعيشها اخوان لهم هناك في الدين واللغة .

ولما اطل القرن العاشر على اسبانية اخذت شهرتها تمتد كبلد مضياف ، قصدها المشارقة بكثرة ولا سيما الادباء منهم حتى انهم شكلوا في قرطبة جالية لها نفوذها ، ومؤلفة من السوريين واللبنانيين والافريقيين والعراقيين . فرضوا في الاقامة فيها والاندماج في حياتها ومجتمعها .

وفي عهد عبدالرحمن الثاني او الاوسط جاء زرياب المغني الشهير الى الاندلس وكان رجلا فذا حول بلاط الامير الاموي من خشونة الى ترف قصور الحكام واصحاب السلطان في المشرق . ذلك ان زرياب لم يستهو افئدة اهل قرطبة بصوته وجمال اغانيه فحسب ، بل بآدابه الاجتماعية وملابسه وطريقته في ارسال شعره وولائمه البديعة التي كان يتفنن في ترتيبها ، فاخذ الناس عنه ذلك كله واصبح ذوقه قياس الذوق لاهل قرطبة واصبحت ملابسه النموذج الذي يحتذيه القرطبيون في اعداد ملابسهم .

ولم يكن الوحيد الذي استقبل بالترحاب فقد وصل الشاعر ابراهيم بن سليمان الذي تعرف على ابي نواس وابي العتاهية .

وبلغت الهجرة الى الاندلس اوجها قبل عهد الناصر لدين الله. فلما تسلم زمام الحكم حد منها خوفاً من التجسس لحساب دولة اجنبية عدوة مثل الفاطميين في شمالي افريقية والعباسيين في بغداد . ولم يكن خوفه في غير محله وقصة احمد بن محمد بن هارون البغدادي معروفة ، فهذا بعد ان نعم بخيرات الاندلس وفضل اهلها وكرم اخلاقهم ونشر مؤلفات الجاحظ وابن قتيبه فيما بينهم واثرى ، دخل في خدمة عبيدالله الشيعي فعينه كاتم اسراره . ومع ذلك فقد ظلت قرطبة مطمح انظار العلماء والفقهاء والادباء لظنهم انهم يلاقون فيها الترحيب الكامل .

كانت مدينة القيروان في افريقية نقطة الوصل في هذه الرحلات المتبادلة ، ففي آخر دولة عبد الرحمن الثاني كان يوجد في البيرة سبعة فقهاء يدرسون ما تلقوه من سحنون نفسه .

وهذا التبادل في الزيارات بين الاندلسيين والمشارقة فتح آفاقاً جديدة للعلوم الدينية والمدنية ، ونعرف عن فرج بن سلام اللغوي والشاعر والطبيب انه سافر الى العراق واتصل بالجاحظ وجاء بكتاب البيان والتبيان مع كتب اخرى كثيرة له .

ولا حاجة الى تبيان التأثير الكبير الذي احدثه الشرق على الغرب ويكفي ان نقرأ العقد الفريد للشاعر الاندلسي ابن عبد ربه وندرك تفهمه الكامل لكل ما يحدث عند المشارقة . فهذا الكتاب اشبه بموسوعة . كل ما فيه شرقي ، ولا شيء فيه من الاندلس الا الارجوزة التي جئنا على ذكرها في هذا الكتاب وهي تتحدث عن المعارك التي خاضها الامير عبد الرحمن الناصر بنفسه ، والباقي تاريخ الشرق العربي حتى ذلك الحين .

لم يخلق امير في الاندلس مثل الحكم الثاني جمع معارف وكتباً تضمنت علوم ذلك العصر وما سبقه من العصور فأبوه الناصر لم تساعده الظروف على التفرغ للعلم ، فقد شغلته الحروب التي اضطر الى خوضها في الداخل والخارج على الحدود الشمالية وفي افريقية . فالحكم استسلم الى الثقافة مدة شبابه كله ولما تسلم زمام

الامور كان قد تجاوز الاربعين فتمكن طيلة هذه المدة من ترويض نفسه وتمرينها على ادارة الاحكام وتلقن العلوم الدينية والمدنية فوصل الى ثقافة عالية شاملة لجميع معارف ذلك العصر ، فاجمع الرواة والمؤرخون على ان الحكم الثاني كان دائرة معارف ، وكثير من التصحيحات والملاحظات مكتوبة بخط يده . ولا شك أنه كان يعقد حلقات ادبية يجادل الفقهاء ويناظرهم اما في قصر قرطبة او في مدينة الزهراء نفسها .

وهو الذي عمل على دعوة جميع العلماء والادباء المشارقة الراغبين في الاقامة في الاندلس وكان ابوه ما يزال حياً .

وصل سنة ٣٣٠ (٩٤١) الى قرطبة ابو علي القالي اللغوي الشهير بعد ان درس مدة خمس وعشرين سنة في بغداد وتوصل الى الشهرة والمال ، فسافر الى اسبانية واظهر عن رغبته في الاقامة بها فاستقبل استقبال الامراء ، وكان يتباهى بانه درس على يد دريد بن قتيبة . وفتح مدرسة وصار يعلم فيها اللغة العربية واصولها ، والف كتابه الامالي الذي اهداه للناصر . ودرس على يده الزبيدي الاشبيلي الذي صار فيما بعد مربياً لولي العهد هشام الثاني بن الحكم الثاني .

وفي سنة ٩٥١ (٣٤٠) وصل الى قرطبة للاستيطان فيها شاعر بغدادي اسمه المهند . فجمع ثروة واشترى حقلاً وضيعة وسكن فيها مستسلماً الى حياة الزهد والتأمل .

ولم يكتف الحكم الثاني ببذل الهدايا الثمينة للأدباء الذين يأتون للسكنى في قرطبة بل كان يبعث في اثر رجالات الأدب المرموقين في الشرق مثل الكندي ابي عمر . كما ان مبعوثاً خاصاً من قبله جاء الى ابي الفرج الاصبهاني ومعه الف دينار لشراء نسخة من كتابه ، « رنات المثالث والمثاني في روايات الاغاني » ولم يكن هذا الكتاب قد نشر بعد في العراق . وفي هذا العصر كان رسل الخليفة يطوفون جميع انحاء العالم مفتشين عن الكتب النادرة والمخطوطات

لشرائها وضمها الى مكتبة الحكم الثاني التي كانت تضم اربعمائة الف مجلد منظمة احسن تنظيم ولها فهارس موضوعة في القصر بقرطبة، وقد اضيفت اليها مكتبة الامير عبدالله اخيه بعد ان قتله ابوه الناصر .

ونظمت لجنة تفتش عن الكتب التي تنقص المكتبة الملكية ، وقـــد عهد بالامر الى بعض الوراقين في ابتياعها او نسخهـــا . وبين هؤلاء الناسخين امرأة اسمها لبنة يشتغل معها اخصائيون في المقابلة بين نسخة ونسخة حتى لا يعود من مكان للغلط .

وقد تعرض قسم كبير من هذه المكتبة الفريدةفي نوعها في العالم الى الحريق، وذلك ان المنصور ابن ابي عامر ، ارضاء للفقهاء من المذهب المالكي، احرق منها كل كتاب يشتم منه رائحة الزندقة او الكفر او المخالفة لمذهبهم . والباقي منها نهب وتشتت بعد سقوط الخلافة الاموية في قرطبة .

الطب على عهد الخلافة الاموية

وصل الناصر في منتصف القرن العاشر الى اوج مجده، بعد ان استتب الامن في الداخل وهادن الملوك المسيحيين في الشمال وبنى مدينة الزهراء وزاد الزيادة المعروفة في جامع قرطبة ، وهي الصومعة ، وارتفاعها ثلاث وسبعون ذراعاً الى اعلى القبة التي يستدبرها المؤذن. وفي رأس هذه القبة تفافيح ذهب وفضة ودور كل تفاحة ثلاثة اشبار ونصف . فاثنان من التفافيح ذهب ابريز وواحدة فضة وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة تهندست بابدع صنعة ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج وهي احدى غرائب الارض . فانصرف الى تغذية العلوم والنهوض بها حاذياً حذو الخلفاء العباسيين في بغداد مثل المنصور والرشيد والمأمون . وانطلقت المبادرة من ولي العهد الحكم الثاني فجمع حوله فئة من العلماء تشتغل على اساس الترجمات التي استقاها العرب المشارقة من الفرس والاغريق والهنود .

ابتدأ الطب يزدهر في الاندلس على ايدي المشارقة القادمين من سوريا والعراق على عهد عبد الرحمن الاوسط ، ومنهم يونس بن احمد الحراني وكان طبيب الامير المذكور ، فارغمه الفتى نصر على اعداد سم للأمير ولكن اضطر الخصي الى شربه .

ترك يونس بن احمد هذا بعض تلامذة له، وكانت عنده مجربات حسان بالطب فاشتهر بقرطبة . ومما يروى عن ابن جلجل قال : رأيت حكاية عند ابي الاصبغ

الرازي بخط امير المؤمنين المستنصر ، وهي ان هـذا الحراني ادخل الاندلس معجونا كان يبيع الشربـة منه بخمسين ديناراً لاوجاع الجوف ، فكسب مالاً فاجتمع خمسة من الاطباء وجمعوا خمسين ديناراً واشتروا منه شربة من ذلـك الدواء ، وانفرد كل واحد منهم بجزء يشمه ويذوقه ويكتب ما تأدى اليه منه بحسه . ثم اجتمعوا واتفقوا على ما حدسوه وكتبوا ذلك ، ثم نهضوا الى الحراني وقالوا له : « قد نفعك الله بهذا الدواء الذي انفردت بـه ونحن اطباء اشترينا منك شربة وفعلنا كذا وكذا وتأدى الينا كذا وكذا فان يكن ما تأدى الينا حقاً فقد اصبنا والا فاشركنا في عمله فقد انتفعت . » فاستعرض كتابهم وقال: « لم تصيبوا تعديل اوزانـه » وهو الدواء المعروف بالمغيث الكبير فاشركهم في عمله وعرف من حينئذ بالاندلس .

ترك يونس بن احمد الحراني هذا ولدين احمد وعمر ، رحلا الى المشرق في دولة الناصر سنة ٣٣٠ واقاما هناك عشرة اعـوام ودخلا بغداد وقرآ فيها على ثابت ابن سنان بن قرة الصابي كتاب جالينوس وخـدما ابن وصيف في عمل علل العـين ، وانصرفا الى الاندلس في دولة المستنصر بالله سنة ٣٥١ وغزوا معه غزواته والحقهما في الطب واسكنهما مدينة الزهراء واستخلصهما لنفسه دون غيرهما مما كان في ذلك الوقت من الاطباء .

مات عمر بعلة المعدة ، ورمت له فلحقه ذبول من اجلهـا ومات . بقي احمد فاسكنه المستنصر في قصره بمدينة الزهراء وكان لطيف المحل عنده ، اميناً ، مؤتمناً يطلعه على العيال والكرائم . وكان رجلاً حليماً صحيح العقل عالماً بـما شاهد علاجه ورآه عياناً بالمشرق وتوجه عند الحكم الثاني لان هذا كان نهماً في الأكل . وكان يحدث له في اكله تخمة لكثرة ما كان يتناول من الطعام ، وكان يصنع له الجوارشانات الحادة العجيبة . وكانت توافقه ، وافاد مـالاً عظيماً .

وكان الكن اللسان رديء الخط . وكان بصيراً بالادويـة المفردة وصانعاً للاشربة والمعجونات .

قال ابن جلجل : ورأيت له اثني عشر صبياً صقالبة طباخين للاشربة صناعين
للمعجونات بين يديه . وكان قد استأذن امير المؤمنين الحكم الثاني ان يعطي منها
من احتاج من المساكين والمرضى ، فاباح له ذلك . وكان يداوي العين مداواة
نفيسة وله في قرطبة مآثر بذلك ، وكان يؤاسي بعلمه صديقه وجاره والمساكين
والضعفاء ومات بعلة الاسهال وخلف ما يزيد على مائة الف دينار .

يحيى بن اسحق

كان طبيباً ذكياً عالماً بصيراً بالعلاج صانعاً بيده . وكان في صدر دولة عبد الرحمن الناصر وولي الولايات والعمالات . وكان قائد بطليوس زماناً . وكان له من امير المؤمنين الناصر محل كبير . كان ينزله منزلة الثقة ، يطلع على الكرائم والحدم ، والف في الطب كتاباً يشتمل على خمسة اسفار وذهب فيـــه مذهب الروم . وكان يحيى قد اسلم واما ابوه اسحق فكان نصرانياً .

قال ابن جلجل : انه كان عنده غلام للحاجب موسى او للوزير عبد الملك . قال : بعثني اليه مولاي بكتاب ، فانا قاعد عنده بباب الجوز اذ اقبل رجل بدوي على حمـــار وهو يصيح فاقبل حتى وقف بباب الدار فجعل يتضرع ويقـــول ادركوني وتكلموا الى الوزير يخبري ، اذ خرج الى صراخ الرجـــل ومعه جوابه كتابه فقال للرجل ما بالك يا هذا ؟ فقال له : ايها الوزير ورم في احليلي منعني البول منذ ايام كثيرة وانا في الموت . فقال له : اكشف عنه . فكشف عنه فاذا هو وارم . فقال لرجل كان اقبل مـــع العليل اطلب لي حجراً املس . فطلبه فوجده واتاه بـــه فقال : ضعه في كفك وضع عليه الاحليل . فلما تمكن احليل الرجل من الحجر جمع الوزير يده وضرب على الاحليل ضربة غشي على الرجـــل منها ، ثم اندفع الصديد يجري . فلما استوفى الرجل جرى صديد الورم حتى فتح عينيه ثم بال البول في اثر ذلك . فقال له اذهب فقد برئت وانت رجـــل عائث واقعت بهيمة في دبرها فصادفت شعيرة من علفها لحجت في عين الاحليل فورم

...ها وقد خرجت في الصديد . فقال له الرجل : قد فعلت هذا ، واقر بذلك . وهذا يدل على حدس صحيح وقريحة صادقة حسناء .

قال ابن جلجل : وله نادر محفوظ في علاج الناصر .

قال : عرض للناصر وجع في اذنه والوزير يومئذ قائد بطليوس فعولج منه ... بغير . فامر الناصر بالخروج فيه فلما وصل اليه الفرانق استنطقه عن الحاجة التي اوجبت الخروج فيه . فقال : امير المؤمنين عرض له في اذنه وجع اعيا الاطباء فمرج في طريقه الى بعض اديار النصارى وسأل عن عالم هناك ، فوجد رجلا مسنا ، فسأله هل عندك تجربة لوجع الأذن ؟ فقال الشيخ الراهب : دم الحمام حار . فوصل الى امير المؤمنين وعالجه بدم الحمام حاراً كما بسفح ، وبرأ ، وهذا بحث واستقصاء ودؤوب على التعليم .

وليحيى بن اسحق من الكتب كتاب كبير في الطب .

سليمان ابو بكر بن تاج

كان في دولة الناصر وخدمه بالطب. وكان طبيباً نبيلاً وعالج امير المؤمنين الناصر من رمد عرض له من يومه لشيافه ، وطلب منه نسخته بعد ذلك فابى ان يمليها .

وعالج سعفاً صاحب البريد من ضيق النفس بلعوق فبرأ من يومه بعد ان اعيا علاجه الاطباء . وكان يعالج وجع الخاصرة بحب من حبه فيبرأ بالوقت . وكان ضنينا بنسخ الادوية . وله نوادر في الطب كثيرة . وكان اديباً فاضلاً حسن المحاضرة والمذاكرة ، وادركه في آخر ايامه مرض القروح في احليله فلم يمكنه دواؤه فقطع احليله ، وولاه امير المؤمنين الناصر قضاء شذونة .

ابن ام البنين

سمي بالاعرف ، وكان من اهل قرطبة وخدم امير المؤمنين الناصر لدين الله بصناعة الطب وكان ينادمه وكانت معه فطنة في الطب ، وله نوادر انذر بها كان معجباً بنفسه وكان الناصر ربما استثقله لذلك واضطر اليه لجودة فطنته .

سعيد بن عبد ربه

هو ابن اخي ابي عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر صاحب كتاب العقد . وكانت وفاة عمه هذا احمد بن محمد بن عبد ربه في شهر جمادى الاولى من سنة

٣٢٨ . وكان سعيد بن عبد ربه طبيباً فاضلاً وشاعراً محسناً وله في الطب رجز جليل يحتوي على جملة حسنة منه دل على تمكنه من العلم وتحققه لمذاهب القدماء. وكان له مع ذلك بصر بحركات الكواكب وطبائعها ومهب الرياح وتغير الاهوية ولم يخدم بالطب سلطاناً .

قال ابن جلجل عن سليمان بن ايوب الفقيه : « اعتللت بحمى فطاولتني واشرفت منها . اذ مر بابي وهو ناهض الى صاحب المدينة احمد بن عيسى . فقام اليه وقضى واجب حقه بالسلام عليه وسأله عن علتي واستخبرني عما عولجت به ، فنده علاج من عالجني وبعث الى ابي بثمان عشرة حبة من حبوب مدورة وامر ان اشرب منها كل يوم حبة ، فما استوعبتها حتى اقلعت الحمى وبرئت تماماً . وعمي سعيد في آخر ايامه . وله ارجوزة في الطب .

عمر بن حفص بن برتق

كان طبيباً فاضلاً مطرب الصوت له رحلة الى القيروان الى جعفر بن الجزار، لزمه ستة اشهر لا غير. وهو ادخل الى الاندلس زاد المسافر ونبل بالاندلس وخدم بالطب الناصر . وكان نجم بن طرفه صاحب البيارزة قد استخلصه لنفسه وقام به واغنى وشاركه في كل دنياه ولم يطل عمره .

اصبع بن يحيى

كان متقدماً في صناعة الطب وخدم بها الناصر والف له حب الانيسون . وكان شيخاً وسيماً بهياً سرياً معظماً عند الرؤساء .

محمد بن تمليح

خدم الناصر بصناعة الطب وولاه الناصر خطبة الرد وقضاء شذونة . وله في الطب تأليف حسن الاشكال ، وله كتاب في الطب .

ورأينا ان جميع هؤلاء الاطباء هم من المسلمين ، غير ان بلاط الناصر لم يخل من اطباء مسيحيين مثل خالد بن يزيد بن رومان ، ومن اليهود مثل حسداي بن شبروط الذي اشترك في ترجمة كتاب ديوسقوريديس الى العربية مع الراهب نيقولاوس وجملة من الاطباء العرب، وكانت النتيجة ان هذه فتحت الطريق امام الصيدلة . وبعض الاطباء الذين اشتغلوا في ترجمة هذا الكتاب اصبحوا فيما بعد اطباء الخليفة الحكم الثاني والمنصور منهم عبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم وابو القاسم الزهراوي الذي يعرفه الافرنج باسم ابو القسيس Abul casis مات في اوائل القرن الحادي عشر وترك مؤلفات كثيرة في الطب وعلم الجراحة، ترجمت اكثرها الى العبرانية والاسبانية واخيراً الى اللاتينية . وابو القاسم الزهراوي هذا كان يعتبر من احسن اطباء الجراحة في الطب العربي . وكان الاطباء العرب بالاجمال يحتقرون الجراحة لانها في مظهرهم من عمل الحلاقين ، غير ان ابا القاسم تعاطاها ونبغ فيها كل النبوغ ، وله كتاب ضخم مؤلف من ثلاثين مجلداً عنوانه « التشريع » ، واعتمد عليه الطبيب الجراحي في القرن الرابع عشر غوي دي شولياك Guy de chauliac .

علم الفلك

كان من العلوم المحرمة الا ان بعض الخاصة كانوا يتعاطونه في الخفاء لمعرفة توقيت الصلاة والصوم ، وقد ازدهر هذا العلم بنوع خاص على ايام الحكم الثاني بسبب التسامح الذي اظهره نحو العلماء في هذا الفرع وفتحه الطريق امامهم الاستقاء من الشرق العربي ومن بزنطية .

نبغ عالم اندلسي اسمه مسلمة المجريطي .

ولد في مدريد وسماه بعضهم امير الحسابيين الاندلسيين . فسلمة هذا أصلح خريطة الفضاء . ومع مسلمة يمكن القول ان المراصد الفلكية انتقلت من بغداد الى الاندلس حتى اصبح توقيت طليطلة غرينيتش العالم المتمدن في ذلك العصر . وعلماء الفلك الاوروبيون اخذوا عن الخريطة التي نظمها مسلمة ، كما انه ادخل تصليحات وتكميلات جوهرية على المشاكل الحسابية والهندسية للمهندس الشرقي ثابت بن قرة ، وقد ترجم مؤلفات بطليموس وعلق عليها .

والى جانب علوم الفلك هذه كتب في الطب والعلوم الطبيعية والكيمياء ، وهو عمل على نشر كتب اخوان الصفاء في الاندلس . وكان من علماء الكيمياء المشهورين .

التاريخ

كان على الاندلس ان تنتظر وصول عبد الرحمن الناصر لتجد المؤرخ الحقيقي الاول في شخص رجل قدم من المشرق واستوطن في اسبانية . هو احمد بن محمد ابن موسى الرازي . وقد برز ابنه فيا بعد على عهد الخليفة الحكم الثاني واسمه عيسى . يخبرنا عيسى هذا عن الامير محمد الاول انه كان مغرماً بمعرفة الاخبار عن البلاط العباسي ولهذا الغرض وطد علاقات ودية مع الامراء البرابرة في شمالي افريقية ولا سيا مع الرستميين في تاهرت ومع بني مدرارة في سجلماسة لكي يوافوه بتقارير ينظمها جواسيسهم عن الحالة السياسية في بغداد وسوريا ومصر وافريقية .

وكان الامير محمد الاول على اتصال وثيق من سيد القيروان ابراهيم بن اغلب ، فارسل له هذا الاخير سفيراً هو محمد الرازي جاء إلى شمالي افريقية لاغراض تجارية .

استقبله الامير الاندلسي احسن استقبال. ثم رجع الى الشرق وبعث تقريراً مطولاً يتناول الحالة في العراق بجميع نواحيها ، للحفاوة التي لاقاها في بلاط الامير محمد الاول .

ثم تلقى دعوة بالعودة الى اسبانيا فعاد اليها سنة ٢٧١ (٨٨٤) ، وجاء بجارية رومية حافظة عن الشعراء المخضرمين والاندلسيين ، وتجيد الغناء ، وعلى ما يظهر ان الامير محمد لم يهتم الاهتمام اللازم بالجارية اذ لم تجد حظوة في عينيه ،

فاستاء الرازي وعدها اهانة لحقت بشخصه فتوجه الى افريقية، ولما مر بسلطامة استأنف اعماله في تجارة الرقيق .

ولما مات الامير محمد خلفه المنذر فدعا محمد الرازي من جديد الى اسبانية فاسرع بتلبية النداء ولكن لوقت قصير لان موت المنذر امام اسوار ببشتر كم رأينا حمله على العودة فلم يقو عليها اذ فاجأته المنية في البيرة سنة ٨٩٠ مسيحية.

فلنسمع عيسى الرازي يتحدث عن ابيه قال : « لما توفي جدي كان عمر والدي ثلاث سنوات ، فاقامت عائلته في الاندلس حيث شب وترعرع . درس العلوم الدينية وشعر بميل نحو الآداب ، غير انه تغلب عليه حب التاريخ والابحاث التاريخية ، ولم يكن الاندلسيون يهتمون بهذه الناحية من المعارف . فصار يستقي المعلومات من الرواة والمتقدمين في السن ورتبها على شكل تاريخ. كان اول من قام بهذا العمل في الاندلس فقربه الامير ورفع منزلته ومنزلة ابنه بعده والاثنان زودا الاندلسيين بمعارف كانت مجهولة حتى ذلك الحين .

وبالواقع فاننا قلما نجد مؤرخين او على الاقل رجالاً اشتغلوا في هذا الحقل جل ما هناك في القرن الثامن والتاسع الميلاديين بعض اخبار بمجموعة سائرة في اسبانية دون ان تتجاوزها الى ما وراء البحار ، وهي تتحدث عن عهد الفتح الاسلامي . انه تاريخ فقير هزيل ليست له اي قيمة تاريخية. جاء الرازي وابنه واعطيا الاندلس علماً كان مجهولاً .

ولذا فان جميع المؤرخين العصريين الذين بنوا تاريخهم على تلك المعلومات الهزيلة جاء تأليفهم اوهى من نسج العنكبوت او مثل البيت المبني على الرمل لا يستطيع الصمود تجاه نقد رصين ، لا سيما بعد ان اصبح لدينا مجموعة تاريخية كاملة عن مؤرخ للحكم الثاني . اصبح بالامكان تصوير المجتمع الاندلسي على حقيقته في وضعه السياسي ونحدده دون خشية تكذيبه غداً او بعد غد .

غير ان العيب في هذا التاريخ قائم بكونه تاريخ غير واقعي بالتمام ، انه تاريخ بلاط محوره الخليفة ولا يعقل ان يذكر المؤرخ اموراً ليست في صالح،

سيده فيقتصر على الاشادة بفضائله وانتصاراته دون ان يتطرق الى عيوبه وفشله.

وهناك ينبوع هام لم يتحدث عنه ابن حيان في كتابه المقتبس، وليس لنا من هذا الكتاب سوى مصادر قليلة جاءت الينا من عريب ابن سعد ولكن من يؤكد لنا ان كلمات عريب ابن سعد ليست من تاريخ الرازي . فاذا اسعدنا الحظ يوماً في الوصول الى بقية اجزاء المقتبس التي تتكلم عن القرن العاشر نتمكن عند ذلك من تبيين صحة علاقة هذه الوثائق في بعضها البعض .

الفلسفة في الاندلس على عهد الناصر

ان تاريخ الفكر الفلسفي اللاهوتي في اسبانية الاسلامية هو صورة صادقة للثقافة الاسلامية الشرقية، دون ان يكون لسكان الاسبان اي علاقة او اتصال في هذه النهضة الفلسفية في الاندلس، وكل ما قيل عن انتقال العلوم القوطية الى العرب في الاندلس لا يقوم على اساس من الصحة وليس هناك من دلائل تشير الى وجوده.

فالمؤرخ الطليطلي سعيد، العارف بالقضايا الفلسفية والتأثيرات على الفكر الاسلامي وبما اخذته الفلسفة الاسلامية هذه عن اليونان والمصريين والفرس، يقول :

« كانت اسبانيا فارغة من العلوم في العصور الاولى، فلم ينل اي اسباني شهرة ما في هذه الناحية. كانت فقط توجد طلاسم قديمة من عمل الملوك المسيحيين، وبقية كذلك بدون دراسة فلسفية الى ان احتلها العرب ».

ويضيف : « وحتى بعد الاحتلال العربي لم يكن يوجد فلسفة وفلاسفة ورجال علم الا عند مطلع القرن الثالث للهجرة . »

والفيلسوف الاسباني سنيكا الذي عاش في منتصف القرن الاول للمسيح (٤ – ٦٥) وكان مفخرة بلاده قبل العرب، كان مجهولاً تماماً، وما نقوله عن سنيكا عن القديس ازيذورو رئيس اساقفة اشبيلية. عاش في القرن السابع للمسيح

(٥٦٠ - ٦٣٦) ولم يتأثر به العرب اي تأثير .

ولا مجال الى الشك في كلام سعيد المؤرخ الطليطلي العارف بأسماء فلاسفة اليونان والفرس وغيرهم .

والفيلسوف الاندلسي ابن حزم المتضلع من التورات المسيحية والعقائد الكنسية كما يبرهن على ذلك في كتابه الكبير وعنوانه «الملل والنحل» ، لم يذكر سوى مرة واحدة القديس بوليان، مع انه كان يعرف جيداً اللاهوتيين المسيحيين الشرقيين .

كل هذا يدل على ان الفلسفة القوطية فقيرة جداً ، فكل ما كان عند القوط من الكتب المقدسة ومن بعض آباء الكنيسة ، وكانوا يجهلون تماماً الناحية التعليمية والفلسفية عند اليونان ، وليس لهم اي المام بعلوم ما وراء الطبيعة .

اضف الى هذا عدم اهتمام الفاتحين الجدد من عرب وبربر في الدراسات الفكرية عند القوط المغلوبين ، ولم يحفظوا من حضارتهم سوى لغتهم وقوانينهم وشرائعهم القائمة على العرف وقسماً من تنظيمهم السياسي والاداري. تلك امور احتاجوا اليها في اول عهدهم للتنظيم الاجتماعي. ولكن الفلسفة التي تعتبر زهرة الحضارة عندما تبلغ اوجها لم تكن تهمهم بل على العكس تضايقهم .

ولذلك حتى القرن الثالث الهجري لا نجد بين المسلمين الاندلسيين فيلسوفاً واحداً . بجمل ثقافتهم قائم على بعض الدراسات النحوية واللغوية بالاضافة الى الشرح .

واول بادرة بعث انطلقت من اللاهوت كما جرى في الشرق تماماً ، فيظهر ان القومية الاسبانية اخذت تهز نير الاسلام السياسي مثلما حدث في الشرق كقيام الخوارج والفاطميين الذين يمثلون هذه الحركة المناوئة للعرب . وضرب عبد الرحمن الداخل وحفيده الحكم الاول بيد من حديد على هذه النزعات الجديدة وعادت الوحدة الدينية الى السيطرة في الاندلس .

ويمكن القول ان هذه البلاد ظلت اكثر امانة للتعاليم الدينية العقائدية من غيرها من الاراضي الاسلامية الاخرى طوال هذا التاريخ المديد . وبالرغم من ان ثقافتها الادبية واللاهوتية منسوخة بامانة عن الشرق فالهرطقات الكثيرة التي ظهرت في بغداد ودمشق والمدينة وغيرها وصل صداها خافتاً الى الاندلس لا يكاد يسمع . ويظهر ان الاكليروس الاسباني المالكي فهم بغريزته ان حياة الاسلام في الاندلس قائمة في وحدتها العقائدية . وتوصل رجال الدين الى اطفاء جميع مشاعل التجديد بعدم السماح لاي بدعة بالدخول الى اسبانية فقمعوها بكل شدة وقساوة . والدولة ولا سيما في اول عهدها ، ساندت هذه الطريقة بكل قواها فحرمت واضطهدت المدارس الدينية في الفقه الذي يخالف الشرع المالكي السائد في الاندلس آنذاك ، واحرقت بعض مجموعات من الحديث مثل المسند وكتاب المعارف وهي كتب بحد ذاتها لا تشكل خطراً هاماً على المذهب المالكي ، والتعصب لهذا المذهب بلغ اشده في القساوة والزجر . والزندقة تعاقب بالسجن او بالموت صلباً .

قد يكون هذا التعصب وهذه القساوة وعدم التسامح لاقت النجاح التام لو ان مسلمي اسبانية يعيشون منقطعين عن العالم الخارجي ، او لا يذهبون للحج الى بيت الله الحرام في مكة المكرمة ، حيث يتصلون بالفرق والنزعات المختلفة فتزول من عقولهم تلك التعاليم التي تلقوها في بلادهم ، فيرجعون الى الاندلس حاملين معهم علوماً جديدة وبدعاً غريبة يعملون على نشرها بين معارفهم واصدقائهم .

خنقت سياسة القمع المستعملة ضد المفكرين الاحرار والوشاية ضد كل فكرة حرة يشتم منها ادنى مخالفة للدين ، فلم يكن من احد بنجوة من خطر الموت اذا لم يردد مثل الببغاء القوانين التشريعية والعقائدية التي يعلمها فقهاء المذهب المالكي .

وعلوم الحساب والفلك كما رأينا تسير سيراً بطيئاً جداً ، فلا يسمح بها الا

بمقدار ما تفيد معرفـــة توقيت الصوم والصلاة وكل مـا يتعلق بالحياة الدينية الاسلامية .

وهنا نسمع سعيد الطليطلي يقول : انه في منتصف القرن الرابع الهجري، عندما ابتدأت سياسة التسامح على عهد الخليفة الحكم الثاني صارت هذه العلوم، تكشف عن وجهها . وقبل هذا العهد قلما نشاهد اسماء لمعت في عـالم الطب او الفلك او الحساب او بقية العلوم المفيدة كل الافـادة المجتمع الأندلسي ولم تلق، اي رواج او تقدم او تنشيط او مساعدة من قبل الحكام بل العكس الاضطهاد، فكم بالاحرى الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة ؟

دخلت الفلسفة الى الاندلس عن طريق الشرق ليس بصورة علنية بـــل، متسترة وراء علوم تطبيقية او لابسة رداء المعتزلة والباطنية مثلما تستر هاتان الفرقتان بالصوفية والتدين حتى لا تتعرضا للاضطهاد من قبل الحكام .

وبالواقع فانه عن طريق الحياة الدينية والتنسك والعبادة ، كان المعلمون يبثون في نفوس تلاميذهم التعاليم الفلسفية عن طريق هـــذه الفرق : المعتزلة والباطنية والصوفية والنسكية ذات الاميال اليونانية .

جميع هذه الفرق ظهرت في تعاليم الفيلسوف القرطبي الجري، ابن مسرة ـ

ابن مسرة

ترك ابو عبدالله قرطبة في صباه ليزور الشرق برفقة اخيه الاكبر ابرهيم التاجر سنة ٨٥٤ (٢٤٠) ، وكانت البصرة آنذاك مزدهرة من الناحية الادبية اكثر من اي مدينة في الاسلام . وكان الاندلسيون يذهبون الى مدارسها فتأثر الفتى عبدالله مثل الكثيرين من امثاله بالمعتزلة .

والمعتزلة هذه فرقة ظهرت في اواخر العصر الاموي حول واصل بن عطاء عندما سأل الحسن البصري عن رأيه في مرتكب الكبائر ، فقال : انه مؤمن منافق . ورد بذلك على حكم الخوارج القائلين بان مرتكب الكبائر كافر جزاؤه النار خالداً فيها . فسفه واصل الرأيين قائلاً : انه ليس بمؤمن ولا بكافر بل هو في منزلة بين المنزلتين ، هو فاسق ، ينبغي ان يعذب بفسقه . وغادر واصل ، على الاثر ، حلقة استاذه ، فاعتزلها ، وتحلق قوم من حواليه ، وعرفت فرقته هذه بالمعتزلة .

وهي تعتمد على العقل في تفهم المشاكل وحلها ، وفي وجوب تأويل النص الديني بحسب المدلول العقلي ، وتقول ان العبد قادر على افعاله وان الشر لا يجوز ان يصدر عن الله ، وان القرآن مخلوق ونفت الصفات الجسمانية ، وحتى يستحق المعتزل اسم الاعتزال عليه ان يجمع القول بالاصول الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فاذا كملت هذه الخصال فهو معتزلي .

وفي سنة ٨٨٣ (٢٦٩) ولد لعبدالله ابن سماه محمد ، وجد فيه الكفاءة لتعليمه مبادىء المعتزلة وتعاليم الصوفية ، غير ان الفاقه حملته على ترك بلاده فاودع ابنه كتبه لمواصلة علومه وتوجه الى مكة المكرمة حيث مات سنة ٨٩٩ (٢٨٦) .

كان ابن مسرة قد ادرك السابعة عشرة من سنه ، وحوالي سنة ٩١٢ (٣٠٠) جمع حوله تلامذة عاش مع بعضهم منزويا في صومعته الواقعة في جبال قرطبة واخذ بنشر تعاليمه ، غير انه لم يتركها تصل الى عامة الشعب اذ لم تتمد الحلقة الضيقة المحيطة به . وانتشر بين عامة الشعب التقشف والتقوى والفضائل الادبية التي يتحلى بها المعلم وتلامذته .

لم يساعد الجو المضطرب بالثورات الداخلية والفتن الاهلية الفيلسوف الجديد على نشر تعاليمه فالامير عبدالله لا ينظر باطمئنان وارتياح الى ناشري هذه التعاليم ، لا سيما وان ابا علي السراج ، رجلا عليه ثياب صوف راكباً حماراً وفي رجليه نعلان ويدعي الزهد كان يتجول في جهات الثغر منادياً بالجهاد ، وهو خبيث الطوية سيء النية يعمل على تشبيب الفتنة وعقد اتفاقية مع الثائر عمر ابن حفصون في الجنوب وبني قاسي في اراغون .

اضطر ابن مسرة الى الهرب ورافقه بعض تلاميذه في رحلته الطويلة على الشواطىء الافريقية حتى وصل الى القيروان ومكث فيها بعض الوقت ثم توجه الى مكة واتصل بجماعات المعتزله . وعاد الى الاندلس على ايام الخليفة الناصر الذين كان متساهلا مع الفلاسفة .

مات يوم الاربعاء بعد صلاة العصر يحيط به تلامذته في صومعته في جبال قرطبة في ٢٠ تشرين الاول سنة ٩٣١ مسيحية ٣١٩ هجرية . وكان له من العمر خمسون سنة وثلاثة اشهر . وفي اليوم التالي دفنت جثته بكل احترام واكرام من اصدقائه ومن اعدائه على السواء . وقرن اسمه باسم من ماتوا من الاشراف وسمي ذلك العام « عام الاشراف » اذ انه في هذا العام نفسه مات قاضي

الاسلام ابن عبد العزيز ، والحاجب وزير عبد الرحمن الناصر والمعتزل موسى ابن حدير .

ويقول عنه اهل زمانه انه ابن محمد بن عبدالله بن مسرة بن نجيح من اهل قرطبة ، يكنى اباعبدالله . سمع من ابيه ومن محمد بن وضاح والخشني وخرج الى المشرق في آخر ايام الامير عبدالله ، اتهم بالزندقة فخرج فاراً وتردد بالمشرق مدة فاشتغل بلاقاة اهل الجدل واصحاب الكلام والمعتزلة ثم انصرف الى الاندلس فاظهر نسكاً وورعاً ، واختلف اليه الناس وسمعوا منه فانقبض من كان له ادراك وعلم وتمادى في صحبته آخرون فدانوا بنحلته . وكان يقول بالاستطاعة وانفاذ الوعيد ، ويحرف التأويل في كثير من القرآن ، ومع ذلك يدعي التكلم على تصحيح الاعمال ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق في نحو من كلام ذي النون الاخميمي وابي يعقوب النهرجوري . وكان له لسان يصل به الى تأليف الكلام وتمويه الالفاظ واخفاء المعاني. والناس في ابن مسرة فرقتان: فرقة تبلغ به مبلغ الامامة في العلم والزهد وفرقة تطعن عليه بالبدع لما ظهر من كلامه في الوعد والوعيد وبخروجه عن العلوم المعلومة بارض الاندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم .

لم يترك ابن مسرة مؤلفات ، فعلينا ان نفتش عقيدته في كتب المتصوفين الاسبان مثل ابن عربي في كتاب « فتوحات » وفي طبقات الامم لسعيد الطليطلي الذي يؤكد ان ابن مسرة اتبع فلسفة نبذقلس اليوناني ، والعرب كانوا يرون في نبذقلس اول فيلسوف كبير من الفلاسفة اليونان الخمسة وهم في القدم نبذقلس ، فيثاغورس ، سقراط ، افلاطون ، وارسطو .

وقد عاش نبذقلس هذا في القرن الخامس قبل المسيح ٤٩٠(٤٣٥) من جزيرة صقلية التي تأسست حوالي سنة ٥٨٠ قبل المسيح .

تبنى نبذقلس مذهباً انتقائياً جمع فيه مبادىء من الفلسفات التي سبقته ،

فاصول الكائنات على قوله ترجع الى العناصر الاربعة الماء والهواء والتراب والنار .

ويقول ايضاً : ان الباري تعالى هو العلم المحض وهو الارادة المحضة وهو الجود والعز والقدرة والعدل والخير والحق ، لا ان هنا قوى مسماة بهذه الاسماء بل هي هو وهو هذه كلها . مبدع فقط لا انه ابدع من شيء ولا ان شيئاً كان معه فابدع الشيء البسيط الذي هو اول بسيط المعقول وهو العنصر الاول ثم كثر الاشياء المبسوطة من ذلك النوع البسيط الواحد الاول ثم كون المركبات من المبسوطات وهو مبدع الشيء واللاشيء العقلي والفكري والوهمي اي مبدع المتضادات والمتقابلات المعقولة والخيالية والحسية . وقال ان الله ابدع الصور لا بنوع ارادة مستأنفة بل بنوع انه علتها فقط وهو العلم والارادة .

هذا هو مبدأ نبذقلس الذي استقى منه ابن مسرة القرطبي .

فلسفة ابن مسرة

قال ابن عربي : « روينا عن ابن مسرة الجبلي من اكبر اهل الطريق علماً وحالاً وكشفاً ، العرش المحمول هو الملك وهو محصور في جسم وروح وغذاء ومرتبة فآدم واسرافيل للصور وجبريـــل ومحمد للارواح وميكائيل وابراهيم للارزاق ومالك ورضوان للوعد والوعيد .

فوق جميع الاشياء يوجد الواحد الالهي البسيط وغـير المدرك تنبثق منه جميع الكائنات مترتبة في الجواهر الخمسة يعتبرها ابن مسرة كخمسة عواميد يستند عليها العالم ، وهذه الجواهر الخمسة هي : العنصر او الهيولي الاول

· العقل .

· النفس .

· الطبيعة .

· الهيولي الثاني .

جميع الكائنات المخلوقة تنبثق من العنصر او الهيولي الاول ، كان اشبه شيء بضباب صادر عن الله . وهذا العنصر الذي يرمز الى العرش الالهي هو مبدأ كل الكائنات . اشرق الواحد نوره على المادة فنبتت صور الكائنات السماوية التي تشكل مملكة النور الاولى وهي العقل الكلي . سكب فيه الله علم جميع

الاشياء المستقبلة فمكس هذا العقل المعرفـــة على المادة كما لو كان يخط بريشة (الريشة الالهية) ومن هذه الكتابة تخرج النفس الشاملة، ومن هذه النفس الشاملة تنبثق الطبيعة المحضة ، ويشرق النور الإلهي على مملكة الظلام بواسطة الطبيعة المحضة وتأتي الطبيعة الثانية او الهيولي الثاني ومنه تنطلق كائنات العالم المنظور. وهذه الكائنات جميعها خلافاً عن الله عز وجل ، مركبة من مادة وصورة .

وينكر ابن مسرة بتاتاً ان الانسان يستطيع معرفة الله كما ان الله بدوره ليس عنده معرفة الكليات ولا الجزئيات لان هذه المعرفة تزيل وحدته وبساطته . الله يخلق المعرفة في العقل الشامل ، وبواسطة هذا العقل يدرك الكليات . اما الجزئيات فيعرفها بعد حدوثها والا فانه يكون مسؤولاً عن اعمال الانسان .

الانسان حر ويقدر ان يعمل الخير او الشر كما تقول المعتزلة .

كان ابن مسرة يعلم تعاليم الصوفية ويطبقها في حياته العملية ، وهي تدور حول تطهير الانسان بواسطة التقشف . ويعطي فحص الضمير اهمية بالغة . ومن الواجب تحرير النفس من الجسد وبهذا يتوصل الانسان الى درجـــة النبوءة التي بواسطتها يعكس عقل الانسان العلم الالهي .

وليس من عقـاب او ثواب بعد الموت فالنفس تتحرر من الجسد وتعود الى حالتها الاولى وبهذا تقوم السعادة .

وهكذا نرى ان ابن مسرة تأثر بالصوفية من جهة وبالمعتزلة من جهة اخرى واستوحى من نبذقلس فبنى فلسفة انبثاقية ذات طابع افلاطوني جديد .

وفاة الناصر لدين الله

كان ابتداء علة الناصر يوم الاربعاء لاحدى عشرة ليلة خلت من صفر عام ٣٤٩ وذلك نصف النهـار منه ، طرقت امير المؤمنين علته الصعبة من الريح الباردة فأرجف به وخيف عليه ، واكبت الاطباء على معالجته الى ان ظهر عليه تخفيف فتجشم القعود لخاصته في العشر الاول لجمادى الاولى فوصل اليه الفتيان الاكابر صاحب الطراز وخواص اكابر العبيد كمظهر وذويه ، فاستبشر اهل المملكة بما بدا لهم من انحطاط مرضه وسألوا الله كمال عافيته والقضاء قد سبق بموته من علته فلم تفارقه ، تخف احيـاناً وتثقل حيناً الى ان قضت عليـه في سنة ٣٥٠ يوم الاربعاء لاثنتين خلتا من رمضان ١٥ تشرين الاول ٩٦١ في اوج عزه وسلطانـه ودفن في القصر بمدافن اجداده ، وكانت ايام ولايتـه خمسين سنة وستة اشهر وثلاثة ايام ، وعمره ثلاث وسبعون سنة .

وجد في تاريخه بخط يده : ايام السرور التي صفت من غير تدكير يوم كذا من شهر كـذا من سنة كذا ، وكرر التواريخ فعدت ، فكل ما وجد منها اربعة عشر يوماً بطول خمسين سنة ونصف سنة .

وقال جعفر بن عثمان المصحفي في ندبته وكان كاتبه :

« الا ان ايامـــاً دفت بأمامها	لجائرة مشتطة في احتكامهـا
فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها	واحداثها الا قلوب عظامها
تأمل فهل من طالع غير آفل	لمن وهل من قـاعد لقيامها

وعانٍ فهل من عائش برضاعها ... من الناس الا ميت بفطامها

كأن نفوس الناس كانت بنفسه ... فلما توارى أيقنت بحمامها

فطار بها يأس الاسى وتقاصرت ... يد الصبر عن اعوالها واحتدامها

قال عنه مؤرخو العرب القدماء :

« كانت امارة عبد الرحمن أسعد امارة ، بعد عنها كل نفس بالسوء امارة ، فلم يطرقها صرف ولم يرمقها محذور بطرف ، فقرع الناس فيها هضاب الاماني وربما ورتعت ظباؤها في ظلال طباهـا ، وهو اسد على برائنه رابض وبطل ابداً على قائم سيفه قابض ، يروع الروم طيفه ويجوس خلال تلك الديار خيفه ويروى بل يحسم كل آونة سيفه » .

المقري (نفح الطيب)

... والناصر هذا هو الذروة العليا في ملوك بني امية . طال عمره واتسع سعده واشتهرت ايامه وبعد صيته وانتشرت بالعدوة الغربية طاعته ، وعلت على منابرها كلمته ، استنزل الثوار وشيد القصور وغرس الغروس وخلد الآثار فلم يبق عليه في الاندلس مخالف ولا نازعه منازع ودخل الناس افواجـاً في طاعته ورغبوا في مسالمته ..

ابن الخطيب (كتاب اعمال الاعلام)

.. واما عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الامير فانه ولي الخلافة والفتنة قد طبقت آفاق الاندلس والخلاف فاش في كل ناحية منهـا فاستقبل الملك بـعد لم يقابل به احداً فافتتح الاندلس مدينة مدينة . وقتل حماتهـا وهدم معاقلها وضرب المغارم الثقيلة على من استبقى من اهلها .

واتصل ملك عبد الرحمن خمسين سنة في عز منيع وسلطان قاهر وافتتاح للبلدان شرقاً وغرباً مع غزو للعدو والغلبة له وانتساف بلده وهدم حصونـه وتناهى ذلك السعد حتى فتح الله له ما وراء البحار من المدن الجليلة والمعاقل

المجمة كسبتة وطنجة وغيرها ودان له اهلها فاستعمل عليها القواد . . ومالت له الاهواء وسمت نحوه الهمم . . .

اخبار مجموعة . .

واحتجب عبد الرحمن الناصر مدة عن الناس فتقدم اليه من له عليه دالة قال : يا هذا ، السبل آمنة ؟ قال : نعم . قال : عدوكم مقهور ؟ قال : نعم . قال : قاضيكم يعدل ؟ فأجاب : نعم . فقال له الناصر : اذن ماذا تريدون مني ؟

انت على صواب يا عبد الرحمن ، لا نريد منك شيئاً ، يمكنك ان تنام قرير العين ، النوم الابدي ، بعد ان اتممت واجبك على اكمل وجه ، دخلت الحكم فوجدت مملكة مقسمة بين اسياد لا تربطهم عروة ولا يجمع بينهم عرق ، معرضين في كل حين لغزوات الافرنج ، وجشع ملوك ليون ونباره ، فأنقذت الاندلس الجميل من انشقاقاته الداخلية ومن طمع الاجانب ونشرت السلام والعدل في المملكة وملأت بيت المال بعد ان كان فارغاً من ثلث الضرائب التي كنت تستوفيها كل سنة ، حتى تركت في بيت المال هذا خمسة عشر مليارا .

وتركت الزراعة والصناعة والتجارة والفنون باعلى مستوى ، فكان السائح يشاهد أعمال الري والابنية الفخمة والحمامات النظيفة في عهدك المبارك .

ونشرت السلام والعدل ، فالمسافر يجتاز اوعر المناطق الجبلية دون ان يتعرض له احد بمكروه ، ويدهش لرخص الاسعار ولنظافة اللباس ولرفاهية الناس فافقرهم كان له مركوب : حصان او بغل او حمار ، وسكان قرطبة وصل عددهم الى مليون ساكن وثلاثة آلاف جامع وثلاثمائة حمام عام ومائة وخمسين الف منزل وثمانية وعشرين ربضا ، مدينة لا تضاهيها بغداد .

وخلقت اسطولاً ضخما نافس اسطول الفاطميين في السيطرة على بحر الابيض المتوسط . وجيشك من احسن الجيوش نظاما كثير العدد والعدة ، اجمل جيش في العالم بشهادة الراهب يوحنا دي غورتز ، وتغلبت على الملوك المسيحيين في

الشمال فهادنوك ، وملوك اوروبة يطلبون رضاك ويبعثون اليك السفراء .

واوجدت التعايش السلمي الحقيقي بين الديانات الثلاث الموحـــاة وقربت المستشارين اليـــك دون محاباة للوجوه او نظر الى المعتقد فكنت سيداً تخطى زمانه الف سنة وعشت في ايامنا فانت بيننا في هذه الذكرى الالفية تكريمـــا لك واقراراً بفضلك ليقتدي بك الحكام ولتكون لهم رائداً .

انت حي في قلوبنا وستبقى حياً ما غرد القمري او فاح الزهر !!!

سيمون حايك

تم طبع هذا الكتاب على مطابع فضول - الجميزه

المصادر العربية

الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس .

الفتح بن خاقان : قلائد العقيان .

ابن الأبار : الحلة السيراء

ابن الاثير : تاريخ ابن الاثير .

ابن بشكوال : كتاب الصلة .

ابن بسام : الذخيرة .

ابن حيان : كتاب المقتبس في تاريخ رجال اهل الاندلس .

ابن حزم : نقط العروس . الملل والنحل .

ابن عذارى : كتاب بيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب .

ابن خلدون : كتاب العبر .

ابن الخطيب : كتاب اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس .

الادريسي : نزهة المشتاق .

المقري : نفح الطيب .

ابن عبد ربه : العقد الفريد .

ابن خلكان : وفيات الاعيان .

جرجي زيدان : عبدالرحمن الناصر .

عبدالله الطباع : الحلة السيراء ، درس وتحليل .

اخبار مجموعة .

المصادر الأجنبية

LEVI-PROVENCAL .... *Civilisation*

Esp. mus. 10 ème siècle

ASIN PALACIOS .... *AbenhaZam*

Abenmasarra

ANGEL CONZALEZ PALEN - CIA . *Historia de la Espana Musulmana*

Histoire des Musulmans d'Espagne

DOZY .... *Recherches sur l'Histoire et la litté - rature des Arabes d'Espagne .*

MARIANO TOMAS .... *Abdel Rahman III*

FRAY JUSTO PEREZ DE URBEL .... *Espana Cristiana, comienzos de la Reconquista .*

CODERA .... *Estudios criticos de Historia Arabe - Espanola*

BALLESTEROS .... *Historia de Espana y su influencia en la Historia Universal*

SAAVEDRA .... *Invasion*

SANCHEZ ALBORNOZ .... *Estampas de la vida en Leon hace mil anos*

SIMONET .... *Historia de los mozárabes en Espana*

AL-ANDALUS .... *Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid Y Granada*

FLOREZ ENRIQUE ..... *Espana Sagrada*

GOMEZ MORENO .... *Iglesias Mozárabes*

FAGNAN .... *Extraits inédits*

FOURNEL .... *Les Berbers , Etudes sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes*

GUILLERMO FRAILE .... *Historic de la Filosofia Universal*

فهرس الكتاب